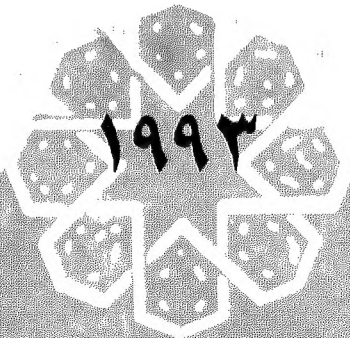


تاريخ الدولة العباسية

مكتبة
نبيلة حسن محمد
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية المساعد
كلية الآداب - جامعة الإسكندرية



دار المعرفة الجامعية
1- ش. بورسعيد - الإسكندرية
٢٨٣ - ١٦٣ - ٤٢٠

تاريخ الدولة العباسية

ولكنزة
نبيلة حسن
كلية الآداب جامعة الإسكندرية

دار المعرفة الجامعية
٤٠ من سور - الإسكندرية
٤٨٣٠١٦٣ - ٤

بسم الله الرحمن الرحيم

"لقد كان في قصصهم عبرة لأولئك الذين لا يبالون"

مدق الله العظيم

قرآن كريم: سورة يوسف آية «١١١»

مقدمة

سمات الدولة العباسية

الدولة العباسية

سمات الدولة

دالت الدولة الأموية، التي حكمت الدولة العربية الاسلامية من الحاضرة دمشق، وقامت علي انقاضها دولة جديدة تنتمي الي بيت الرسول صلي الله عليه وسلم وهي الدولة العباسية، وارتفعت بنود العباسيين السوداء.

ويعتبر قيام الأسرة الجديدة نقطة تحول خطيرة في دولة الاسلام وذلك أن مبيعة الدولة أصبحت إسلامية عالمية بعد أن كانت عربية وأستمرت الدولة العباسية في الحكم حوالي خمسة قرون شهدت الدولة خلالها فترات من العظمة والسؤدد والأبهة، وتمتع الخلفاء اثناءها بكل مظاهر الترف والحضارة كما شهدوا ايضاً فترات من الضعف والشدة والبؤس ذاقوا خلالها مرارة اللد والهوان.

والعصر العباسي الأول يشغل فترة القرون الأولى من هذه الفترة وخلال هذا القرن كان الفرس يحتلون مركز الصدارة في الدولة ولهذا يطلق الكتاب علي هذه الفترة أسم العصر الفارسي أو دولة الفرس. وأعقبت فترة الازدهار والقوة هذه فترة انتاب فيها الخلفاء الضعف الشديد وتحلب عليهم قواد الجيش من الترك وأصبح الأمر والنهي في الدولة لقائد الجيوش الذي عرف بلقب امير الأمراء. كذلك شهدت الدولة خلال هذه الفترة التفتت والانقسام السياسي الذي بدأ أول

الأمر في المغرب والأندلس ثم أنتقل إلى المشرق الذي بدأ ينقسم بدوره عن الدولة .

هذه الفترة - أو المرحلة الثانية - يطلق عليها الكتاب اسم العصر التركي أو دولة الترك . وهذه الفترة تنقسم بدورها إلى فترات ساد المشرق فيها بعض العناصر التركية وغير التركية . ففي قبيل منتصف القرن الرابع الهجري فرضت أسرة البويهيين من الديلم وصايتها علي الخليفة في بغداد من سنة ٣٣٤هـ إلى منتصف القرن الخامس الهجري تقريباً وبني بويه هؤلاء كانوا يدينون بالمدب الشيعي ورغم ذلك لم يحاولوا أن يقضوا علي الخلافة السنية بل حافظوا عليها . ولكن قيام دولتهم ساعد علي انتشار الأفكار الشيعية في المشرق . وكان ذلك أيلانا بتحول كل المشرق الإيراني إلي المدب الشيعي .

وتلي الديلم دولة السلجقة هم من الأتراك واستمر العنصر التركي يسود الدولة حتي نهاية بغداد علي أيدي المغول . وكان لسقوط بغداد حاضرة الخلافة العباسية أثره الخطير بالنسبة للدولة الإسلامية من الناحيتين الإسلامية والحضارية . فمن الناحية السياسية أنتهت دولة الخلافة وتقسمت الدولة إلي ذلك العدد الكبير من الدول المعروفة في المغرب وفي المشرق وحاول الأتراك العثمانيون أن يعيدوا هذه الوحدة وقد نجحوا إلي حد ما .

أما من الناحية الحضارية فكان سقوط بغداد يعني توقف العلوم والحضارة العربية والإسلامية وتلي هنا التوقف فترة من التدهور

والاضمحلال استمرت الي وقت قريب عندما بدأ العرب المسلمون يفتقون من ثباتهم هذا في الوقت الذي كانت فيه أوروبا تنهض من الناحيتين السياسية والحضارية فبدأت الفترة الحديثة الحالية في تاريخ الاسلام التي نسميها فترة النهضة .

أما عن السمات التي تميزت بها الدولة العباسية ففي مقدمتها أن الدولة اتخذت سياسة شرقية علي عكس الدولة الأموية التي كانت تتجه في سياستها العامة إتجاها غربيا والمثل لذلك هو أن بلاد المغرب كانت أول البلاد التي خرجت علي سلطان الخليفة العباسية وبدأت حركة المد الإسلامي في بلاد المغرب تفقد بعض قوتها، كما بدأ ينكمش أمام ضغط أوروبا المتزايد .

وفيما يتعلق بخلفاء الدولة العباسية فقد اعتبروا أنفسهم ورثة النبي صلي الله عليه وسلم الذين يسيرون بالجماعة الإسلامية في الطريق القويم المستقيم . وإذا ما تأملنا في كتب التاريخ نجد أن الكتاب يؤكدون حرمة وقداسة الخليفة العباسي سليل بيت النبوة بينما يظهرون خلفاء بني أمية بمظهر الزعماء غير المتدينين وبيبالغون في وصف رذائلهم . ويمكن أن نفسر ذلك بأن معظم الكتاب الذين كتبوا عن تاريخ الدولة الأموية انما دونوا مصنفاتهم تلك علي أيام العباسيين ولهذا السبب لانتوقع منهم ان يسجلوا امجاد اسرة أنمحت واندثرت . ومصورة الخليفة العباسي عند هؤلاء الكتاب أشبه ماتكون

بصورة كسري فارس فهو يتمتع بكثير من الأبهة والفخامة والرونق
 والعظمة، كما تحيط به مظاهر الترف والتحضر. فقد زخر بلاط
 الخليفة بأهل العلم والفقهاء ممن يتصفون بالورع والتقوى، الي جانب
 الأدباء والمغنين والشعراء والأطباء الأعيان، والقضاة، وكذلك
 المشعوذين والمنجمين. وشهدت كما يقول ديوموبين ليالي بغداد
 الساحرة محافل الخلفاء ومجالسهم، فبعد صلاة العشاء الوردية تنشد
 الأغاني وتثار كلوس الراح خلال ذلك. ويعطر الجو بأنسام عبقة
 تتصاعد من المبخرات يختلج علي رنين قطرات الينابيع ويهتز الجو
 طربا للأصوات القوية المفردة المنبعثة عن أفواه المغنيات والغان
 الأعواد. وقد يعترض هذه الحلقات اليومية حادثة غير متوقعة
 فتكسبها طرافة كاستجواب سجين لبق ذي فصاحة مفعمة او زيارة
 ناسك متسول ذي كبرياء ولفظاة وقد يحز رأس بينما تدور الاقتراح
 وتقترب الليلة من نهايتها، فيثقل العمر قلوب النشأوي وتبهل
 السموع وقد ينشد شاعر قصيدة ينعي فيها العمر القصير. وفي
 الختام يبرز فجر بأضواءه والتهيبة فيؤدي صلاة الصبح أولئك الذين
 فيهم بقية من وعي بخشوع وتقوى. أنها حياة ملأى بالاحاسيس
 عذبة رقيقة. أنها حياة ملأى بالاحاسيس عذبة رقيقة معاً، تحفل
 باللفظاة ورقة الطبع في أن واحد نجد مثيلاً لها لكن بصورة أوضح
 واعنف، وذلك في عصر النهضة الأوروبية. وقد ورد وصف هذه
 الحياة الحافلة في ألف ليلة وليلة والأغاني، ومروج الذهب، وفي
 روايات المؤرخين وقصائد الشعراء. ولكن وراء هذا الوجه

الرومنتيكي للحياة يعيش شعب بينهم من يفكر . . وقد شهد القرن الثالث الهجري [التاسع الميلادي] قمة جهود المسلمين لفهم ذات الله والانسان والحياة، والتوفيق بين العقل والنقل . وكان عصر ازدهار الادب العربي كذلك، وبداية احياء آخر للفن الاسلامي بصورة فعالة . وفي هذا العصر كذلك نجد كل امكانيات الازدهار العقلي والمادي قد تحققت بوضوح . وفي السنوات الأخيرة من هذا العصر باللات آذنت الساعة بزوال وتفسخ هذا المجد [١] .

(١) انظروا جود فرواديوميين، النظم الاسلامية، عرجه الدكتور فيصل السامر، الدكتور صالح الشباع، دار النشر للجامعيين، بيروت ١٩٦١ هـ

الفصل الأول

التعريف ببعض المصادر

التعريف ببعض المصادر

ونتكلم الآن عن المصادر التي يرجع اليها لدراسة هذا العصر
 نبدأ بالإشارة الي أن المصادر التي يرجع اليها لدراسة تاريخ العرب
 والاسلام تنقسم الي قسمين كبيرين: الأول منهما هو المصادر التي
 تتصف بالأصالة أو التي لا يتطرق اليها الشك وان حطرق فالي حد
 محدود وهذه المصادر الأصلية تنقسم الي أنواع فالأول منها هو
 الأوراق الرسمية او الأوراق الحكومية وهي التي تعرف باسم
 الوثائق او الأرشيف وهذه قليلة نادرة وماوصل اليها منها لا يكفي
 لكتابة التاريخ الاسلامي، بشكل يمكن ان ترضي عنه وهذه هي نقطة
 الضعف بالنسبة لمؤرخ التاريخ الاسلامي بوجه عام وذلك انه يضطر
 الي الرجوع الي مصادر من الدرجة الثانية مثل: روايات المؤرخين
 من معاصرين ومحدثين ويمكن أن نفسير ندرة الوثائق التي وصلتنا
 من العصور الاسلامية ونرجعها الي عدة أسباب نشير منها الي قلة
 الورق وغلاء ثمنه. فالمعروف ان الورق الذي استخدم في العصور
 الأولى هو المصنوع من نبات البردي وكان يعرف باسم القرطاس او
 القراطيس وذلك قبل ان تعرف صناعة الورق الرخيص المعتاد الذي
 عرف باسم الكاغد والذي دخل بلاد الاسلام منذ منتصف القرن الثاني
 الهجري [القرن الثامن الميلادي].

ومن هذه الاسباب ايضا عدم انتشار الكتابة بالشكل الذي آلت اليه في العصور الحديثة حتي أن الكثير من الأوامر الحكومية وكذلك المعاملات بين الأفراد كانت تتم شفاهة دون حاجة الي التسجيل . والي جانب هذا يمكن الإشارة الي الاضطرابات السياسية التي امتدت بالدولة الإسلامية والعداء المرير الذي كانت تكنه الأسر الحاكمة الجديدة للأسر السابقة عليها مما كان يدعوها الي العمل علي محو آثارها والقضاء علي مخلفاتها .

هذا كما يمكن الإشارة الي الظروف الاجتماعية في تلك العصور القديمة والتي لم تكن تعمل علي سلامة حفظ الأوراق الرسمية التي كانت تذهب ضحية للاهمال وعدم الرعاية ، الي جانب الكوارث مثل الحريق وغامة بسبب استخدام الشموع والمواقد الزيتية من اجل الاضاءة او القراءة ليلا .

النقود

بعد ذلك نشير الي النقود وهي تعتبر ايضا من الوثائق الأصلية وذلك بسبب النقوش التي تحملها والتي تتمثل في اسماء

الأمراء والقبائل وكذلك في العبارات المنقوشة عليها سواء كانت سياسية أو دينية إلى جانب تاريخ شك العملة، واسم البلد الذي ضربت به. فهذه المعلومات لها أهمية تاريخية هنا إلى جانب أهمية النقود من الناحية الاقتصادية والتي تتمثل في أنواع المعادن الثمينة المستخدمة في ضربها ومدى نقاء السبيكة الذهبية أو الفضة ومن هنا تصبح قوائم النقود الموجودة في المتاحف الخاصة في العالم من المراجع القيمة التي لا يستغني المؤرخ المحدث عن الاستفادة منها.

النقوش

يأتي بعد ذلك النقوش الموجودة على الآثار وعلى اللوحات التذكارية القديمة أو الشواهد القبور وغيرها. وهذه تحتوي مثلها مثل النقود على مادة أصلية بل هي أغني من النقود طبيعة حجمها وتنوع مادتها.

الآثار

وتأتي بعد ذلك الآثار وهي مثل النقود من حيث الأهمية الكبيرة بسبب أصالتها وذلك أنها شواهد مادية للعصور التي اقيمت فيها وهي تنقسم إلى معمارية وزخرفية.

وتتمثل الأهمية التاريخية لأثار من حيث أنها تعطي فكرة صحيحة عن طبيعة العصر الحضارية من الناحية المادية مما يعجز الوصف عن التعبير عنه مهما بلغ من الدقة والأمانة . ورغم التنقيب المستمر علي الوثائق والنقود والآثار . ورغم اهتمام الدارسين بذلك فإن ما وجد من العصور الإسلامية منها بشكل عام ومن عصر صدر الإسلام بصفة خاصة لا تكفي لكتابة تاريخ مؤثق لهذه الفترة . وبناء علي هذا فلا يبقني أمامنا إلا كتب المؤرخين القدماء من معاصرين ومتأخرين .

ثم نتناول بعد ذلك مصدر من أهم المصادر التي تناولت الدعوة العباسية وهو كتاب أخبار الدولة العباسية ولية أخبار العباس وولده وهو المؤلف من القرن الثالث الهجري .

وهذا العنوان «أخبار الدولة العباسية» يرجحه الأستاذ الدكتور عبد العزيز الدوري محقق المخطوط - وكله "دولة" هنا كما يقول الدوري، "لا تعني بالضرورة الكيان السياسي الملهوم . بل أن مؤلف "أخبار العباس وولده" استعملها بمعنى "دعوة" إذ يقول : "أن إبراهيم الإمام بن محمد أوصي أبا العباس عبد الله بن محمد بالقيام بالدولة، وأمره بالجد والحركة، وأن لا يكون له بالحميمة لبث ولا عرجة حتي يتوجه الي الكوفة" بناء علي الدراسة المقارنة

التي عقدها بين مخطوطه هنا، والقطعة المصورة من مخطوط بعنوان "نبذة من كتاب التاريخ للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر" التي نشرها الأستاذ غريان نيوبج مع ترجمة وتعليقات بالروسية ثم نشر المخطوط كله مصورا بعنوان "تاريخ الخلفاء" للمؤلف المجهول من القرن الحادي عشر وهذا الكتاب مهم لملته الوثيقة بمخطوط - الدكتور الدروي - وللضوء الذي يلقيه علي بعض مشكلاته.

وفقد الأوراق الأولى من المخطوط كما يقول المحقق حرمانا ثم أسم المؤلف. ولكن دراسة أسلوب الكتاب ومصادره. تدل علي أنه كتب في أواسط القرن الثالث الهجري فهو في الأساس كتاب أخبار يعني بإيراد الأسانيد ويلتفت الي اختلاف الروايات. ومع انه يراعي تسلسل النسب في إطاره الا انه لم يحافظ بدقة علي خط كتب الانساب. اذ أنه لايعني الا بالابن الأكبر. كما ان الاهتمام الخاص بالاسناد يبين الأثر الواضح لمدرسة أهل الحديث في الأسلوب.

وتتنوع مصادر معلومات الكتاب حسب طبيعة الموضوع، وتدل علي جهد واسع في جمع الروايات. فقد اخذ المؤلف جل معلوماته عن الدعوة من روايات شلفية واخذ من مؤرخين سابقين، وانفرد بإيراد وثائق ومعلومات هامة.

أخذ مؤلف "الاخبار" عن مؤلفين معروفين سبقوه من اخباريين،
 مثل ابي مخنف [توفي ١٥٧هـ / ٧٧٤هـ] وعوانه بين الحكم
 [توفي ١٤٧هـ / ١٩٩هـ]، والهيثم بن عدي [توفي ٢٠٦ -
 ٢٠٧هـ / ٨٢٢م] والمدائني [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وعن
 مؤرخين كالواقدي [توفي ٢٠٧هـ / ٨٢٣م] ونسابين مثل هشام بن
 محمد بن السائب الكلبي [توفي ٢٠٤ - ٢٠٦هـ / ٨١٩
 - ٨٢١م] ومصعب الزبيري [توفي ٢٣٥هـ / ٨٥٠م] وغيرهم مثل
 محمد بن سلام [توفي ٢٣١هـ / ٨٤٠م] واتصل بمعاصريه واخذ
 عنهم مثل محمد بن شبة [توفي ٢٦٢هـ / ٨٧٥م] والعباس بن
 محمد بن محمد الدوري [توفي ٢٧١هـ / ٨٨١م] والمبرد [توفي
 ٢٨٥هـ / ٨٩٨م] وقد اخذ روايات المعاصرين باسانيدها، وخير مثل
 لذلك مارواه عن البلاذري فهو يعطي روايات باسناد متصل، ولذلك
 تختلف سلسلة الاسناد احيانا عما جاء في كتاب انساب الاشراف
 للبلاذري، او يعطي اسنادا حين لا يوجد اسناد في رواية استتاب
 الاشراف، او يورد نصا يختلف لحد ما عن النص الوارد في انساب
 الاشراف مما يدل علي انه روي عنه مباشرة .

وانفرد المؤلف بمعلومات عن بداية الدعوة [حتى سنة
 ١٠٠هـ] وعن بعض احداثها واسرارها، كما أورد قوائم مفصلة

باسماء النقباء والدعاة في خراسان ومراتبهم وتنظيياتهم ويبدو انه اخذها من الحلقات الداخلية لرجال الدعوة، اذ استقي الكثير منهما من رؤساء الدعوة من الدعاة البارزين فيها. والظاهر ان اعتباره عن نشاط ابي مسلم في خراسان وعن نشاط المسودة العسكري بقيادة قحطبة وانتصاراتهم، تعتمد علي هذه المصادر وعلي اناس متصلين بالحلقة العباسية مثل ابي اسحق بن الفضل الهاشمي كما اخذ بعض معلوماته عن افراد من لاسرة العباسية مثل عيسي بن عبد الله وعيسي بن موسي وعيسي بن علي وابراهيم بن المهدي والرشيد.

واعطي المؤلف صورة داخلية لطبيعة الدعوة واحاديثها، وكشف عن جذور الغلو فيها، مما لايناسب العباسيين بعد مجيئهم للحكم، وهذا يجعل بعض محتويات الكتاب اقرب الي الوثيقة السرية منها الي كتاب للجمهور.

وكل هذا يشير الي صلة خاصة للمؤلف بالعباسيين واتباعهم، ومصادر الكتاب كما يقول الاستاذ الدكتور الدوري تجعلنا نحدد زمن تأليفه باواسط القرن الثالث الهجري. ويميل الي نسبة الكتاب الي محمد بن صالح بن مهران [ابن النطاح] توفي سنة ٢٥٢هـ/٨٦٨م ومع ان الاشارات الي ابن النطاح تجعله اول من صنف كتابا في اخبار الدولة.

ويقول الدكتور النوري ويدفعنا الي هذا الافتراض عدة أمور:
فابن النعمان مولي جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس،
وهذا الولاء يجعله علي صلة وثيقة باخبار العباسيين وكان ابن
النطاح، اخباريا ناسبا رواية للسنن، وهي عين للمؤلفات التي يكشف
عنها اسلوب "اخبار العباس وولده". وكان من بين من روي عنهم
ابن النطاح الواقدي والمناثني.

هنا ان الي عنوان كتابه هو "اخبار الدولة العباسية"

اما محتويات الكتاب فهي علي النسق التالي:

- يبدأ بالكلام عن موت العباس بن عبد المطلب
- ثم اخبار عبد الله بن العباس.
- اخبار علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار محمد بن علي بن عبد الله بن العباس.
- اخبار ابراهيم بن محمد بن علي الامام
- خبر ابي مسلم وابتناء امره
- مسير قحطبة بن شبيب بالجنود الي العراق
- ظهور ابي سلمة بالكوفة.

وينتهي اخباره بوصول وصية ابراهيم الامام الي اخيه ابي
العباس.

وقد قام بتحقيق الكتاب الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور
عبد الجبار المطلبي وطبع في بيروت، سني ١٩٧١.

كتب التاريخ العام

واول الكتب التي نشير اليها هو كتاب تاريخ خليفة بن خياط
المتوفي في سنة ٢٤٠هـ/٨٥٤م وخليفة من قدامي المؤرخين
الثقات، وصاحب اقدم رواية تاريخية وصلت الينا، وهو يسبق
تاريخ الطبري باكثر من نصف قرن.

وهو خليفة بن خياط العصفري البصري، المعروف بشباب.
تلقى العلم علي علماء بلدة البصرة، والبصرة كانت في القرن
الثالث الهجري مركزا هاما من مراكز اشعاع الثقافة العربية
الاسلامية الخاصة في علوم اللغة والحديث والسيرة والتاريخ.

في هذا البلد العثماني الهوي، شب خليفة ونشأ وتعلم وهو

ينتمي الي اسرة لها مكانتها العلمية فجدّه اسمه خليفة ايضاً كان من ثقات رجال الحديث عند البخاري وابن ابي حاتم الرازي صاحب كتاب "الجرح والتعديل" وقد اخذ خليفة العلم عن عدد من الشيوخ في مقدمتهم يزيد بن زريع، ويزيد هذا من ثقات اهل البصرة مع ميول عثمانية كما وصفه ابن سعد في طبقاته . كما سمع ايضاً من سفيان ب عينية وابن مهدي وهشام الكلبي وعلي بن محمد المدائني واخرين . ومات في سنة ٢٤٠ هـ ٨٥٤ م عن عمر يناهز الثمانين عاماً .

مؤلفاته

صنف خليفة حسبما ذكر ابن النديم في الفهرست اربعة كتب، كتاب التاريخ، وكتاب طبقات القراء "وكتاب" تاريخ الزمني والمرضي والعميان وكتاب اجزاء القرآن واعشاره واسباعه واياته .

ويكاد يجمع علماء الحديث علي ان خليفة كان من الثقات وقد وثقه البخاري في تاريخه الكبير عندما ترجم له وكذلك فعل الذهبي في "تذكر الحفاظ" و"ميزان الاعتدال في نقد الرجال" وسير اعلام النبلاء .

منهجه في الكتابة

وكتاب "تاريخ ابن خياط" يؤرخ لفترة من تاريخ الاسلام تمتد حتي سنة ٣٣٢هـ والكتاب مرتب علي طريقة السلويات وعليفة مؤرخ محدث فهو يعتني بسلسلة الاسناد أي الرواة الذين رووا الخبريل يذهب في ذلك الي اللذين شهدوا الاحداث.

وقد بدأ تاريخه بالكلام عن بداية التاريخ: ثم ثني ذلك بالحديث عن مولد رسول الله صلي الله عليه وسلم، ثم اخذ يورد اخبار كل سنة علي حدة ابتداء من السنة الاولى للهجرة ذاكرا اهم ماجري فيها من احداث حتي اذا انتهى من ذلك ذكر من ادركتهم الوفاة في تلك السنة، ومن اقام الموسم. وبعد ان ينتهي من الكلام عن عهد خليفة من الخلفاء يتبع ذلك يذكر من ولوا كل اقليم من اقاليم الدولة علي عهده ثم من تقلد خطة القضاء في الامصار وخاصة في المدينة ومكة والبصرة والكوفة، وقد يورد احيانا من تقلدوه في الشام وبعد ذلك يذكر من تولوا حجابة الخليفة والشرط والكتابة وبيوت المال، والغاتم، والبريد، ثم يورد اسماء الرسل [أي السفراء] وهي معلومات ثمينة قيمة لدراسة تاريخ النظام الاداري والقضائي في تلك الفترة.

ويحتوي الكتاب علي احماءات لاتوجد عن غيره لان منهج خليفة انه بعد الحديث عن كل وقعة هامة مثل : بدر واحد، والحره وغيرها، يورد اسماء من استشهدوا في تلك المواقع.

وقد روي خليفة عن ائمة الرواة الثقات كالوليد بن هشام،
 ويزيد بن زريع والمدايني.

ومن الجدير بالملاحظة ان خليفة قد اهتم اهتماما خاصا
 بالاحداث الخارجية في دولة الاسلام وفي تاريخه نجد تاريخ لوليات
 كثير من ائمة الحديث ورجال الفكر والادارة والحكم.

وبعد خليفة يأتي الطبري [ابو جعفر محمد بن جرير، ولد في
 اواخر سنة ٢٢٤هـ/٨٣٩ م في مدينة امل وهي في بلاد
 طبرستان ومن هنا نسبته الطبري وتوفي في ٢٦ شوال سنة
 ٣١٠ هـ: ١٦ فبراير ٩٢٣م] وللطبري عدد من المؤلفات يهمنها
 منها كتاب "تاريخ الرسل والملوك" او تاريخ الامم والملوك" ولها
 كان الطبري من كبار الفقهاء المشتغلين بالقران والسنة حتي ان
 اشهر مؤلفاته هو "تفسير الطبري" فاننا نلاحظ انه ينهج نهج
 المحدثين في كتابته. للتاريخ فهو يورد الروايات التاريخية مسبقة
 باسنادها الذي يرجع في بعض الاحيان الي شهود عيان هنا الي جانب

انه يعطي للحدث الواحد اكثر من رواية وهو نزيه يظهر بمظهر
المحايد الذي لا يرجع رواية علي غيرها . هذا ولقد سار الطبري
بدوره في تاريخه علي طريقة الحوليات اي السنوات .

وبعد كتاب الطبري نذكر كتاب ابن الاثير المعروف باسم
"الكامل في التاريخ" وابن الاثير متوفي سنة ٦٣٠هـ . يلاحظ ان
ابن الاثير يقلل كتاب الطبري فيلخصه فيما يتعلق بالقرون الثلاثة
الاولي ثم انه يضيف اليه ويكملة حتي سنة ٦٢٨هـ . ورغم انه
يلخص الطبري الا انه يعتبر مرجعا اساسياً حتي بالنسبة للفترة
القديمة من صدر الاسلام وذلك بفضل ما يظهره ابن الاثير من
المقدرة لعي النقد والتمحيص واكمال الموضوعات التي وجدها ناقصة
عند الطبري ولذلك يعتبر كتاب ابن الاثير مهما ليس بالنسبة
للتاريخ الاسلامي العام بل بالنسبة لتاريخ الاقطار الاسلامية المختلفة
سواء كانت في اقصى الشرق او في اقصى الغرب .

بعد ذلك ننتقل الي الكلام عن كتاب "العبروديان المبتدأ
والخبر في اخبار ملوك العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من
لوي السلطان الاكبر " لابن خلدون وابن خلدون ولد في تونس في
سنة ٧٣٢هـ ودرس علي عدد من العلماء التونسيين والمغاربة
وعمل في خدمة ملوك الحفصيين في تونس وكذلك بني عبد الواد

في تلمسان ويني مزين في فاس وبني الاحمر النصريين في غرناطة
ثم رحل الي المشرق ووصل الي الاسكندرية ومنها الي مصر سنة
١٧٨٣/٧٨٤م [في سلطنة الظاهر] وجلس للتدريس في الجامع
الازهر وولي قضاء المالكية بمصر سنة ٧٨٦هـ ثم عزل عن القضاء
وتوجه لقاء فريضة الحج سنة ٧٩٠ هـ وبعد ان قضى فرمة رجع
الي القاهرة وقضى بقيه ايامه عاكفا علي قراءة العلم وتدريسه ومات
في القاهرة في ٢٥ رمضان سنة ١٧/٨٠٨ مارس ١٤٠٦م.

ويعتبر كتاب ابن خلدون من أهم المصادر وذلك لسبين
المعروفين اللذين يختص بهما ابن خلدون واولهما ملكة المؤرخ
العبري الموهوب التي جعلته يفهم التاريخ بمعناه الحقيقي الشامل
الذي يتلخص في ان الحدث التاريخي اكبر من أن يكون حدثا
سياسيا فقط بل هو نتيجة لتفاعل عدد من العوامل السياسية
والجغرافيا والاقتصادية والاجتماعية وكذلك النفسية ايضا وهذا
مادعا ابن خلدون الي الكلام عن كل هذه الفنون في المقدمة حتي
جعل مفهوم التاريخ اشبه مايكون بمفهوم الحضارة اي جعله تاريخا
للأمم والشعوب بدلا من سير الملوك والامراء او طبقات الاعيان
وهذا ماسماه البعض "فلسفة التاريخ" وهو في الحقيقة ليس الا
التاريخ كما ينبغي ان يكون.

كذلك لابن خلدون نظريات في التاريخ من هذه النظريات: نظرية ان الدولة مثل الفرد تمر بعدة مراحل: اولها مرحلة النشأة والطفولة ثم مرحلة الشباب والفتوة والقوة واخيرا تأتي مرحلة الشيخوخة التي يعقبها انهيار الدولة . وهو ينص علي نظرية اخري في قيام الدولة هي نظرية العصبية فهو يرى ان الدولة ترتكز علي عصبية والعصبية عند ابن خلدون هي تلك الروح التي تدفع الجماعة من الأفراد او اعضاء القبيلة نحو الالتفاف حول زعيمهم لاضاع الجماعة او القبائل الأخرى لتكوين الدولة . وتحمل الدولة قوية متماسكة طالما ظلت عصبيتها قوية متماسكة فاذا ماضعت العصبية وانحلت الدولة لكي تقوم عصبية جديدة . بانشاء دولة جديدة . ويظهر نبوغ ابن خلدون في هذه النظريات التي قننها لقيام الدول الي جانب انه نص علي مسألة المنهج التاريخي الذي ينبغي علي النقد فهو يطالب المؤرخ بان يعرض الروايات المختلفة للنقد ويقابل بينها وذلك علي اساس من العقل والمنطق وبناء علي هذا النقد فهو يرجع الرواية الصحيحة علي الرواية الموضوعية ولهذا السبب نجد انه يعطي نماذج لها يمكن ان يلحق بالتاريخ من الوضع والامطناع ويعطي امثلة للروايات الاسطورية التي تحيط بتاريخ بني اسرائيل كما انه يحاول ان ينقش الروايات المختلفة التي نسجت حول الامويين مثل معاوية او عبد الملك بن مروان كذلك الروايات المشبوهة التي نسجت حول هارون الرشيد واخته العباسة .

ونلاحظ ان ابن خلدون لم يستطيع ان يطبق قواعد النقد هذه عندما بدأ يكتب تاريخه فخرج تاريخه اشبه مايكون بالتواريخ التقليدية السابقة، هذا ولو انه أظهر موهبة في النقد وترجيح الروايات في بعض الأحيان.

وبعد ذلك ننتقل الي الكلام عن المسعودي المتوفي سني ٣٤٦هـ في مدينة فسطاط مصر ويعرف كتابه باسم "مروج الذهب ومعادن الجوهر" ويعتبر هذا الكتاب من المصادر الهامة ليس لقدمه فحسب ولكن لاطلاع المسعودي وسعه معلوماته التي اتت الي جانب الدراسة والقراءة لتجوله في مختلف البلدان اذ طوف المسعودي خلال اربعين سنة بفارس والهند والصين وسواحل شرق افريقيا والشام وذلك قبل ان يقدم الي مصر حيث توفي بها . ويفضل اسفاره ودقة ملاحظاته جمع اخباراً عن البلدان والشعوب والمناهب والعادات والتقاليد لانجدها في غيره من كتب المؤرخين . ولقد تنبه المسعودي الي اهمية عامل البيئة في مسيرة الاحداث السياسية وهو لهذا السبب يهتم بالجغرافية الطبيعية والبشرية في مقدمة الكتاب وهو بذلك يعتبر النموذج الذي حذا حذوه ابن خلدون ومع ان المسعودي يتبع في كتابه طريقة العوليات الا انه يمزج بينها وبين الترتيب الموضوعي فهو يفرد بابا لكل دولة ويخصص فصلاً لكل امير او حادثة فلا يفقد الموضوع وحدته . ويهتم بحياة الناس

وخاصة افراد الطبقة العليا في المجتمع: من الخلفاء وكبار رجال الدولة ومشاهير العلماء والشعراء كما لا يهمل القصص الشعبي ولا الروايات الطريفة، وهو لكل ذلك يعطي نوعا من الحياة والطرافة لتاريخه وان كان المسعودي يخرج بمهجه هنا علي اصول البحث وتحري الحقيقة . ولهذا السبب فرغم ما يحتويه الكتاب من معلومات تاريخية قيمة الا انه ينبغي ان تؤخذ هذه المعلومات بشئ من الحذر وان تعرض للقواعد النقد .

ولكثرة المعلومات الجغرافية التي يحويها الكتاب نجد ان بعض الباحثين يضعونه بين كتب المكتبة الجغرافية العربية - هذا لوان للمسعودي كتابا خاصا في الجغرافيا عنوانه كتاب "التنبية والاشراف" هذا كما يمكن الاشارة الي انه بسبب كثرة المعلومات الادبية واهتمام المسعودي بالشعر يمكن ان يوضع الكتاب بين المؤلفات الادبية والحقيقية ان الكتاب يعتبر موسوعة كبرى تعالج الكثير من العلوم والفنون الي جانب التاريخ والجغرافيا .

هذا ويمكن ان نضيف الي قائمة كتب التاريخ العام هذه مؤلفات المؤرخين المصريين من امثال المقرئزي المتولي في سنة ٨٤٥هـ والذي كان تلميذا لابن خلدون . وابن تغري بردي صاحب النجوم الزاهري المتولي ٨٧٣هـ والسيوطي المتولي في اوائل القرن

العاشر الهجري صاحب كتاب [تاريخ الخلفاء] هذا الي جانب اصحاب الموسوعات التاريخية والجغرافية والأدبية مثل القلقشندي صاحب كتاب صبح الأعشي في صناعة الإنشاء " والتوير صاحب كتاب " نهاية الأرب في فنون الأدب" وكذلك كتاب العمري المعروف باسم مسالك الأبصار في ممالك الأمصار " .

كتب الجغرافيا العربية

وبعد هذا ننتقل الي لون جديد من الكتب هو مجموعة كتب الجغرافيا العربية وكتب الجغرافية مهمة بالنسبة لدراسة الموضوع وذلك للصلة الوثيقة بين التاريخ والجغرافية فالجغرافية العربية كانت وثيقة الصلة بالتاريخ وبمرور الوقت انفصلت عنه انفصالا غير تام علي كل حال فاحتفظت كتب الجغرافية بالكثير من المعلومات التاريخية كما ظل الجغرافيون العرب يكتبون في التاريخ والجغرافية جميعا والمثل لذلك اليعقوبي وابو الفدا .

والجغرافية العربية تنقسم الي نوعين . اولهما الجغرافيا الرياضية وتضم فرعين هما علم الأطوال والعروض، وعلم تقويم البلدان .

وثانيهما الجغرافية الادبية، او الوصفية وتشتمل علي فرعين
هما: علم المسالك والممالك وعلم عجائب البلدان.

واهمية كتب الجغرافية في أنها تكمل كتب التاريخ التي
اهتمت بالأحداث السياسية بشكل خاص - من حيث اهتمامها الي
جانب وصف الأحوال الطبيعية والبيئية بامدادنا بمعلومات ذات
طبيعة متنوعة منها الاقتصادية والاجتماعية وما يختص بعادات
الشعوب وتقاليدها مما لا يستغني عنه المؤرخ المحدث ولقد عرف
الأوربيون ما للمكتبة الجغرافية من اهمية فاعتنوا بنشرها في
اوروبا منذ اكثر من مائة عام تحت اسم "المكتبة الجغرافية
العبية" وقد كان لمستشرق الهولندي دجويه مجهوده الذي لا يغفل
في نشر هذه المجموعة وتحتوي هذه المكتبة علي كتب ابن
خردادية واليعقوبي وابن القتيبة والاصطخري والمسعودي والمقدسي.

ثم يأتي بعد ذلك كتب الطبقات وهي نوعين كتب طبقات عامة
مثل كتاب ابن خلكان المتولي في سنة ٦٨١ هـ المعروف باسم
وفيات الاعيان وابناء ابناء الزمان وهو من كتب الطبقات العامة
وهناك ايضا كتاب فوات الوفيات لابن شاکر الكتبي وغيرها وكتب
طبقات عامة اقليميا خاصة موضوعيا مثل : طبقات المالكية
والشاعية وطبقات الصوفية وطبقات المحدثين وطبقات الاطباء

والحناء واللغويين والنحويين والقضاء والنهاة وكتب خاصة
اقليميا .

وميزة هذه الكتب تتلخص في انها تهتم بالتاريخ الاجتماعي
والحضاري اكبر من اهتمامها بالتاريخ السياسي .

ثم يأتي بعد ذلك مجموعة الكتب التي تعالج تاريخ الأديان .
وهذا اللون من الكتب تتناول بصفة خاصة المذاهب الإسلامية .
وفي مقدمة هذه الكتب كتاب ابن حزم الأندلسي القرطبي [بابو
محمد علي ابن حزم المتوفي سنة ٤٥٦هـ] المعروف بكتاب "الفصل
في الملل والأهواء والنحل" وكتاب "الملل والنحل" للشهرستاني
[ابو الفتح عبد الكريم الشهرستاني المتوفي سنة ٤٥٨ هـ]
وكتاب الفرق بين الفرق "للبيهقي" .

هذه الكتب تتكلم عن الإسلام وعن فرقة المختلفة من: الشيعة
والخوارج والمرجلة والقدرية والمعتزلة والسنة وطوائف كل فرقة
منها . ولما كانت دولة الإسلام تحتوي علي جماعات غير إسلامية
تعيش داخل الدولة مثل اليهود والنصارى والمجوس والصائبة
وغيرهم وجبت معرفة أصول دينهم لتحديد الدولة موقفها منهم
ولهذا، تكلم هؤلاء الكتاب عن نحلهم ومذاهبهم .

ننتقل بعد ذلك الي الكلام عن مجموعة الكتب التي تتناول تاريخ النظم والادارة، واصول الحكم. وأشهرها كتاب "الاحكام السلطانية والولايات الدينية" للماوردي [توفي ببغداد في سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م. ولقد كتب الماوردي في تفسير القرآن والفقه والنحو الي جانب ماكتبه في اصول الحكم وكان من المجتهدين.

فمن بين ابواب الكتاب العشرين في: الامامة والوزارة والقضاء والجهاد وتنظيم الاموال وولاية الاقاليم الخ،، يعتبر الباب الخاص في عقد الامامة [او الخلافة] وهو اولها اهم الموضوعات التي عالجه الماوردي وهو يستند في معالجته للتقنين للخلافة [التي يراها عقد مراضاه واختيار] الي القرآن والسنة والاجماع الي جانب السوابق التاريخية المعتبرة.

الفصل الثانى

عظمة الدولة الاموية وبداية الافوال

عظمة الدولة الأموية وبداية الأئول

بلغت الدولة الأموية ذروة مجدها وعظمتها في نهاية القرن الأول وبداية القرن الثاني للهجرة - وهو القرن الثامن الميلادي - ففي هذا القرن وضعت جميع النظم الاسلامية وبدأت كافة الاتجاهات الفكرية، حينما اخلت الافكار تتجاوز حدودها الاقليمية الي افاق أوسع. وهو عصر تفتح الروح الاسلامية وسط ثراء مادي غزير، وهي كذلك الفترة التي مهدت بعد سنة ١٣٢هـ / ٧٥٠م للدول العباسية أن تكون مركزا مهما للحياة [١].

وهناك خلفاء عظام مثل: الوليد وسليمان بن عبد الملك وعمر بن عبدالعزيز تسيدوا أكبر دولة اسلامية. وفي الحقيقة أن الفصل في اتساع الدولة انما يرجع الي كبار العمال من رجال الحرب والادارة الذين خدموا هؤلاء الخلفاء. وأغلب الظن أن السبب في عدم معرفتنا باعمال خلفاء الامويين الشخصية انما يرجع الي أن ماكتب عنهم انما كتب في العصر العباسي. ولما كان العباسيون يكونون للامويين حقنا كبيرا كان من الطبيعي ان يصور الكتاب خلفاء الامويين تصويرا قاتما فهم يصفون الخليفة الوليد بأنه مستبد ظالم، وسليمان شره أكل [٢]. ولم يسلم من النقد من الخلفاء الامويين

(١) نفس المرجع السابق، ص ٢٦.

(٢) انظر، السعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تنقيح وتصحيح شارل بلا (من طبعة بريبة دي مينار وبافية ذي هرتاي)، منشورات الجامعة اللبنانية قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣، ج٤، ص ١٣٠.

سوي الخيفة الورع التقى عمر بن عبد العزيز الذي يعتبره الكتاب خامس الخلفاء الراشدين . ورغم الاعتراف بمكانة عمر بن عبد العزيز الذي يرجع اليه الفضل في منع سب الامام علي رضي الله عنه من علي المنابر كما أنه أعترف له بفضلته عندما نظر الي الاسلام نظرة تختلف عن نظرة سابتية فهو يري أن الدولة عندما اتسعت كانت تهدف الي نشر الاسلام قبل الحصول علي المكاسب المادية وأعلن رأيه هذا عندما تضاربت السياسة الدينية مع السياسة الادارية وطولب الداخلون الجدد في الاسلام بدفع الجزية مثلهم في ذلك مثل أهل اللمة [غير المسلمين من أهل الكتاب] فأمر عمر برفع الجزية عن أسلم ولهذا يعتبر عمر نموذجا للورع والعدل والحكمة . ورغم ذلك نجد أن بعض كتاب العباسيين ينالون منه كما نالوا من أقاربه . وينسب الي المنصور العباسي انه قال عندما ذكر في مجلسه "انه أعور وسط عميان" [١] .

وبناء علي ذلك نلاحظ أن الفضل في الأعمال السياسية والعسكرية التي حققتها الاسلام علي عهد الدولة الاموية انما يرجع الي كبار رجال الدولة مثل الحجاج بن يوسف الثقفي الذي اشتهر بعنفه وشدته وبطشه حتي أنه غرس كراهية أهل الشام في قلوب أهل العراق ولكن يرجع الفضل الي فسوته في الحفاظ علي وحدة الدولة .

ونذكر أيضا من الرجال العظام قتيبة بن مسلم فاتح بلاد ماوراء

(١) نفس المصدر والصفحة .

النهر والذي وسع حدود الاسلام حتي مغارب السند، ثم موسي بن نصير فاتح الاندلس.

امتد سلطان الدولة في المشرق والمغرب ولكنها لم تستطع أن تفتح القسطنطينية ففشلت المحاولات التي بذلتها معاوية بن ابي سفيان وخلفائه مثل الوليد وسليمان.

أما فيما يتعلق بالسياسة الداخلية فانه في هذه الفترة التي شهدت فيها الدولة اقصى اتساعها حدثت تغييرات مهمة في نظمها الداخلية وكذلك بدأ ظهور العمارات الاسلامية الفخمة التي نفخر ونعتز بها.

كذلك ينبغي الإشارة إلى المجهودات العظيمة التي قام بها الخليفة عبد الملك بن مروان من أجل تعريب الدواوين أي تعريب الإدارة وعمل علي تغفل هذا التعريب بين أهل الأمصار، وعمل التعريب وانتشار الاسلام علي تكسير الحواجز التي كانت موجودة بين العرب وبين أهل البلاد وكان ذلك تمهيدا لقيام المجتمع العربي الاسلامي الموحد. واستمر في هذه السياسة التي بناها عبد الملك ابنة الوليد وكذلك عمر بن عبد العزيز ويرجع الفضل في انشاء المسجد الجامع في دمشق الي الوليد ابن عبد الملك الذي استجلب ل بناء هذا الجامع الفنانين من بلاد الروم وكذلك من مصر وانفق عليه

بسخاء حتي اصبحت مملكة من مفاخر الاسلام ونموذجاً من نماذج الفن الاسلامي.

وبعد أن بلغت الدولة من الناحية العسكرية اقصى اتساعها بدأ عصر التوقف العسكري والاقليمي وكان هذا يعني بداية عصر الافول والاضمحلال.

أما في الشرق فتحركت المسيحية ايضاً فانتهى حصار القسطنطينية الاخير بالفشل. ثم ان الامبراطورية البيزنطية خرجت من فترة الضعف التي كانت تمر بها واعتلى عرشها امبراطور قوي هوليوي الثالث الايسوري الذي قام بحملات عسكرية في آسيا الصغرى وكذلك في مناطق القوقاز. وفي سنة ١٢٢هـ تذكر الحوليات ان ابن الخليفة هشام بن عبد الملك الذي كان قد توغل في الأراضي البيزنطية لقي هزيمة مروعة إذ تشتت مقدمة جيشه وقضت هذه الكارثة علي حلم الامويين، في القضاء علي بيزنطة. هذا فيما يتعلق بتوقف الفتح العسكري.

أما فيما يتعلق بالأحوال الداخلية في الدولة فأنها لم تكن بأحسن حالاً من التوسع العسكري. ففي كثير من الاقاليم ظهرت ميول واتجاهات انفصالية. أما في داخل الدولة فكان من أهم القلاقل التي اصابت الدولة ظهور الخصومات والنزاعات الدينية. فبعد البداية

ظهرت الحركة الخارجية في مركز الدولة ولكن بفضل جهود الحجاج بن يوسف الثقفي استطاعت الدولة القضاء علي العوارج ولكن هذا لم يكن يعني القضاء التام علي الحركة اذ انها ظهرت ونجحت في المشرق ولي المغرب.

وعلي اواخر أيام الامويين بدأ العوارج يثيرون الاضطراب من جديد في مركز الدولة ملتهمين ضعف الحكومة . ففي سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م، حشد العوارج قواهم في منطقة الكوفة برئاسة ضحاك بن قيس الشيباني وكذلك فعل العوارج الاباضية في جزيرة العرب فجمعوا قواهم برئاسة ابو حمزة الخارجي (١).

الي جانب المذهب الخارجي كان الشيعة مصدر قلق ايضا للدولة خاصة في العراق فقد استدعوا احد احفاد علي بن ابي طالب رضي الله عنه وهو زيد بن علي زين العابدين وذلك علي أيام خلافة هشام بن عبد الملك واعلنوا امامته . وباءت جهود الخلافة في دمشق بالفشل حوالي العام في القضاء علي ثورة العراق . ولكن أنتهي الامر بالقضاء علي بعض المتأمرين، وعرف مكان زيد وتبعته قوات الخلافة وتمكنوا من رمية بسهم فأصاب جانب جبهته اليسري فثبت في دماغه

(١) انظر ابن الاثير، الكامل في التاريخ، تحقيق مبد الوهاب النجار، طبعة مصر، سنة ١٣٥٧هـ، ج ٤، أحداث سنة ١٢٧هـ، ص ٢٨٩.
 ذكر خروج الضحاك معها أحداث سنة ١٢٨هـ ص ٢٩٥ - ٢٩٦. ذكر قتل الضحاك الخارجي ص ٢٩٧ ذكر خبر أبي حمزة الخارجي مع طالب الحق.

ومات زيد في صفر من سنة ١٢٢ هـ / يناير ٧٤٠ م.

وبذلك خضبت يدي بني امية من جديد بدم حفدة الرسول صلي الله عليه وسلم. بل ولم يحترموا جثمان زيد وكان اتباعه قد دفنوه في ساقية وأجروا عليه الماء خوفا من التمثيل به، ولكن القبر نبش واستخرج منه وقطع رأسه وملب ثم امر به فحرق بالنار [١].

والي جانب النزاعات الدينية هذه كانت العصومات والنزاعات بين القبائل العربية نقطة من نقاط الضعف التي أدت الي انهيار الدولة دولة الامويين ومن النزاعات بين هذه القبائل العربية ذلك النزاع الذي حدث في سنة ٦٥ هـ / ٦٨٤ م بين اليمنية والقيسية "المضرية" والذي انتهى بانتصار اليمنية في وقعة "مرج راهط". وعمل هذا النصر علي زيادة اشتعال نار الفرقة بين العصبيتين المتناهضتين، ولكن علي الخليفة الأموي أن يسوس كل من الفريقين أو أن يلق الي جانب احدهما حسب الحال.

وكان أعظم عمال الوليد بن عبد الملك هم: الحجاج بن يوسف الثقفي، وقتيبة بن مسلم الباهلي، فاتح ماوراء النهر وهما من العصبية القيسية. وكان هذا يعني ان الخليفة الوليد بن عبد الملك

(١) ابن الأثير ج ٤، ص ٢٤٠-٢٤٣، أحداث سنة ١٢١ هـ (نظر ظهور زين بن علي بن الحسين أحداث سنة ٢٢ هـ، ص ٢٤٥-٢٤٨ (نظر مقتل زيد بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب).

كان يتبع سياسة موالاه القيسية، وعندما خلفه سليمان نهج سياسة مضادة لهذه السياسة فحابي اليمنية وعلي رأسهم يزيد بن المهلب بن ابي صفرة وعصبية.

وعندما ولي الخلافة عمر بن عبد العزيز حاول أن يقوم الموقف وان يتبع سياسة محايدة تهدف الي التوفيق بين العصبين ولكن سياسته هذه لم تطل لأمد طويل إذ أنه سرعان ما اعتمد يزيد بن عبد الملك اعتمادا كلياً علي القيسية ثم ان هشام بن عبد الملك ذهب الي عكس هذه السياسة ثم عاد اليها ونتج عن ذلك ان اليمنية ثاروا لأنفسهم من الخليفة الوليد الثاني فتأمروا علي خلعه وكانت هذه الثورة سببا في عزله بلاد الشام جميعا.

والي جانب العصبية القبلية نذكر حدثا له مفزاة وهنا الحدث يتمثل في هجرة خلفاء الأمويين بعيدا عن دمشق وسكنهم الصحراء ويشبه بعض الكتاب هذا الحدث بالانفصال الروحي بين الأمويين وبين عصبيتهم من أهل الشام. فقد شعر آخر خلفاء الأمويين بعدم اطمئنانهم في بلاد الشام ولي حاضرتهم دمشق فخرجوا الي البادية وكان أول من فعل ذلك هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك الذي كان يقيم في بادية الأردن.

ومن أهم القصور الصحراوية التي بناها الأمويين قصر "الرمالة" في بادية الشام.

وقد استمر الأمويون في سكني الصحراء . ويعدد الآثريون بقايا خمسة وثلاثين قصرا من هذه القصور . وكان الخليفة يتمتع في قصوره الصحراوية هذه برياسة الصيد . كما يعتبر العصر الأموي عصر نهضة بالنسبة للشعر العربي، واشتهر كثير من أمراء الأمويين بقول الشعر كما أنهم احاطوا أنفسهم بالشعراء . وشاعر الأمويين كما نعرف هو الشاعر النصراني الأخطل والي جانب ازدهار الأدب والشعر لم تحظ العلوم والفلسفة إلا بحظ ضئيل من عناية أمراء الأمويين . ولكن ينبغي الإشارة الي أن بداية الجدل في الفلسفة الإسلامية ظهر في هذه الفترة وبدأ الكلام في مسألة القضاء والقدر وظهور الفرقة التي عرفت باسم القدرية والتي ستكون نواة للفرقة المتكلمين المعروفة باسم المعتزلة .

وحاول هشام بن عبد الملك أن يوقف تضخم هذه الفرقة، وسار علي نفس السياسة الوليد الثاني الذي راح ضحية معارضة القدرية الذين ناصروا أعداءه من اليمنية واقاموا الخليفة يزيد الثالث . ولكن هذا الاختيار لم يرض جميع الناس لسرت الاضطرابات في كل أرجاء الشام، كما ظهر للخليفة الجديد منافسون في العراق وتحولت يزيد بعد فترة قصيرة لم تزدد علي خمسة أشهر، وعجز اخوه ابراهيم عن تقويم الموقف، وتمكن منافس الخليفة في العراق، مروان بن محمد، من التقدم نحو الشام واستطاع أن يكسب القيسية إلي حاسه، وفي صفر عام ١٢٧هـ / ٧٤٥م استطاع أن يستولي علي دمشق .

مروان بن محمد آخر خلفاء الأمويين

وهكذا تمكن مروان بن محمد بن مروان بن الحكم بن ابي العاص بن أمية القرشي الأموي من انتزاع الخلافة من ابناء عمومته . وكان يلقب الحمار لصبره في الحروب .

والظاهر ان مروان كان يحن الي العراق وعلي ذلك فهو ينقل مقر الحكم الي حران [١] في أرض الجزيرة - وكان هنا يعني الانفصال النهائي بين الأمويين وبين أهل الشام .

ونشبت الثورات في كل مكان واضطر مروان أن يهدم تحصينات بعض المدن الكبرى في بلاد الشام وذلك لكي يخضعها ، وسرت الثورات وليس في الشام فقط بل في العراق والحجاز ايضا .

واستطاع مروان أن يقضي علي الثورة التي قام بها سليمان بن هشام بن عبد الملك الذي فر الي حمص ثم الي الكوفة ، واضطر مروان الي هدم أسوار حمص [٢] واتبع ذلك بالقضاء علي تحصينات دمشق وبيت المقدس وغيرها من مدن الشام .

(١) من انتقال مروان إلي حران انظر ابن الاثير الكامل ج٤ ص ٢٨٦ .
 (٢) انظر ابن الاثير ج٤ ص ٢٨٦ (نظر انتقام أهل حمص) ذكر خلاف أهل الغوطة ص ٢٨١ (نظر خلاف أهل فلسطين) ص ٢٨٧ وما بعدها (نظر خلع سليمان بن هشام بن عبد الملك مروان بن محمد) .

كان مروان بعد ذلك أن يقضي علي القلاقل والاضطرابات
التي اثارها الخوارج في العراق وفي بلاد العرب. إذ ينهم من
الروايات ان الضحاك ابن قيس الشيباني الخارجي اغتتم فرسة انقسام
الشيعة بعد مقتل الوليد بين يزيد، ثم بعد أن عزل مروان عبد
الله بن عمر عبد العزيز عامل العراق وولي مكانه البضر بن سعيد
الهمداني فلم يسلم ابن عماليه العمل واعتمى بالحيرة، عندئذ انتهز
الفرصة ذلك واقبل الي الكوفة في سنة ١٢٧هـ / ٧٤٥م. وزادت
يسوعه الحقا الهزيمة بالامويين ثم تقدم الضحاك بعد ذلك الي
الهمدول واستولي عليها وكورها ومنها اتجه الي نصيبين وكان معه
"مايزيد علي مائة الف" وهزم جيشا امويا بقيادة عبدالله بن مروان
بن محمد. ثم أن مروان سار اليه وتمكن من الحاق الهزيمة به
والقضاء عليه عند ماردين وذلك في سنة ١٢٨هـ [١].

وقام أبو حمزة الخارجي [المختار بن عوف الازدي السلمي
البصري] في جزيرة العرب. وكان كما تقول الرواية من الخوارج
الاباضية، وكان يفد في كل سنة الي مكة يدعو الناس الي خلاف
مروان بن محمد. ثم تحالف مع عبد الله بن يحيى المعروف بطالب
الحق في أواخر سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥م وخرج معه الي حضرموت حيث
بايعه علي العلالة. وفي السنة التالية ١٢٩هـ / ٧٤٦م خرج أبو
حمزة الي مكة والمدينة وتمكن من الحاق الهزيمة بالحامية الأموية،
ودخل المدينة وأقام بها ثلاثة اشهر ثم سار نحو الشام. ولكن
مروان انتخب من عسكره جماعة جدوا المسير اليه وتمكنوا من الحاق

(١) انظر ابن الاثير، الكامل ج ٤، أحداث سنة ١٢٨هـ، ص ٢٩٥-٢٩٦ (ذكر
قتل الضحاك الخارجي).

الهزيمة والقضاء عليه في وادي القري. ثم سار عبد الملك بن محمد بن عطية السعدي، وقائد مروان، الي المدينة ومنها الي اليمن حيث قاتل عبد الله بن يحيى طالب الحق وقتله وحمل رأسه الي مروان بالشام [١].

وقبل هذا الوقت ثار الشيعة في الكوفة في سنة ١٢٧هـ وأقاموا عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر أماما لهم. ولكن والي العراق الأموي عبد الله بن عمر بن عبد العزيز تمكن من هزيمتهم. وسار المطالب بالخلافة الي فارس وتغلب عليها في سنة ١٢٩هـ/٧٤٦م، وكثرت جموعه، وأقام باصفهان ثم اصطخر، ومد نفوذه علي ولايات خورستان وفارس وكرمان وهاجم والي العراق عبد الله بن معاوية لايوانه الخوارج الذين هزمهم مما اضطر ابن معاوية الي الهرب الي خراسان حيث قتله ابي مسلم لانه كان يشكل خطراً عليه [٢].

وهكذا ظهر مروان بن محمد بمظهر الرجل النشيط الكفيل الجدير القادر علي تقويم الموقف وقرار الأمور وتهديتها في الدولة. ولكن العطر علي الدولة كان يكمن في الشرق في بلاد خراسان.

(١) ٦ شفر ابن الاثير، الكامل ج ٤، ص ٢٩٧، ٣٠٧، ٣٠٨، ص ٣١٤-٣١٦.

(٢) ابن الاثير، الكامل ج ٤، ص ٢٨٤-٢٨٥، ص ٣٠٦-٣٠٧.

الفصل الثالث

الدعوة الشيعية العباسية

الدعوة الشيعية العباسية

أحوال خراسان في أواخر العصر الأموي:

بدأت الولايات الايرانية، في الخروج علي سلطان الخلافة، في بلاد الشام منذ عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز، وذلك عندما ظهرت مشكلة الدخول في الاسلام ودفع الجزية . فكما يفهم من الروايات كان من سياسة عمر بن عبد العزيز رفع الجزية عن أسلم، ونجح عماله في نشر الاسلام . ولكن نقص الموارد المالية دفع الدولة الي اتخاذ اجراءات شديدة كانت ترمي الي اثبات الدخول في الاسلام ثبوتاً قاطعاً، كما أنها لم تعف الكثيرين من الداخلين في الاسلام من دفع الجزية وبصفة خاصة علي عهد والي خراسان هشام بن عبد الملك اشرس بن عبد الله السلمي [١٠٩-١١١هـ / ٧٢٧-٧٢٨م] [١].

(١) انظر عن ولاية اشرس، ابن الاشيرة الكامل، ج ٤، ص ٤٠٠، ص ٤٠٣-٤٠٦، ص ٤٠٦-٤١٨، ص ٤١٩، حيث يقول النص (احداث سنة ١١٠هـ): في هذه السنة ارسل اشرس الي اهل سمرقند وماوراء النهر يدعوهم الي الاسلام علي ان توضع عنهم الجزية وارسل الي ذلك ابا الصياد صالح بن طريف مولي بني ضبة والربيع بن عمران التميمي فقال ابو الصياد: انها اخرج شريطة ان من اسلم لاحق دخلته الجزية وانما خراج خراسان علي رؤوس الرجال.

في ظل هذه الظروف كانت الفرصة مواتية للقيام بحركة مناهضة
للأمويين رغم ان رواية الطبري تذكر ان الدعوة الشيعية العباسية
بدأت في خراسان منذ ايام خلافة عمر بن عبد العزيز في سنة مائة
الهجرة [١] .

= فقال اشرس : نعم .. فنشخص الي سمرقند وعليها الحسن بن
العمر طه الهندي علي حربها واخراجها فعدا ابو الصيذاء اهل سمرقند
ومن حولها الي الاسلام علي ان توضع منهم الجزية لمسارع الناس
فكتب الي اشرس ان الخراج قد انكسر فكتب اشرس الي ابن العمر
طه ان في الخراج قوة للمسلمين وقد بلغني ان اهل الصغد واشباههم
لم يسلموا رغبة انما اسلموا توعوذا من الجزية فانظر من الخسعين واقام
الفرائض وحسن السلامة وقرا سورة من القرآن فارفع خراجهم علم منزل
اشرس ابن العمر طه عن الخراج وصيره الي هاشي بن هاشي لممنعهم ابو
الصيذاء من اخذ الجزية ممن اسلم فكتب هاشي الي اشرس : ان الناس
قد اسلموا وبنوا المساجد فكتب اشرس اليه والي العمال خذوا الخراج
ممن كنتم تخذونه منه فاعادوا الجزية علي من اسلم .

(١) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، طبعة دار المعارف
مصر (مجموعة ذخائر العرب) ج ٧ أحداث سنة ١٠٠ هـ ، ابن الاثير
الكامل ج ٤ ص ١٥٩ (ذكر ابتداء الدعوة العباسية) .

ولكن هناك رواية اخري للطبري نعرف منها أن أول من لبس السواد في خراسان - ودعا الي كتاب الله وسنه نبيه والبيعة للرضا" في سنة ١١٦هـ/ ٧٣٤ هو الحارث بن سريح . وقبل الحارث عرض والي خراسان عاصم بن عبدالله بن يزيد الهلالي أن يكتب الي هشام يسألانه العمل بكتاب الله وسنه نبيه صلي الله عليه وسلم " فان ابي اجتمعا عليه " وكان رد الخليفة هو خلع عاصم الهلالي وتقليد ولاية خراسان الي اسد بن عبد الله القسري وضما الي العراق ل" تكون موادها ومعونتها من قريب لتباعد امير المؤمنين وتباطئ غيائه " .

وظل اسد في الولاية من سنة ١١٧هـ حتي سنة ١٢١هـ [٧٣٥-٧٣٨م] (١) ويعودة اسد من جديد عادت سياسة الشدة والقمع فقبض اسد علي جماعة من دعاة بني العباس فقتل بعضهم، ومثل ببعضهم وحبس بعضهم، وواصل القتال ضد الحارث بن سريح . وبعد موت اسد ولي خراسان نصر بن سيار الكناني الذي كان يعرف " بشيخ مضر في خراسان " و" علي ايامه عصرت خراسان عمارة لم تعمر قبلها واحسن الولاية والحباية " (٢) فقد عمل نصر علي رفع الحزبية التي كان يشهدها المسلمون الي غير المسلمين (٣) .

ولكن نصر لم ينجح في ازالة العداء التقليدي بين النصبية

(١) ابن الاثير ج ١ ص ٣٨٨ .

(٢) ابن الاثير ج ١ ص ٣٩٩ .

(٣) ابن الاثير ج ١ ص ٤٤٣ .

المضرية والعصبية اليمينية . ولما كان نصر من العصبية المضرية علي
عكس اسد الوالي السابق - فانه حايي المصرية في بداية امرته
وقلدهم الأعمال فالنص يقول:

" فلم يستعمل أربع سنين الا مضريا" [١]

ولكنه عاد وحاول نهج سياسة متزنة حتي يتالف اليمينية . ولكن
اليمانية ثاروا بزعامة الكرمانى [جديع بن علي الازدي]" الذي اظهر
الخلاص لنصر بن سيار" في سنة [٢٦١هـ / ٨٧٤م] . وكان الكرمانى
كما تقول الرواية قد احسن الي نصر في ولاية اسد بن عبد الله
ولكن بعد ان تقلد نصر امرة خراسان " عزل الكرمانى عن الرياسة
وولاهها وغيره" [٢] . ولذلك فقد حدثت جفوة بينهما . وقد اغتتم
الكرمانى الموقف الذي حدث بين نصر ابن سيار وبين خلافة دمشق
بعد قتل الوليد الثانى ونستشف من الرواية ان الكرمانى كان لايتورع
عن سلوك اى السبل من اجل تحقيق اطماعه فالنص يقول: " لو لم
يقدر علي السلطان والملك الا بالصرانية واليهودية لتنصر
تهود" [٣] وقد قام نصر باعتقال الكرمانى وحبسه ولكن الكرمانى
تمكن من الهرب من الحبس بمساعدة انصاره والتفت حوله الازد .

اما عن العراق فقد عزل الخليفة يزيد بن الوليد بن عبد الملك

(١) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٣٩ .

(٢) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٧٥ .

(٣) ابن الاثير ج ٤٤ ص ٦٧٥ .

واليها منصور بن جمهور . وكان نصر بن سيار قد امتنع من تسليم عمله اليه من قبل واستعمل عليهم عبد الله بن عمر بن عبد العزيز . وقد أقر ابن عمر نصرا علي خراسان . فغضب الكراماني لابن جمهور . وكان نصر قد عرض به في خطبته وأعلن خلافه لنصر [١] .

وفي حاضره الخلافة مات يزيد بن الوليد بن عبد الملك [يزيد الثالث] وحدث فتن وقلل في البلاد الي ان خلاص الامر لمروان بن محمد [سنة ١٢٧هـ / ٧٤٤م] [٢] . فآقر نصر بن سيار علي خراسان وبذلك اضفي عليه صفة الشرعية وأعلن نصر بيعته للخليفة مروان [٣] . ولكن الحارث بن سريج الذي كان قد سبق ان حصل له نصر علي الامان من الخليفة يزيد بن الوليد، وعاد من بلاد ماوراء النهر . وكان متحالفا مع الترك الي خراسان حيث استقر من اتباعه في منطقته مرو . رفض مبايعة مروان وخرج علي نصر الذي ارسل اليه " يدعو الي الجماعة ويدها عن الفرقة واطماع العدو " [٤] . وطلب الحارث من نصر ان يعمل بكتاب الله وسنة نبيه وان يعزل عماله ويقلد عمالا نزهاء [٥] وتمكن داعيته جهم بن صفوان [رأس الجهمية] من لم الجموع حوله .

(١) ابن الاثير، ج٤، ص٢٧٦ .

(٢) انظر خليفة بن خياط تاريخ خليفة بن خياط، تحقيق سهيل زكار منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق ١٩٦٨، ج٢ : ص٥٧٨ .

(٣) انظر : تاريخ خليفة بن خياط، ج٤، ص١١٧ . ابن الاثير، ج٤، ص٢٩٢ .

(٤) انظر : تاريخ خليفة بن خياط، ج٤، ص١١٧ .

(٥) انظر : تاريخ خليفة بن خياط، ج٤، ص١١٧ .

وفي نفس الوقت كان الكرمانى يدعو الى عزل نصر وتعيين والى
اخر عوفى، فالتقت ممالحهما واتفقا اى الحارث والكرمانى- علي حرب
نصر وقد حاقت الهزيمة بالحارث الا ان نصرا اضطر بعد تقدم انصار
الكرمانى الى الانسحاب الى نيسابور، ودخل الكرمانى والحارث مدينة
مرو. ولكن وقع الخلاف بينهما وقتل الكرمانى الحارث في سنة
١٨٠ هـ / ٧٤٦ م وصفت مرو لليمن [١] . الا أن الكرمانى لم يهنا
طويلا بانتصاره، فقد بدأ نصر يجمع قواته لاعادة استخلاص مرو من
منافسة الكرمانى والقضاء عليه.

ولقد كانت كل هذه الظروف في صالح الدعوة الشيعية
العباسية .

الدعوة العباسية:

المعروف ان الدعوة العباسية شيعية الاصل، وأن الدعوة
الشيعية التي قامت باسم ال البيت والتي نادى بأن العلويين هم
"الورثة الطيبين" لعائلة النبي وجدت في خراسان أرضا سالحة لبلد
بمرو [٢] .

والحقيقة ان عرب الفتوح الاولى الذين توغلوا في خراسان التي

(١) ابن الاثير، ج ١٤، ص ٢٧٦-٢٩٤ .

(٢) د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧ ص ١٦٠ .

تمثل كل الهضبة الإيرانية حتي بلاد ماوراء النهر، كانوا منعزلين في هذا المشرق البعيد، مما جعلهم يتميزون عن عرب الأمصار الأخرى بصفات خاصة . ولم يكن المتزوجين منهم قد عبروا الجبال التي تحد إيران بل كان غير المتزوجين منهم، هم اللذين وصلوا الي هناك في جماعات وتزوجوا من نساء أهل البلاد . ويقدر فلهولن ان الحد الأقصى لعدد هؤلاء كان لايتجاوز المائتي ألف رجل أبان الثورة العباسية .

وكان الاندماج تاما بين سكان خراسان حتي يصعب التمييز في كتب التاريخ الا بصعوبة بين العرب الذين انصبغوا بالصبغة الإيرانية وبين أهل البلاد الذين دخلوا في الاسلام والذين عرفوا بالموالي وكانوا يحتفظون بذكرات حضارتهم القديمة، وراث الأسرة السابقة . وكا هؤلاء الموالي يشعرون بالمساواة مع العرب بسنري انهم عملوا في القرن التالي علي أيام العباسيين علي اثبات تفوقهم الفكري في كل العلوم التي عرفها العرب .

وكان الخراسانية، منذ العصر الأموي، يحاربون في صفوف الجيش الاسلامي للدفاع عن البلاد ضد الترك، وكان جميع أهل الاقليم يعيشون في وئام: من العرب الفاتحين الي الموالي الذين دخلوا في الاسلام بل وأهل البلاد الذين بقوا علي ذياتهم المزدكية . وعلي أيام زياد بن ابية بدأ تهجير اعداد كبيرة من شيعة العلويين من مدينتي

العراق الكبيرتين: الكوفة والبصرة، الي منطقة بلخ في اقصى خراسان، علي حدود ما وراء النهر. واستمرت سياسة نفي العناصر العلوية الي الشرق علي ايام الحاج بن يوسف. وفي نفس الوقت اوقفت هجرة أهل الشام الي المشرق حيث لم يكونوا يشعرون بالا من هناك. ولاشك أن العلويين وشيعتهم وجدوا في الاقاليم الايرانية ارضا مواتية لنشر افكارهم عن الامام المنتظر، وهو المهدي وذلك ان الموالي من الفرس كانوا لا يزالون يشعرون بالحاجة الي حاكم مطلق يمتلك من الصفات ما هو فوق مستوى البشر بحيث يكون له التحكم في توزيع الارزاق فهو الذي ينشر السعادة بين الناس أو التعتاة، وعن طريقه يكون انتشار العصب في الأرض أو القحط.

وكانت العلاقات الوثيقة بين خراسان من جهة وبين البصرة والكوفة وهذا مركز الاضطراب العلوي من جهة أخرى سببا في أن اعتنق كل أهل ايران الآراء المعادلة للدولة العربية التي كان الامويون يحاولون تنظيمها واقرار تراتيبها، والتي رغم تحولها الي ملكية وراثية فانها ظلت محافظة علي طابعها العربي او البدوي. وهكذا شعر أهل ايران بأنهم أكثر تعلقا بالمذهب العلوي الذي يطالب بأن يكون الأمر في الدولة الاسلامية لال البيت من العلويين والذي خلج علي افراد الأسرة العلوية، شيئا شينا صفات فوق مستوى البشر.

كل هذا يفسر النجاح الذي مآذفته الدعاية العلوية منذ بدء

- ٦١ -

تنظيمها في العراق، وارسال دعائها الي خراسان. ومنذ مطلع القرن
الثاني الهجري كان دعاة الشيعة يظهرون في خراسان، ما بين الحين
والحين وبشكل منتظم حسب أوامر الكوفة، ودون أن يعرف لحساب
من يعملون [١].

(١) انظر، د.د. سعد زغلول، تاريخ الدولة العربية، طبع بيروت سنة ١٩٧٧
ص ١٦٤ - ١٦٥.

عهد أبي هشام إلى محمد بن علي:

تكاد تجمع المصادر التاريخية علي أن مطالبة العباسيين بالخلافة وادعائهم لها قد أنتقل إليهم من أبي هاشم عبدالله بن محمد بن الحنفية [أحد أبناء علي رضي الله عنه] [١] . فرواية صاحب "أخبار الدولة العباسية" تقول: "وكان تشيع العباسية أصله من قبل محمد

(١) لقد قالت فرقة الكيسانية من الشيعة بإمامة محمد بن الحنفية، ورجحت أنه لم يبق بعد الحسن والحسين أحد أقرب إلي أمير المؤمنين علي عليه السلام من محمد بن الحنفية لأنه كان صاحب راية أبيه يوم البصرة فهو أولي الناس بالإمامة، كما كان الحسين أولي بها بعد الحسن من ولد الحسن، فمحمد هو الإمام بعد الحسين وقالوا أن محمد بن الحنفية هو الإمام البهدي، ولما مات بالمدينة في المحرم سنة ٨١ هـ قالوا أنه لم يموت وأنه مقيم بجهال رضوي - بين مكة بالمدينة وأنه الإمام المنتظر الذي بشر به النبي صلى الله عليه وسلم وأله الذي سيملأ الأرض عدلاً وقسطاً هذا ولو أن هناك فرقة أخرى قالت أن محمد بن الحنفية مات وأن الإمام بعده ابنه عبدالله وكان يكنى أبا هاشم.

انظر: النوبختي، فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية النجف سنة ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م، ص ٢٣، ص ٢٦، ٣٠.

بن الحنفية والي ذلك دعا ابو مسلم^{١٠٠} [٩] وتذكر أيضا أن محمدا بن علي أخذ العلم علي يدي ابي هاشم وكان محمد يبجله ويحمله فكان اذا قام ابو هاشم يركب اخذ له الركاب^{١٠١} فلما مرض ابي هاشم مرضه الذي مات فيه وكان بارض الشراة من بلاد الشام وذلك عند قفوله من لقاء سليمان بدمشق عدل الي محمد بن علي بن عبد الله بن عباس وكان بالحيمية، وعهد له بحقوقه في الإمامة في سنة ٩٨ هـ / ٧١٧م [٢٠] والتي اليه بأسراره وقال له: أوصيك بتقوي الله فانها خير ماتواصي بها العباد ومن بعد ذلك فان هذا الأمر الذي نطلبه ونسعي فيه وطلبه اخرون وسعوا فيه فيك وفي ولدك [٣٠].

هذا ما نقله الرواية العباسية، أما الشيعة فانهم قالوا: ان أبا هاشم أوصي إلي عبدالله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر بن ابي طالب وهو الذي نادى به الشيعة في الكوفة اماما علي عهد مروان بن محمد، وبعد انهزامه امام المروانية اتجه الي فارس واصفهان واصطخر، وانتهى الأمر بمقتله علي يدي الناعية العباسي ابي مسلم الخراساني كما سبق القول.

(١) انظر مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، وفيه أخبار العباس وولده؛ تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري، الدكتور عبد الجبار المطليبي دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت ١٩٧١، ص ١٦٥ (أخبار الإمامة) حيث يقول النص: قالت الكيسانية بإمامة محمد بن علي، وذكروا ان أباه أوصي اليه والكيسانية متشبهون الي المختار بن ابي عبيد، وكان يلقب هيسان، وهو أول من قال بإمامة محمد بن علي، وبها كان يقول علي بن عبدالله وولده الي اياد المهدي.

(٢) مؤلف مجهول، أخبار الدولة العباسية، ص ١٨٥.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ١٨٦.

١- التأسيس الدعوي :

يعتبر محمد بن علي العباسي أول منظم الدعوة العباسية السرية أما ابنه ابراهيم الامام فكان المفجر لهذه الدعوة حيث نقلها من دعوة سرية الي علنية ولكنه لم يحن ثمار عمله حيث قتل قبل أن يحقق العباسيون الانتصار فكان ابو العباس عبد الله بن محمد العباسي أول خليفة لبني العباس .

ويمكن تقسيم الادوار التي مرت بها الدعوة الي:

١- الدور السري التحضيري ويبدأ من سنة ٩٧هـ / ٨٩٧م أو سنة ١٠٠هـ علي اختلاف الروايات التاريخية وكان مقر الدعوة الحميمة ونشاطها في الكوفة ثم مرو . ولم تكن تنظيماتها قد تبلورت في بادئ الأمر وجابهت انتكاست قوية هزتها مثل حركة خدش والقبض علي بعض الدعاة العباسيين .

٢- الدور العلني الثوري ويبدأ بارسال الامام ابراهيم ابا مسلم الغراساني الي مرو سنة ١٢٨هـ / ٧٤٥-٧٤٦ حيث أعلن الثورة ضد الأمويين سنة ١٢٩هـ بعد أن اختتمت الحركة السرية العباسية . وينتهي هذا الدور بان أعلن ابا العباس عبد الله نفسه خليفة في مسجد الكوفة سنة ١٣٣هـ / ٧٤٩م وعندها أعلنت

الحركة السرية عن مبعثها العباسية [١].

ويلهم من النصوص أنه عندما آلت مقاليد قيادة الحركة الهاشمية [نسبة الي ابي هاشم] الي محمد بن علي العباسي . الامام الجديد - بدأت مرحلة اكثر تعظيما من سابقتها فتعرف علي حامة ابي هاشم [٢] . عرفه عليهم سلمة بن بجير بطلب منه أن يثبت اسماءهم، ليعرفهم ويستظهر بهم علي أمره [٣] ، فكتب محمد بن علي العباسي فيهم سجلا . ومن هؤلاء كما تنص الرواية : سالم بن بجير - حفص بن سليمان وهو ابو سلمة الخلال حفص الأسير - ميسرة الرجال - موسي بن سريج السراج، زياد بن درهم الهمداني، معن بن يزيد الهمداني، المنذر بن سعيد الهمداني [٤].

وكما تذكر الرواية فإن الاتباع الاوائل كانوا ينتمون الي قبيلة بني مسلمة ومواليها وكذلك من قبيلة همدان [أي من اليمنية] وقال لهم الامام امسكوا عن الجد في امركم حتي يهلك أشج بني امية [عمر بن عبد العزيز] ولا تكثروا من أهل الكوفة، ولاتقبلوا منهم الا أهل النيات الصحيحة [٥].

-
- (١) انظر، د. فاروق مبر، طبيعة الدموة العباسية ٩٨هـ / ٧١٦م، ١٣٢هـ / ٧٤٩م، دراسة تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها طبع دار الارشاد، بيروت، طبعة ٩ وولي سنة ١٩٧٠، ص ١٥٣.
 - (٢) انظر، اخبار الدولة العباسية، ص ١٨٨ - ١٩٠.
 - (٣) نفس المصدر، ص ١٩٠ - ١٩١.
 - (٤) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩١ - ٢٩٢.
 - (٥) نفس المصدر السابق، ص ١٩٣ - ١٩٤.

وكان لا يعرف مخنف بن علي بنسبة واسمه الا شيعة الكوفة وهم
من الي ثلاثين رجلا، فاذا سئلوا عن اسمه قالوا: امرنا بكتمان اسمه
حتي يظهر [١] وكانت دعوتهم الي الرضا من آل محمد [٢].

ثم قرر الامام عملا بنصيحة كبار ثقاة نقل مركز النشاط
للغور الي خراسان مع الاحتفاظ بالكوفة نقطة ارتباط بين مروخراسان
والحمية من الامام [٣].

وارسل الامام ابا عكرمة زياد بن درهم السراج الي خراسان
وطلب منه السير علي نهج بكير بن ماهان في تأليف الاتباع، واوامه
بقوله: وان دعوت احدا من العامة فلتكن دعوتك الي الرضا من آل
محمد، فاذا وثقت الرجل في عقله وبصيرته فاشرح له امركم، وقل
بحجتك التي لا يعقلها الا اولو الالباب، وليكن اسمي مستورا عن كل
احد الا عن رجل عدلك في نفسك في ثقتك به، وقد وكدت عليه
وتوثقت منه واخذ بيعته وتقدم بمثل ذلك الي من توجه من رسلك،
فان سئلتم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد امرنا بكتمان اسم
امامنا - واذا قدمت مرو فاحلل في اهل اليمن وتالف ربيعه، وتوق
مضره وخذ بنصيبك من ثقاتهم واستكثر من الاعاجم، فانهم اهل
دعوتنا وبهم يؤيدها الله [٤].

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ١٩٤.

(٢) نفس المصدر، ص ١٩٤.

(٣) انظر، د. فاروق عمرة طبيعة الدعوة العباسية، ص ١٩٧.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٠٤.

هذا ولقد كان اختيار محمد بن علي العباسي لخراسان كمقر للدعوة موافقا لأنها تنفرد بموقف خاص، دون غيرها من امصار الدولة العربية الاسلامية . يتضح ذلك من وصيته لاتباعه من رجال حين تباينت الاراء حول المكان المناسب للدعوة .

"اما الكوفة وسوادها فهناك شيعة علي وولده، واما البصرة وسوادها فعثمانية تدين بالكف وتقول كن عبد الله المقتول ولا تكن عبدالله القاتل واما الجزيرة فحرورية مارقة واعراب كاعلاج ومسلمون في اخلاق النصارى واما اهل الشام فليس يعرفون الا ال ابي سفيان وطاعة بني مروان وعداوة لنا راسخة . . واما اهل مكة والمدينة فقد غلب عليهم ابو بكر وعمر، ولكن عليكم بخراسان فان هناك العدد الكثير والجلد الطاهر، وهناك مدور سالمة وقلوب فارغة لم تقسمها الاهواء ولم تتوزعها النحل ولم تشغلها ديانته، ولم يقدر فيها فساد، وليست لهم اليوم همم العرب ولا فيهم كتحارب الاتباع للسادات وكتحالف القبائل وعصبية العشائر وبعد فكانني اتفاهل الي المشرق والي مطلع سراج الدنيا ومصباح هذا العلق" [١] .

ونظم بكير بن ماهان - الذي قال عنه الامام: اسمعوا منه واطيعوا وانهموا هولساني اليكم واميني فيكم فلا تخالفوه ولا تحضوا الامور الا برايه وقد اثرتكم به علي نفسي لثقتي به في النصيحة

لكم واجتهاده في اظهار نور الله فيكم [١] اتباعه السبعين فقسّمهم
الى اثنا عشر نقيبا يرأسهم سليمان بن كثير الخزاعي وذلك سنة
١١٨هـ. وأكد علي وجوب مناصحته أمامهم في السر والعلانية، الا
يطلعوا علي أمرهم احد فهاوا ناصيته ولم يثقوا به [٢].

والنقباء الاثنا عشر هم:

- ١- ابو نصر مالك بن الهيثم
 - ٢- ابو محمد سليمان بن كثير الخزاعي ثم الاسلمي
 - ٣- ابو منصور طلحة بن زريق مولي طلحة الطلحات
 - ٤- زياد بن صالح (مولي خزاعة)
 - ٥- موسى بن كعب (ابو عيينة)
 - ٦- عيسى بن كعب
 - ٧- لاهز بن قريظة
 - ٨- ابو سهل بن مجاشع
 - ٩- ابو عبد الحديد قحطبة بن شبيب الطائي
 - ١٠- ابو داود خالد بن ابراهيم الذفلي
 - ١١- اسلم بن سلام
 - ١٢- ابو علي شبل بن طهمان
- ٩سد

وفكرة النقباء الاثني عشر- ونلاحظ ان اكثريتهم كانوا عربا -
والدعاة السبعين فيها اقتناء بنقباء بني اسرائيل وبنقباء الرسول

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١٣.

(٢) نفس المصدر، ص ٢٢٣.

صلي الله عليه وسلم بعد بيعة العقبة فالتص يقول "بسم الله الرحمن الرحيم" ان السنة في الأولين والمثل في الآخرين، وان الله يقول "واختار موسى قومه سبعين رجلا لميقاتنا"، ثم قال في آية اخرى: "وبعثنا منهم اثني عشر نقيبا" وان رسول الله صلي الله عليه وسلم وافاه ليلة العقبة سبعون رجلا من الاوس والخزرج فبايعوه فجعل منهم اثني عشر نقيبا [١].

وهناك [نظراء النقباء] [٢] وقد روي ان عددهم أحد وعشرون [٣] وهناك الدعوة ودعاة الدعوة [٤].

ويفهم من الرواية أن اهل الدعوة وشيعة الامام كانوا يرسلون اليه الاموال والحلي حتي يتقوي بها في "احياء الحق وامانة الباطل" [٥].

موت محمد بن علي وولاية ابنه ابراهيم الامامة:

اعلان الثورة:

مات محمد بن علي العباسي في سنة ١٢٥ هـ بالشرقة من أرض الشام وكان قد أوصي لابنه ابراهيم بالامامة من بعده اذا قال لغاسته:

(١) اخبار الدولة العباسية من ٢١٤-٢١٥.

(٢) نفس المصدر، من ٢١٩-٢٢٠.

(٣) اخبار الدولة العباسية من ٢٢٠.

(٤) اخبار الدولة العباسية، من ٢٢١-٢٢٣.

(٥) انظر، اخبار الدولة العباسية من ٢٢٣-٢٢٤، من ٢٣٧.

فلکم فيه خلف مدق مني كما أوصي بكير بن ماهان بأن يعهد برياسة
الدعوة في الكوفة الي ابي سلمة حفص بن سليمان الخلال .

وتنسب الرواية الي ابراهيم أنه قام باتخاذ السواد شعارا
العباسيين وذلك لان راية الرسول صلي الله عليه وسلم كانت سوداء
كانت راية علي ابن ابي طالب سوداء وهو اختيار يتفق مع ما
تورده الملاحم والنبوات علي ان لون الرايات المقبلة من الشرق
القضاء علي ظلم الامويين وانهاء دولتهم [١] .

ومن هنا سميت الدولة العباسية بدولة المسودة .

وامر ابراهيم بكير ماهان بالمضي الي نراسان وان يأمر الشيعة
بتسويد الثياب والرايات، وكتب معه كتابا الي الشيعة . نعي اليهم
فيه أباه ووعظهم [٢]، فبايع الجميع الامام الجديد [٣]، ثم قفل بكير
وبرفلقته بعض الشيعة العيسية الذين التقوا بالامام ابراهيم وتعرفوا
عليه وطلبوا منه التعجيل بالثورة وقالوا له: "حتي متي تأكل الطير
لحم أهل بيتك وتسفك دماءهم تركنا زينا مملوبا بالكناسة وابنه

(١) اخبار الدولة العباسية ص ١٩٩ .

(٢) اخبار الدولة العباسية ص ٢٤٠ ٢٤٥

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٤٠ .

يظردا في البلاد: وقد شملكم الخوف وطالت عليكم مدة اهل بيت
السوء. [١].

ظهور ابو مسلم في خراسان:

قرر الامام ابراهيم في سنة ١٢٨هـ [٢] اختيار مولا ابا مسلم
الخراساني وذلك بعد أن عرض الامر علي سليمان بن كثير وعلي
قحطبة فرفضوا ليمثله في خراسان. وكتب معه الي شيعته كتابا قال
فيه: "بسم الله الرحمن الرحيم صدق وعد الله لاوليائه وحقت كلمة
الله علي اعدائه ولاتبديل لكلمات الله، ولن يخلف الله الميعاد. أن
تستفتحوا فقد جاءكم الفتح، فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد
لله رب العالمين اما بعد فقد وجهت اليكم مجد الدهر عبد الرحمن
بن مسلم مولاي فالتقوا اليه ازمة اموركم، وحملوه أعباء الوزر لها
والصدر في محاربة عدوكم وعاهدوا الله علي الطاعة وكونوا بحبله
مستصمين. وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفهم
في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم، وليمكن لهم دينهم الذي
ارتضى لهم وليبدلهم من بعد خوفهم امنا، يعبدوني لايشركون بي
شيئا، ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون".

(١) الهبار الدولة العباسية، ص ٢٤١.

وكان تعرف ابي مسلم للمرة الاولى علي الدعوة العباسية حينما التقى ببعض النقباء العباسيين الذين زاروا بعض العجليين في سجن الكوفة وهم في طريقهم الي اداء فريضة الحج، وكان ابو مسلم يخدم هؤلاء العجليين [من بني معقل] في السجن، فتوسموا فيه نجابة وعقل وأدب فضموه الي دعوتهم وامطحبوه معهم الي ابراهيم الامام بعد ان استأذن مولاة عيس بن ابراهيم السراج [١] واعجب الامام اخلاقه ومنطقه ورأيه وعقله [٢] وغير اسمه الي عبد الرحمن وكناه بأبي مسلم وظل في خدمته يستعمله في حمل رسائله الي الكوفة وخراسان حتي سنة ١٢٨ هـ حين اشخصه الي خراسان.

وكان ابو مسلم علي معرفة بأحوال خراسان - التي كانت الفتنة قد طالت فيها بين نصر بن سيار وعطي بن الكرمانى ومن كان بها من العرب حتي أضر ذلك كثير من أصحابهما وجعلت نفوسهم تطلع الي غير ما هم فيه والي امر يجمعهم فتعركت الدعوة يدعوا اليماني من الشيعة اليماني والربيعي الربيعي، والمضري المضري حتي كثر من استجار وكفوا بذلك عن القتال في العصبة [٣] حيث اختلف اليها قبل ذلك بأمر من الامام ابراهيم وكانت احداها مع ابي سلمة الغلال الذي التقى بالشيعة وقال لهم قد حضر امركم فأعدوا واستعدوا [٤]

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧١.

(٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٤-٢٥٥.

(٣) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٥٦.

(٤) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٤٨.

كما تقول رواية صاحب اخبار الدولة العباسية علي لسان ابي مسلم "امرني الامام أن انزل في أهل اليمن وأتألف ربيعه، ولا أدع نصيبي من صالحه مضر واحذر اكثرهم من اتباع بني امية واجمع الي العجم واختصهم" [٨] .

ووصية ابراهيم الامام لابي مسلم تتلخص في الاعتماد علي قبائل العرب من اليمنية في خراسان، وكان هؤلاء يمثلون علي أواخر أيام الامويين حزب المعارضة لعرب الدولة، وأن يتألف ربيعه ويحذر ويشك في العرب من المضرة وهم عصبية والي خراسان، نصر بن سيار - الا ما صلح منهم .

والحقيقة أن انقسام العرب علي أنفسهم في خراسان كان السبب في نجاح ابي مسلم فأثناء الصراع بين نصر بن سيار المضري والكرماني اليمني انضم ابو مسلم الي الكرماني، وعندما حذر نصر زعيم اليمنية الكرماني من خطورة الناعية العباسي وطلب اليه الاتفاق ووافق الكرماني كان جزاؤه ان قتله نصر [٩] .

اعلان الثورة

لما فشا خبر ابي مسلم اقبلت الشيعة من كل ناحية وقدم

(١) نفس المصدر، ص ٢٦٧ .

(٢) نفس المصدر، ص ٢٨٥ .

الدعاة بمن وافقهم من اخوانهم، وتكاثر عددهم يوما بعد يوم [٨]
وكان ابو مسلم قد نزل في منطقة مرو، لانها اصلح مكان لاعلان
الثورة ومن هناك اخذ يرسل النقباء الي مختلف الاقاليم في
طخارستان ومرو الروذ والطارقان وخوارزم، وحدد ابو مسلم شهر
رمضان لاطهار الدعوة، ولكنه ترك للنقباء حرية التصرف فمن اعجله
العدو منهم دون الوقت بالاذي والمكروه، فقد حل لهم ان يدفعوا عن
انفسهم ويجردوا السيوف "وكذلك من شغله منهم عدوهم عن الوقت
فلا حرج عليهم ان يظهروا بعد الوقت" [٢].

وترك ابو مسلم مكانه في فلين ونزل في قرية سفيلنج" وبث
دعاية في الناس واطهر امره" [٣] فصارعت الاعاجم ، وكثير من اهل
اليمن وربيعة الي الدعوة من بين متدين بذلك او طالب بدخل [ثأره]
او موقوف يرجو أن يدرك بها ثأره، واتاه عدة من ذوي البصائر من
مضر [٤].

وتقول الرواية ان ابا مسلم بعث الي نصر وفدا . . وكتب
معهم الي نصر كتابا يدعوه فيه الي الطاعة والدخول فيما دخل فيه
اهل الدعوة ويعلمه ان هذه الرايات السود التي اظهرها هي التي لم
يزل يسمع بها ويحذر من أن يكون من صرعاها [٥].

-
- (١) انظره تاريخ خليفة بن خياط ج ٢، ص ٥٩٠ (احداث سنة ١٣٠ هـ ابن
الاشيرة الكامل ج ٧ ص ٣٠٢ - ٣٠٣.
 - (٢) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٧٧.
 - (٣) انظره ابن الاثير، الكامل ج ٤، ص ٣٠٠.
 - (٤) نفس المصدر، ص ٣٠٠.
 - (٥) اخبار الدولة العباسية، ص ٢٨٥.

واستعمل نصر ضد شيعة العباسيين دعاية دينية قوية حيث قال
هذه المسودة وهي تدعو الي غير ملتنا، وقد اظهروا غير سنتنا
وليسوا من اهل قبلتنا، يعبدون السنانيير، ويعبدون الرؤوس علوج
واغنام وعبيد وسقاط العرب والموالي [١] .

وأجابه الناس وظاهروه علي حرب ابي مسلم وكتب نصر الي ابن
هبيرة والي العراق يستمده فلما استنبط به الامور، كتب الي مروان
العمار يشكو له ابن هبيرة ويخبره بعظم الامر من قبل ابي مسلم،
وكتب اليه .

أري خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكري	وان الحرب يبدؤها الكلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أيقاظ أمية أم نيام (٢)
فان يك قومنا أضحوا نياما	فقل قوموا فقد حان القيام
فصري من رحالك ثم قولسي	علي الاسلام والعرب السلام

وكتب يصف له أمر ابي مسلم، وكثرة الدعوة وميل اليمانية
وربيعه اليه، ثم بعث للخليفة رسولا . وظل نصر ينتظر الممدد أن
يأتيه، وقد فسد عليه اهل خراسان ألا من كان معه من مضر خاصة
وكتب نصر الي ابن هبيرة يستمده فلم يمدّه [٣] فكتب الي الخليفة

(١) اخبار الدولة العباسية، ص ٣٩٠ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٠٤-٣٠٥ .

(٣) السعدي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٧٩ .

مروان ثانية يستنجد به بقوله "كتبت الي أمير المؤمنين لم يبق مني شيء أستعين به علي عدو أمير المؤمنين لأني رجالي ولا في مالي ولا في مكيدتي ولو كنت امددتنني بألف فارس من أهل الشام لا كتفيت بهم، ولقطعت دابر القوم الظالمين إني حين كتبت إلي أمير المؤمنين قد أخرجت من جميع سلطاني، فأنا واقف علي باب داري، وإن لم تأتني مواد أمير المؤمنين ووكلنا الي ابن هبيرة طردت عن باب داري، ثم لارجوع اليها الي ملتقي الحشر". [١]

ثم أن نصرا كما يقول صاحب اخبار الدولة العباسية "جمع وجوه أصحابه وأهل الرأي والمشورة منهم ولم يجتمعوا علي شيء وهنا اضطر نصر الي الاستنجد بالغليفة مروان ثانية يستحثه علي إمداده ويستنفره بقوله "أما بعد فإني ومن معي من عشيرة أمير المؤمنين في موضع من مرو علي مجمع الطريق ومحجة الناس العظمي من مختلف القوافل والرسل والجنود من العراق في حائط قد خدقت فيه علي نفسي ومن معي، وعن يميني وشعالي قري بني تميم وسائر احياء مصر ليس يشويهم غيرهم الا قري علي حدهم خاملة الذكر فيها خزاعة ولها حل طاغيتهم ابو مسلم، فنحن حين كتبت إلي أمير المؤمنين في أمر هائل يتكفأ بنا تكفل السفينة عند هبوب العواصف ونحن من أخواتنا اليمانية واغنامهم ورعاعهم، فيما نتوقع من سنهم، ولما قد شملهم من ورائهم العيب... وأنا معتمصم بطاعة أمير المؤمنين. وقد أملنا غياث أمير المؤمنين وورود خيله

[١] نفس المصدر السابق ، ص ٣١١-٣١٢.

وفرسانه ليقمع الله بهم كل مصر علي غشه وساع في خلافه فلا يكون
مثلا ياأمر المؤمنين قول الأول

لا تعرفنك بعد اليوم تندبني وفي حياتي ما زودتني رادي

ثم قال نصر شعرا يحرض فيه العرب علي الهاشمية

بلغ ربيعه في مرو واخوتهم ليغضبوا قبل الا ينفع الغضب
مايلهم تنصبون العرب بينكم كان قبل الحجي من رايكم لبيب
وحسرتكون عدوا قد اطاف بكم فليين غاب الحجي والرامي والادب
ذروا التفرق والاحتقاد واجتمعوا ليوصل الحبل والاصهار والنسب
ان تبعدوا الاردننا لانقربها و نحن نحبهم يوما اذا اقتربوا
استدلون اذا جمعنا وننصرهم لبس والله ماظنوا وماحسبوا(٢)

وظهر ابو مسلم وأعلن اسم الامام من أعلي المنبر في صلاة
الجمعة وأسفل المنبر علق علمان اسودان كان قد بعث بهما الامام من
الكوفة واحدهما سمي الظل والاخر السحاب. وكان أبو مسلم وهو
يعقد اللواءين يتلو "أذن للذين يقاتلون بأنهم ظلموا وأن الله علي
نصرهم لتقدير وتأول الظل والسحاب قال: أن السحاب يطبق الأرض
وأن الأرض كما لاتخلو من الظل كذلك لاتخلو من خليفة عباس الي
آخر الدهر[٣].

وكذلك ليس أبو مسلم السواد هو واتباعه، كما أنه غير في

(١) اخبار الدولة العباسية ص ٢١١-٣١٢.

(٢) انظره اخبار الدولة العباسية، ص ٣١١-٣١٢.

بعض الشعائر لما حضر عيد الفطر أمر ابو مسلم سليمان بن كثير أن يصلي بالشيعه وأمره أن يبدأ بالصلاة قبل الخطبة بغير أذن والا اقامه، وكان بنو أمية يبدأون بالخطبة قبل الصلاة، وبالأذان والاقامة .

وهكذا بدأ أبو مسلم نشاطه في منطقة قبائل خزاعة - كما تقول النصوص ولكنه عندما اصطدم باتحاد قبائل العرب ضده خرج الي قرية الماخوان وخندق بها . ثم عاد إلي نشاطه ورغم أنه أصبح من المشكوك في أمرهم من جانب العرب، إلا أن هؤلاء كانوا مشغولين بنزاعاتهم، فلم يستمر اتحادهم طويلاً بل أن عرب اليمنية تحالفوا معه عندما أرسل الي ابن الكرمانى واستماله الي جانبه . أما عن انصار ابي مسلم فكانوا خاضعين له تماماً، كما كان جنده مطيعين لقوادهم احسن الطاعة .

سقوط مرو:

وبفضل انقسام العرب علي انفسهم وتماسك حزب ابي مسلم، نجح هذا الاخير في الاستيلاء علي مدينة مرو عاصمة الاقليم الواقعة علي نهر المروغاب وكان دخولها بفضل معالاة اليمنية وعلي رأسهم ابن لكرمانى [١]

(١) ابن الاثير، الاكمال، ج ٤، ص ٣٠٩.

ودخل ابو مسلم مرو من باب قنوشير فتلا هذه الآية : ودخل
المدينة علي حين غفلة من أهلها" الي اخر الآية، ثم سار الي دار
الامارة فنزلها وعلي بن الكرمانى معه ، ثم دعوا الناس للبيعة فلم
يتخلف عنها أحد من أهل مرو . ثم خرج علي بن الكرمانى وأبو
مسلم الي المسجد فصعد علي المنبر وجعل ابو مسلم يبيع الناس،
وأقام ابو مسلم ثلاثة أيام يأخذ البيعة علي أهل مرو، وهرب نصر
من المدينة يوم الجمعة ١٠ جمادى الأولى سنة ١٣٠هـ [١]
وبصحبه أمراة المرزبانة، التي اضطر الي تركها في الطريق، واتجه
الي مدينة سرخس ومنها الي طوس ثم الي نيسابور .

فتح طوس:

مقتل تميم بن نصر:

ومن مرو اخذ ابو مسلم يدير الحرب ضد نصر . وكان يدير
العمليات العسكرية في جانب المصودة عدد من كبار القادة العرب
فأول من قام بمهاجمة القوات الاموية في خراسان كان قحطبة بن
مالح، وهو من قبيلة طى العربية . فلقد بدأ قحطبة بهزيمة تميم
بن نصر بن سيار في طوس وكان اتباع الضحاك الشيباني، من الخوارج

(١) انظر: أخبار الدولة العباسية، ص ٣١٦-٣١٨ .

قد لحقوا بابن نصر هناك وانتهت المعركة بمقتل تميم بن نصر
واستباحه عسكره [١] .

ويذكر صاحب "اخبار الدولة العباسية" ان نصر بن سيار قال
يرثي ابنه تميم لما بلغه نبأ مصرعه:

نكوب فجائع الحدث العظيم	نفي عني العزاء وكنت جلدا
لاجلاء الخوارج من تميم	وهم يورث الاحشاء وجدا
يذب من الجماعة والحريم	ومصرعه علي قطب الامادي
لنفس من اخي ثقة هريم	وفاء للخليفة وابتهذالا
بفارسنا المقاتل في الصميم	فلن يك دهرنا اودي مداء
فما انا بالضعيف ولا السئوم	وان يشبه بنهبتنا مدو

فتح نيسابور

أما عن نصر فانه هرب من نيسابور الي جرجان، وتمكن بذلك ابو
مسلم من دخول مدينة نيسابور في شوال سنة ١٣٠هـ / يونية
٧٤٨ م - ويعد أن تحقق لابي مسلم هذا النجاح الكبير تخلص من

زعيمي اليمينة من العرب وهما: علي بن الكرمانى وأخوه عثمان
اذ قتلها غدرا،

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٢٣-٢٢٦.

فتح جرجان [واخذ الري]:

وعندما استغاث نصر بن سيار بوالي العراق، وابن هبيرة،
ارسل اليه هنا جيشا بجرجان، ولكن قحطبة خرج اليه وهزمه في ذي
الحجة من نفس السنة، بعد ان فتح جرجان واوقع الهزيمة بأهلها
الذين حاولوا الثورة حتي قيل انه قتل منهم مايزيد علي ثلاثين الفا
وبسبب تردد والي العراق ابن هبيرة ساء موقف نصر الذي مات
وهو يفر أمام قحطبة بالقرب من الري " وكان مريضا يحمل حملا "
وبعد وفاة نصر اخذت مدينة الري وصادر ابو مسلم اموالهم لانهم
كانوا سفيانية كما تقول النصوص واحاط الحسن بن قحطبة ببقية
جيوش أهل الشام في نهاوند. وعندما خرج جيش شامي كبير لفك
حصارهم بقيادة عامر المري والي كرمان وداود بن يزيد بن هبيرة،
في أواخر سنة ١٣١هـ/ ٧٤٩ هزمه قحطبة وهو يتقدم قرب
امسهان. وتقول النصوص "امر قحطبة بمصحف فنصب علي رمح
ونادي يا أهل الشام أنا ندعوكم الي مافي هنا المصحف فشتموه
والمحشوه في القول "وأنه هزم داود بن هبيرة، وأصابوا عسكره
واخذوا منه مالا يعلم قدره من السلاح والمتاع والرقيق والغيل، وما
رؤي عسكر قط كان فيه من أصناف الأشياء مافي هنا العسكر كأنه
مدينة من البرابط والطناير والمزامير والحمر مالا يحصي " [١]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣١٦-٣١٧، ٣١٨-٣١٩.

حصار نهاوند

واستقرا حطبة - بعض الوقت باصفهان ثم قدم علي ابنه الحسن نهاوند وبعد عدة أشهر من القتال استسلم الشاميون بنهاوند دون أن يذروا في مصير أخوانهم بخراسان، هؤلاء قضى عليهم دون شفقة أو رحمة وبذلك انفتح طريق العراق أمام العباسية .

مسير حطبة إلى ابن هبيرة بالعراق:

وخرج حطبة من نهاوند وتوجه الي العراق واضطر في أول الأمر الي الانسحاب امام يزيد بن هبيرة والي الاقليم ، الذي خرج للقائه وراء دجلة ولكنه عاد واتجه نحو الكوفة . وتبعه ابن هبيرة وتمكن من مفاجأته في ذي الحجة سني ١٣٦ هـ / اغسطس ٧٤٩ م في معسكره قرب الأنبار، مما اضطر حطبة الي الانسحاب الي واسط . واثناء القتال الذي كان يدور ليلا سقط حطبة في النهر الفرات ومات غرقا [١] . في ليلة الأربعاء ٨ من محرم سنة ١٣٢ هـ [٢] . ولكن القوم اجتمعوا واجمعوا علي الرضا بحميد [الحسن] بن حطبة في رواية ابن الاثير فبايعوه وسلموا له الأمر [٣] .

(١) ابن الاثير ج ٤ ص ٣٦٠ - ٣٦١ .

(٢) اخبار الدولة العباسية ص ٣٧١

(٣) نفس المصدر ص ٣٧١ تاريخ خليفة ج ٤ ص ٥٨٢ احداث سنة

فتح الكوفة

تقدم الحسن بن قحطبة الي الكوفة في الجنود واستولي جيشه عليها بعد أن هزم ابن هبيرة ويفهم من النصوص أن الكوفة اخلت بسهولة، إذ كان محمد بن خالد القسري قد خرج فيها علي الامويين الذين انسحبوا و"سود" أي أعلن دخوله في دعوة العباسيين وكتب بذلك الي قحطبة [١] .

ظهور ابي سلمة بالكوفة

وارسل أبو سلمة الي حميد بن قحطبة أن يدخل الكوفة بأحسن هيئة وان يظهروا زينتهم، ويشهروا سلاحهم واعلامهم وقوتهم، ففعل وظهر ابوسلمة واعلن أمره وكان ظهور ابي سلمة وتوليهِ للامور يوم الجمعة ١٠ من المحرم سنة ١٣٢ هـ وتولي ادارة مقاليد الامور [٢] .

موت ابراهيم الامام

وتقول النصوص أن الخليفة مروان بن محمد كان قبل ذلك بقليل قد امر بالتبض علي الامام ابراهيم الذي اخذ وانفذ الي حران وحبس

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٦١ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٧٤-٣٧٥ .

الخلال، ومن ابي العباس، والتقي بهم علي الضفة اليسري لنهر الزاب، ودام القتال بين الطرفين تسعة ايام احرز مروان خلالها بعض الانتصارات، ولكن الأمر انتهى بوقوع الاضطراب في جيشة اذ كانت كل عصبية تريد ان تتقدم العصبية الاخرى وأعقب ذلك هزيمة مروان نتيجة لخطأ استراتيجي، اذ عقد جسراً علي النهر عبره رغم معارضة وزرائه في ذلك وترتب علي هذا الخطأ ان انقطع الجسر عند الانهزام وكان من غرق يومئذ اكثر ممن قتل " وذلك في ١١ جمادي الثاني من سنة ١٣٢ - ٢٦ يناير ٧٥٠م.

ولم مروان الي الموصل بعد هزيمة الزاب، ولكنه استقبل استقبالا سيئا، فسار الي حران، واقام بها اكثر من عشرين يوما. عندما تبعه عبد الله بن علي الي هناك مضي الي حمص. ولكن مدن الشام كانت قد بدأت تخلع طاعتها بالنسبة للامويين وتسقط بين ايدي العباسيين، مدينة بعد أخرى، مثل : قنسرين وحمص وبلبك ولم تدافع الا دمشق بعض الوقت فدخلت عنوة في ٥ رمضان سنة ١٣٢هـ / ٧ نوفمبر سنة ٧٥٠م. بعد أن حوصرت وضيق عليها العناق.

وتابع العباسيون مطاردة مروان، اذ سار في اثره صالح بن علي من ابي فطرس الي العريش الي النيل ثم واصل سيره الي معبد مصر. وفي بلده بوصير من قري الفيوم حاول مروان الاختفاء في

احدي الكنائس [١] . ولكنهم بايتوه و هجموا علي عسكره و ضربوا بالطبول و كبروا و نادوا يالشارت ابراهيم " فظن من بعسكر مروان ان قد احاط بهم سائر المسودة .

فقتل مروان في ١٧ من ذي الحجة سنة ١٣٢ هـ / ١٧
 في سنة ٧٥٠ م . . واحتز رأس اخر خلفاء الامويين و ارسل الي «الح بن علي الذي مثل به فقطع سلسانه و سيره الي ابي العباس الذي كان بالكوفة .

استسلام ابن هبيرة في واسط ومقتله:

بالقضاء علي مروان بن محمد لم يبق الامويين من قوة و لاحول الا قوات ابن هبيرة التي لجأت بعد انهزامها امام ابن قحطبة الي واسط، المدينة الاستراتيجية التي بناها الحجاج في مستنقعات و دافعت عن نفسها ما يقرب من العام . بدأ بمناوشات خارج المدينة بين اهل الشام و جيوش الحسن بن قحطبة و انتهت بانهزام اهل الشام و التجائهم الي المدينة و تحصنهم بها و أصبح القتال رميا و حراشقا من بعيد .

ورغم الانقسامات بين اليمنية و القيسية، في صفوف ابن هبيرة، بعد ان كاتب ابو العباس السفاح اليمنية من اصحاب ابن هبيرة ، فان هذا الاخير لم يدخل في مفاوضات مع العباسيين الا عندما علم

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٠-٣٣١ .

بموت مروان وفي هذه الأثناء كانت قيادة القوات العباسية المحاصرة بواسط قد انتقلت من يدي الحسن بن قحطبة الي ابي جعفر اخي الخليفة . وهذا يبين أن الخليفة . بدأ ينهج سياسة جديدة تهدف الي وضع مقاليد الأمور وخاصة القيادات العسكرية بين يدي افراد أسرته . وكتب السفاح الي الحسن بن قحطبة "ان العسكر عسكرك والتواد قوادك ولكن احببت ان يكون اخي حاضرا فاسمع له واطع وأحسن مؤازرته" . وبعد ان علم المحاصرون بمقتل مروان طلبوا الصلح، وجرت السفراء بين ابي جعفر وابن هبيرة وطالت المفاوضات بين الطرفين وكتب ابو جعفر كتاب امان لابن هبيرة، لبث ابن هبيرة يشاور فيه العلماء اربعين يوما حتي ارتضاه وارسله الي ابي جعفر الذي انقله الي اخيه السفاح فأمره بامضائه السفاح المعاهدة ولكنه لم يحترمها، بعد ان اعترض أبو مسلم علي نصوصها وكتب الي السفاح " ان الطريق السهل اذا ألتيت فيه الحجارة فسد لا والله لا يصلح طريق فيه ابن هبيرة" . [١]

وانتهى الأمر بقتل الراد الحامية المستسلمة واغتيال ابن هبيرة باستسلام واسط ثم القضاء علي القوات الأموية النظامية ونهج العباسيون سياسة ترمي الي استئصال شافة الأمويين واستخدام العنت ونقوبة ضد أفراد الأسرة التعسة، ولم يتوزعوا في ذلك عن استعمال الغدر والخيانة [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ص ٢٣٨ .

(٢) نفس المصدر، ص ٣٣٣ .

مذبحة أبي فطرس:

من أهم المذابح التي غدر فيها عبد الله بن علي عم الخليفة وقائد القوات العباسية في الشام، بعدد كبير من المراد الأسيرة الأموية والتي تسمى بمذبحة أبي فطرس، وذلك بعد أن أمنهم ودعاهم إلى الطعام ويقال أنه بعد قتلهم غيلة أمر بالبسط ففرشت علي جثثهم فاكل عليها وهو يسمح انين بعضهم [١] .

وطارد العباسيون الأمويين في الشام وفي فلسطين والعراق وبعد مطاردة الأحياء انتهكوا حرمة الأموات فنبشت قبور الخلفاء في دمشق بأمر عبد الله بن علي ونثر تراب جثثهم في الهواء، ولم يستثن إلا قبر عمر بن عبد العزيز، ولم ينج من الأمويين إلا حفيد الخليفة هشام وهو عبد الرحمن بن معاوية الذي هرب إلى الأندلس حيث أنشأ دولة أموية جديدة [٢] كما سري فيها بعد "واستصفيت أموال الأمويين وهدمت قصورهم، وضربت مصانع المياه التي كانوا قد أقاموها حتي لايبقي لذكرهم اثر".

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٣٣-

(٢) انظر، اخبار مجموعة في فتح الأندلس،

الفصل الرابع

إبتداء الدولة العباسية وبيعة أبي العباس

ابتداء الدولة العباسية وبيعه ابي العباس

١٣٢ - ١٣٦ هـ

بويغ ابو العباس عبد الله بن محمد علي بن عبد الله بن عباس بالخلافة في ١٣ ربيع الاول سنة ١٣٢ هـ [١] ، في الكوفة .

وكان ابراهيم الامام لما حبس بحران، وتوقع نهايته، قد عهد لاختيه ابي العباس "وأوصاه بالقيام بالدولة والجد والحركة، والا يكون له بعد بالحكمة لبث ولا عرجة حتي يتوجه الي الكوفة ٠٠٠ [٢]

وخرج ابو العباس ومعه اقاربه من العباسيين فيهم اخوه ابو جعفر [المنصور] وعبد الوهاب ومحمد ابن اختيه واعمامه: داود وعيسى وصالح واسماعيل وعبد الله وعبد الصمد بنو علي بن عبد الله بن عباس، وابن عمه داود وابن اختيه عيسى بن موسى حتي قدموا الكوفة في صفر .

(١) انظر، مؤلف مجهول العيون والحداثق، ص ١٩٩، وقارن خليفة بن خياط، تاريخ خليفة ج ٢، ص ٦٠٨ حيث يقول: وبويغ ليلة الجمعة بالكوفة ثلاثة عشر بقيت من ربيع الاول سنة اثنين وثلاثين ومائة، بينما تقول رواية المسعودي في مروج الذهب، ج ١، ص ٩٤ انه "بويغ يوم الاربعاء لاحدي عشرة ليلة خلت من شهر ربيع الاخر سنة اثنين وثلاثين مائة، وقيل في النصف من جمادي الاخر، اما رواية ابن الاثير ج ١، ص ٣٣٢، فتقول انه بويغ بالخلافة في شهر ربيع الاول لثلاث عشرة مضت منه وقيل في جمادي الاول .

(٢) المسعودي، مروج الذهب، ج ٢، ص ٩٥ .

ونستشف من الروايات ان "وزير آل محمد" وهو ابو سلمة الخلال كانت له نوايا خاصة وانه كان يميل الي العلويين فأظهر انه لم يبايع شخصيا الا ابراهيم الامام وهذا يفسر كيف أنه أخفي وصول العباسيين الي الكوفة لمدة تزيد علي اربعين يوما . وحاول في هذه الفترة أن يتصل بالعلويين فارسل رسالتين من نسخة واحدة الي الامام ابي عبد الله جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب . وعبد الله بن الحسن بن علي بن ابي طالب يدعو كل احدهما الي القدوم اليه ليصرف الدعوة اليه ويأخذ بيعة أهل خراسان .^(١) ولقد كان جواب جعفر بن محمد احراق الرسالة وانكر معرفته بأبي سلمة . أما عبدالله فقد شاور جعفر الصادق فحلره الصادق من نتيجة الانقياد وراء الخلال قائلا له: "ومتني كان أهل خراسان شيعة لك أنت بعثت ابا مسلم الي خراسان أنت أمرته بلبس السواد ولكن عبد الله استاء من كلام جعفر واعتبره حسدا منه [١] .

أما الدوافع التي دفعت الخلال للقيام بهذا العمل فمن ذلك خوفه بعد مقتل ابراهيم الامام من انتقام الامر ونساده .

ولقد فشلت محاولات الخلال . واخيرا عرف احد كبار اتباع ابي مسلم بوجود الخليفة الجديد فذهب اليه ومعه عدد من زعماء الخراسانية والقواد وبايعوا ابا العباس، وسلموا عليه بالخلافة، وعزوه في ابراهيم الامام واضطر ابو سلمة الي الذهاب ومبايعة ابي العباس [٢] .

(١) السبعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ٩٧-٩٨ .

(٢) انظر الطبري تاريخ الرسل والملو ج ٧، ص ٤٣٣ - ٤٣٤ ابن الاثير

ج ٤، ص ٣٢٣ - ٣٢٤ .

وتداولوها فجاوروا فيها وأستأثروا بها وظلموا أهلها بما ملا الله
لهم حيناً حتي أسفوا فلما أسفوه انتقم منهم بأيدينا ورد علينا حقنا
وتدارك بنا امتنا وولي نصرنا والقيام بأمرنا، ليمن بنا علي الدين
استضعفوا في الأرض وختم بنا كما افتتح بنا .

يا أهل الكوفة انتم محل محبتنا ومنزل مودتنا، انتم الذين لم
تتغيروا عن ذلك ولم يثكنكم عنه تحامل أهل الجور عليكم حتي
ادركتم زماننا واحاكم الله بدولتنا فانتم اسعد الناس بنا واكرمهم
علينا وقد رذتكم في اعطياتكم مائة درهم فاستعدوا فانا السفاح
الهبيع والثائر المبير" [١] .

وأثناء الخطبة تملكته الحمي فاضطر أن يقطع أول خطبة له
فوق المنبر . ولكن عمه داود بن علي تكلم نيابة عنه، ومن بين
ماقاله في خطبته " لقد كانت أموركم ترمضنا ونحن علي فرشنا
وتشتد علينا سوء سيرة بني أمية فيكم واستلزالهم بكم
واستلثارهم بفيلكم صدقاتكم وصغانتكم عليكم لكم ذمة الله تبارك
وتعالي وذمة رسوله صلي الله عليه وسلم وذمة العباس رحمه الله
علينا ان نحكم فيكم بما انزل الله ونعمل فيكم بكتاب الله ونسير في
العامّة والخامّة بسيرة رسول الله صلي الله عليه وسلم، تباتبا
لبني حرب بن أمية وبني مروان اثروا في مدتهم العاجلة علي الاجلة
والدار الغانية علي الدار البائية، فركبوا الاثام وظلموا الانام [٢] .
ثم قال يا أهل الكوفة انا والله مازلت مظلوماً مظلوماً بن علي حقنا

(١) انظر الطبري تاريخ الرسل والملوكة ص ١٠٠٠، ابن الخليل ابراهيم

طبع دار المعارف مصر ١٩٦٦ ص ٤٢٦ - ٤٢٧

(٢) نفس المصدر السابق ص ٤٢٧، ابن الاثير الفاضل ج ٤ ص

حتى اباح الله لنا شيعتنا اهل خراسان فاحياهم حقنا . . وأظهر بهم دولتنا واراكم الله ماكنتم تنتظرون فأظهر فيكم الخليفة من هاشم واداكم علي اهل الشام ونقل اليكم السلطان وأعز الاسلام . . وان لكل أهل بيت مصرا وانتم مصرنا الا وانه مامعد منبركم هنا خليفة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم الا أمير المؤمنين علي بن ابي طالب واميير المؤمنين عبدالله بن محمد وأشار بيده الي ابي العباس السفاح ثم قال " واعلمو ان هذا الامر فينا ليس بخارج منا حتي نسله الي عيسي بن مريم عليه السلام] (١) .

يتضح من الخطبتان السمات المميزة للعصر الجديد ومنها:

أن الدعوة العباسية قامت من اجل احلال الاسلام الذي فشل بنو مروان في تطبيق مبادئه
- وان لبني العباس الحق في الخلافة لانهم اقرباء الرسول صلي الله عليه وسلم من جهة عمه العباس بن عبد المطلب الذي مات بعد موت الرسول .

- تحقيق العدالة للمظلومين والمستضعفين من الناس .

- التأكيد علي نقل مركز الثقل السياسي من الشام الي العراق .

- زيادة الاعطيات [اعطيات الجند] الي مائة درهم .

(١) نفس المصدر السابق، ج٧، ص٤٢٧، ابن الاثير الكامل، ج٤، ص٣٢٥

... ولكن الخليفة حارهم من أية حركة قاتلة بانه الثائر المبير .

- أكد علي وضع آل العباس من الاسلام وأهله وانهم بنو هاشم واهل البيت .

- فندد الخليفة بأي السبئية في قولهم بأن الخلافة من حق آل علي وبين أراعناسيين في احقاق الحق وازهاق الباطل .

ندد ابو العباس بسياسة الامويين وظلمهم الناس وكيف ان العباسيين هم الذين انزلوا دونتهم واعلن حلول عهد العدل والاصلاح .

وهكذا قامت الأسرة الخلالية الجديدة وهي أسرة العباسيين بالكوفة وأول خلفائها هو ابو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن عباس .

والظاهر ان الخليفة كان يشك في موقف وزيره ابي سلمة الخلال ولذلك نجد انه لا يقيم في الكوفة . ولكن انتقل الي حيث يوجد العسكر العباسي الخراساني حمام اعين ثم بعد ذلك ينتقل الي الحيرة وينزل في الهاشمية العاصمة الجديدة ثم انه بعد ذلك تخلص من ابي سلمة الخلال علي يدي بعض اتباع ابي مسلم [١]

(١) انظره ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٢٣٦ .

وعلي أيام السفاح تم القضاء علي مروان بن محمد - كما سبق القول حدث كل هذا، وأهل الشام - الذين كانوا يكونون المعاء لمروان يقفون موقف المتفرج علي نهاية الدولة التي كانوا يدينون لها بكل شيء. هذا ولو أنهم بعد ذلك حاولوا القيام برد فعل فنقضوا وغلغوا في بعض المدن مثل: حران وقنسرين ودمشق.

واهم تلك الثورات ثورة قنسرين، اذ قامت القيسية بها ونادت بأبي محمد بن عبد الله بن يزيد بن معاوية ودعوا اليه وقالوا: هذا السفيناني المنتظر. ولكن عبد الله بن علي تمكن من تشتيت شمل الثوار في أواخر سنة ١٣٣ هـ. ووقع ابو محمد بين ايدي العباسيين وهو يفر الي الحجاز وذلك علي أيام المنصور [١].

وعصر ابو العباس لم يبلغ خمس سنوات، وعمل السفاح بمعلونه اخيه أبي جعفر علي ان يتقلد الهاشميون مقاليد الأمور في الدولة، فعهد الي اخوته وابنائهم وابناء عمومته بالقيادات العسكرية وولايات الأقاليم كما بدأ سياسة غريبة تهدف الي التغلص من كبار الاتباع والعمال الذين يحس بخطورتهم.

الثورات علي عهد أبي العباس:

وعلي عهد أبي العباس قامت بعض الثورات في خراسان، وفي إقليم ماوراء النهر ولكن الجيوش العباسية الخرسانية استطاعت ان

(١) ابن الأثير، ج ١، ص ٢٣٤-٢٣٥.

تلقضي عليها بسهولة وكذلك استطاعت جيوش الدولة ان تحرز انتصارات في المشرق وان تدفع بحدود الدولة نحو اواسط آسية .

ثورة بخاري:

ثورة بخاري هذه خطيرة اذ تزعمها رجل اسمه شريك المهري من قبيلة مهرة . هذا الرجل كان يؤيد ال البيت في اول الامر، ولكنه نقم علي السياسة التي انتهجها ابو مسلم عندما توسع في استغلال سفك الدماء . والتف حوله اكثر من ٣٠ الف رجل من منطقة بخاري ومنطقة خوارزم وارسل ابو مسلم جيشا لقتال هذا الثائر علي رأسه زياد بن صالح الخزاعي، وعاون ابن صالح ملك بخاري واخذت الثورة بكثير من العنف والقسوة وبيّال ان المدينة تركت طعمة للنيران لمدة ثلاثة ايام، كما صلب الاسري علي أبوابها [١]

وظهر علي اطراف الدولة خطر جديد، ذلك ان الصين بدأت تتدخل في شئون ما وراء النهر . ولكن زياد بن صالح بعد ان قضي علي ثورة بخاري استطاع ان يحرز نصراً عظيماً علي القوات الصينية في وقعة تسمى طراز وتبالغ الروايات العربية في ذلك النصر فتقول ان المسلمين قتلوا حوالي خمسين الفا واسروا نحو عشرين الفا، وهرب باقي الجيش الي الصين .

وأُسمرت الصين في سياستها التي تهدف الي «سعادة الحكام

(١) انظر، النرشخي، تاريخ بخاري، ترجمة الدكتور ابن عبدالمجيد بدوي، نصر الله مېشر الطرازي طبعة دار المعارف، مصر، ص ٩١-٩٣ ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٤١، ٣٤٢.

الوطنيين، علي الخروج علي الحكم العربي. ولكن عامل بلغ الذي عينه ابو مسلم هو ابا داود خالد بين ابراهيم نجح في قمع ثورة الغتل التي فراميرها الي بلاد الصين، وكذلك قتل دهقان كش ونسف.

وهكذا استطاع ابو مسلم ان يحرز نجاحا كبيرا في سياسته الخارجية بتأمينه لحدود الدولة الخارجية كما نجح في سياسته الداخلية. وهنا النجاح الكبير زاد بطبيعة الحال من هيبة الداعي الهاشمي واثار الخوف في نفوس العباسيين.

خروج زياد بن صالح:

ففي سنة ١٣٥ هـ قامت ثورة في أرض ماوراء النهر، بقيادة زياد بن صالح ومعه سباع بن النعمان الأزدي - وهو الذي كان قد أرسله السفاح الي زياد بن صالح وأمره ان رأي فرصه ان يثب علي ابي مسلم فيقتله. وكان ابو مسلم قد عينهما واليين لما وراء النهر. والظاهر انهما رفعا رايه العصيان بتحريض من السفاح، ولكنهما لم ينجحا في ثورتهم تلك فقتل سباع بمدينة امل. أما عن زياد بن صالح فقد انفض عنه جنده وهرب الي دهقان قرية باركت فقتله فبعث راسه الي ابي مسلم [١].

ولم يكن هذا يعني انتهاء محاولات الخليفة ضد عامله الكبير وذلك، انه ربما قرر ابو العباس السفاح بالاتفاق مع اخيه ابي جعفر

(١) انظر، الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ٧، ٦٦ هـ - ٦٧ هـ، ابن

الانبار، ج ٤، ٤٤ هـ، ٣٤٤ هـ

ذلك المناس الغدير . ولكن المنية واقت ابا العباس
فتوفي في ١٣ من ذي الحجة سنة ١٣٦ هـ / يونية ٧٥٤ وهو في
ريعان شبابه في الانبار وقد راح ضحية الحمي التي امت به، اوفي
وباء الجدري (١)

القضاء على ابي سلمة الخلال:

كان ابو مسلم شديد الحسد لتزايد نفوذ ابي سلمة في العراق
وتذكر الروايات انه اقترح علي الخيفة التخلص منه وانه كتب اليه
يقول له "قد احل الله لك يا أمير المؤمنين دمه لأنه قد نكث وغير
وبدل" ولكن السفاح رد علي ذلك بأنه لا يريد ان يبدأ عهده بقتل
رجل من شيعته مثل ابي سلمة لجهوده في نشر الدعوة (٢) . كما
كلمه ايضا ابو جعفر [المصور] أخوه وداود بن علي عمه في ذلك .
وكان ابو مسلم قد راسلها وطلب منهما ان يشيرا علي السفاح
بقتله .

ولكن ابو مسلم كما نستشف من الروايات ارسل جماعة من ثقاته
لقتل ابي سلمة وانتهاز فرصة انصرافه من عند السفاح من الانبار
وليس معه احد . "فوثب عليه اصحاب ابي مسلم فقتلوه" واشيع ان
ابا سلمة قتله الخوارج، وكان مقتله في رجب سنة ١٣٢ هـ .

(١) خليفة تاريخ خليفة ج ١ ص ٦٦٩ ، احداث سنة ١٣٦ هـ وقارن
المسعودي، مروج الذهب ج ١ ص ٩٤ حيث يقول "ومات بالانبار في
مدينته التي ابتهاها، وذلك يوم الاحد لاشنئ مشرة ليلة خلست من ذي
الحجة ابن الاشيرة ج ١ ص ٣٤٦ .

(٢) انظر، المسعودي ج ١ ص ١١٥-١١٦ .

الفصل الخامس

خلاصة المنصوص

خلافة المنصور

١٣٦ - ١٥٨ هـ

بعد ابي العباس ثبوا عرش الخلافة اخوه ابو جعفر عبدالله بن محمد بن علي بن-عبدالله بن عباس الملقب بالمنصور بالله.

ويعتبر ابو جعفر المؤسس الحقيقي للدولة العباسية .

وأول المشاكل التي واجهها المنصور هي أحقية ولايته لعهد ابي العباس إذ تذكر الرواية أنه في سنة ١٣٦ هـ أخذ ابو العباس البيعة بولاية عهد المسلمين وبالخلافة من بعده لاختيه ابي جعفر عبد الله بن محمد، ومن بعد ابي جعفر ولد أخيه عيسى بن موسى بن محمد بن علي وأنه "جعل العهد في ثوب وختمه بخاتمه وخواتيم أهل بيته".

رغم كل هذا فإن اعتلاءه العرش لم يتم دون نزاع فعندما تولي ابو العباس السفاح، كان اخوه ابو جعفر اميرا للحج، وبصحبه- ابو مسلم وقام بأخذ البيعة لابي جعفر، عيسى بن موسى ولي العهد الثاني الذي كان واليا للكوفة . وكتب عيسى الي ابي جعفر يعلمه بموت السفاح والبيعة له، كما كتب الي الامصار يطلب البيعة

للخليفة الجديد [١] .

ثورة عبد الله بن علي العباسي:

وفي ذلك الوقت كان عم الخليفة عبد الله بن علي، بطل وقعة الزاب والذي كان واليا علي بلاد الشام، وكان قد سار علي رأس قوامه من الشاميين والخرسانية علي الصائفة وهو يقصد بيزنطة . وعندما وصله خبر وفاة ابو العباس وولاية المنصور توقف عن المسير ودعا قواده ورجاله الي مبايعته، وكان لابد ان يبرر موقفه هذا ويظهر احقية في المطالبة بالخلافة فقال: أن السفاح حين اراد ان يوجه الجنود إلي مروان بن محمد لم ينتدب غيري وعلي هذا خرجت من عنده وهذا يعني أنه كان يري أن قتال الخليفة الأموي حقا للخليفة الذي سيحل مكانه وان انتداب الخليفة له للقيام بهذا الأمر ، عناه نيابته عنه وانه لا يتنازل عن هذه النيابة ولا يعترف بما حدث بعد ذلك من التغيير والتبديل والعهد لغيره . ووقف الي جانب عبد الله عدد من القواد وبايعوه بالفعل . والذي لاشك فيه ان تشجيع أهل الشام عصبية الدولة الأموية - كان من الاسباب التي قوت عبد الله وجراته علي الثورة .

سار عبد الله بن علي ونزل حران . وقفل ابو جعفر من الحج ليجد نفسه امام ثورة عبه ولم يجد مفرأ من الاستنجاذ بأبي مسلم رغم ماكان يكنه له من العقد، رغم ماكان يظهره الخراساني من تعال

(١) انظر الطبري، تاريخ الرسل والملوك، ج ٧، ص ٢٧١، انظر ابن الاثير الكامل، ج ٤، ص ٣٤٧، وقارن خليفة بن خياط تاريخ خليفة ص ٢٩، المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٢٨ .

وماكان يشعر به في قرارة نفسه من الأفضال والخدمات الكبيرة التي
أداها للدولة حتي انه غلب علي ابي جعفر، الذي كان اميرا للحج،
فكان ابو مسلم يكسو الاعراب ويصلح الابار، والطريق، وكان الاكر
له [١] .

امر المنصور ابا مسلم بالمسير لحرب عبد الله بن علي.
والظاهر ان عبد الله خشي غدر جنده من الخراسانية الذين كانوا
يدينون بالطاعة والولاء لابي مسلم فتخلص منهم وقتل منهم الكثيرين
ولم يبق له الا اهل الشام.

سار ابو مسلم الي حران وانسحب عبد الله بن علي من حران
الي نصيبين وتحصن هناك، ولم يرد المنصور ان ينفرد ابو مسلم
بالقيادة فاستدعي القائد المشهور الحسن بن قحطبة من ارمينية، وكان
واليا عليها وأمره ان يوافي ابو مسلم فلحق به في الموصل . وتقدم
ابو مسلم حتي نزل قريبا من عبد الله من ناحية نصيبين . والظاهر
ان مراكز اهل الشام كانت حصينة منيعة فلجأ أبو مسلم الي خطة
سليمة لزعزعتهم عن مراكزهم الاستراتيجية فكتب الي عبد الله بأنه
لم يأت لقتاله وانما ولي الشام بأمر من الخليفة وانه متوجه لتقلد
ولايته وعندد خشي اهل الشام من الخراسانية أصحاب ابي مسلم علي
ديارهم وطلبوا ان يسيروا الي بلادهم لحمايتهم . وكان عبد الله يعلم
ان ما اعلنه ابو مسلم لم يكن الاغدة . وأنه لابد ان يتصاهب القتال
ولكن اهل الشام لم يقتنعوا بذلك فقرر عبد الله الرحيل معهم نحو

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج٢، ص ٣٥٠ .

الشام وعندئذ تحول ابو مسلم فنزل في معسكر عبد الله بن علي في
الموضع الحصين. "وغور ماحوله من المياه والتي فيها الجيف"
وأضطر عبد الله والشاميون الي النزول في موضع عسكر ابي مسلم.
واستمر الصراع بين الفريقين مدة طويلة زادت الي اكثر من خمسة
أشهر. وكان اهل الشام اكثر فرسانا، ورغم حصانة المواقع التي
احتلها ابو مسلم، فان الشاميين استطاعوا بعد شهر من المناوشات
من توجيه هجمة قوية نحو المعسكر العباسي وتمكنوا من زحزحته
عن مواضعه.

وتشير النصوص الي مهارة ابي مسلم في تسيير دفة القتال
فقد اقام عريش كان يجلس عليه فنيظر الي رجاله فلذا رأي خلا في
بعض صفوفه أرسل الرسل الي مختلف القواد لاتخاذ الموقف
المناسب.

ولم يستطع أهل الشام ان يستفيدوا من ذلك النجاح المحقق الذي
احرزوه، وفي شهر جمادي الثاني سنة ١٣٧ هـ دارت المعركة
الحاسمة يتخلص تكتيك هذه الموقعة في أن ابا مسلم امر الحسن
بن قحطبة ان يعبئ الميمنة اكثرها الي الميسرة وان يترك في
الميمنة جماعة اصحابه واشداهم ولما رأي ذلك اهل الشام كشفوا
ميسرتهم وانضموا الي ميمنتهم بازاء ميسرة ابي مسلم وهنا امر
ابو مسلم اهل القلب والميمنة ان يهجموا علي ميسرة اهل الشام.
ونجحت هذه الخطة وانهزم اصحاب عبد الله وتركوا عسكرهم.

أكتفي أبو مسلم بالانتصار فأعلن الأمان في الناس وأمر بعدم الانتقام من المهزمين ولما كتب الي المنصور يعلمه بالنصر وبلاستيلاء علي معسكر عبد الله أرسل المنصور موله ليحصي الغنائم . وكان ذلك من الأسباب التي اثار غضب ابو مسلم، وعملت علي زيادة الجفوة بينه وبين الخليفة . تقول الرواية ان ابا مسلم قال: أنا أمين في الدماء خائن في الأموال [١] .

أما عبد الله بن علي وأخوه عبد الصمد بن علي الذي كان معه فلجأ عبد الله الي اخيه سليمان الذي كان واليا علي البصرة وحواري عنده حتي سنة ١٣٩هـ وعندما عزل سليمان وطلب اليه المنصور ان يبعث بعبد الله بعد ان امنه ولكنه سجن وانتهي الأمر بقتله فيما بعد [٢] .

لجأ عبد الصمد الي موسى بن عيسى ولي العهد في الكوفة وطلب اليه الأمان وانتهي هو الآخر نهاية شبيهة بعبد الله [٣] .

وهكذا تغلب المنصور علي اولي الصعاب التي اعترضته بعد

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٥٠ وقارن البسعودي مروج الذهب ج٤ ص ١٣٩ حيث يقول " فبعث اليه المنصور بيقطين بن موسى لقبين لخراش، فلما دخل يقطين علي ابن مسلم قال: السلام عليك ايها الامير، قال: لاسلم عليك يا ابن اللخناء اوتين علي الدماء ولاوتين علي الأموال " .

(٢) انظر ابن الاثير، ج٤، ص ٣٥٠ ح ٥٤ ص ٢٤ احداث سنة ١٤٧هـ المسعودي، مروج الذهب، ج٤، ص ١٦٠-١٦١ .

خلافته وهي ثورة أهل الشام بزعامة عمه عبد الله وذلك بفضل رجل الدولة أبي مسلم الخراساني الذي لم يلبث أن يلاقي مصرعه بدوره علي يدي الخليفة .

مقتل أبي مسلم الخراساني:

مما سبق يتضح لنا أن سلطان أبي مسلم في خراسان كان قد توطد بعد تخلصه من العرب الذين كانوا يتوقنون الي تقلد الأمور في ولاية خراسان وازدادت سلطة أبو مسلم .

والحقيقة ان النزاع بين أبي جعفر وأبو مسلم الي سنة ١٣٢هـ الي أوائل أيام السفاح وذلك بعد مقتل أبي سلمة الخلال وعندما أرسل السفاح أخاه أبا جعفر الي أبي مسلم بخراسان ومعه العهد لأبي مسلم بولاية خراسان وبالببيعة للسفاح ولأبي جعفر من بعده فلم يهتم الزعيم الخراساني بولي العهد أي بأبي جعفر الذي كان يقول لأخيه اطعني واقتل أبا مسلم فوالله ان في رأسه لغدره [١]

وحاول أبو العباس التقليل من نفوذ أبي مسلم واغتياله عدة مرات من ذلك ماتقول الرواية من أنه أمره باسقاط من لم يكن من أهل خراسان من جنده ليقفل من نفوذه ولكن أبا مسلم ادرك الحيلة [٢] وتجلت قوة أبي مسلم في نفس الوقت عندما أرسل

(١) انظر العيون والحداثي، ص ٢١٣-٢١٤ ابن الأثير الكامل ج ٤ ص ٣٥٤-٣٤٦ .

(٢) انظر الجهشيارى، كتاب الوزراء والكتاب، ص ٩٤ .

السفاح عمه عيسى بن علي واليا بفارس وتقول الرواية ان عمال ابي مسلم هناك تصدوا له بل وبلغ الأمر ان بعضهم اراد قتل عيسى بن علي، وعلي ذلك كان من الطبيعي أن يفكر السفاح وأبو جعفر في التخلص من "أمين ال محمد" بعد ان تخلصوا من "وزير آل محمد" وذلك حسب السياسة التي رسمها والتي كانت ترمي الي تأكيد سلطان الهاشميين. ويظن أن السفاح وافق علي التخلص من أبي مسلم ولكنه عاد واجل ذلك لفرصة اخري. وأخيراً في نهاية سنة ١٣٦هـ طلب ابو مسلم من السفاح ان يوليه امرة الحج وان يكون نائبه يوم عرفة ولكن السفاح جعله تحت امره أخيه ابي جعفر الذي اخذ امرة الحج لنفسه وحضر من ولايته ارمينية من اجل ذلك وتأثر ابو مسلم وأسرها لابي جعفر وتمادى الي الظهور بجانبه. ثم انه عندما وصله نبا موت السفاح وهم في طريق العودة لم يسارع أبا مسلم ببيعه المنصور الا بعد ان لفت الأخير نظرة الي ذلك في كتاب ارسله اليه. وأثناء قتال عبد الله بن علي لاحظ الحسن بن قحطبة ان أبا مسلم كان يهزأ ويستخف بالكتب التي كانت تصله من أمير المؤمنين فكتب بذلك الي الوزير ابو ايوب^[١]. وأخيرا زاد التوتر عندما ارسل المنصور مولاة ليحصى الغنائم التي استولي عليها في معسكر أهل الشام.

وأحسن المنصور خطورة الرجل وحاول ابعاده عن خراسان معقله وموطن سلطانه، فعرض عليه ان يوليه بلاد الشام ومصر، وطلب اليه

(١) ابن الاثير، الكامل، ج٤، ص ٣٥٠-٣٥١.

ان يسير الي ولايته الجديدة . وشعر ابو مسلم بما يضمه الخليفة فلم يقبل ما عرض عليه . وقرر العودة الي ولايته خراسان . ولكن المنصور رغبة ورهبة واتصل بنائب ابي مسلم في خراسان الذي هدد ابا مسلم وجعله يخضع لاوامر الخليفة . ويفضل اغراء بعض اصحابه سار ابو مسلم الي المنصور ليعتذر له عما بدر منه ، وكان المنصور في ذلك الوقت قد سار من الانبار الي المذار (لينظر مكان العاصمة الجديدة) وقابل رجال المنصور ابا مسلم قبولا حسنا ، واظهروا له آيات الاجلال وطمانونه ثم دخل ابو مسلم علي المنصور ، فأقبل عليه الخليفة يعاتبه ويعدد له هفواته وسقطاته . واعتذر ابو مسلم عن ذلك ببلاده وماكان منه ، وماقام به فكان رد المنصور : "يا ابن الخبيثة والله لو كانت امه مكانك لاجزأت انما عملت في دولتنا وبريحتنا فلو كان ذلك اليك ماقطعت فتيلك" [١] . وامر به فقتل تحت ناظرية في ٢٥ شعبان سنة ١٣٧هـ .

وتقول النصوص ان جعفر بن حنظلة لما نظر الي ابي مسلم مقتولا قال للمنصور يا أمير المؤمنين عد من هذا اليوم خلافتك" [٢]

وبعد مقتل المنصور لابي مسلم خطب الناس وحلرهم من الخروج من انس الطاعة الي وحشة المعصية وبرر موقفه من الرجل الذي ابلي في سبيلهم أحسن البلاد بقوله ، ولم يمتعنا الحق له من انشاء الحق فيه" [٣]

(١) ابن الاثير ، الكامل ، ج ٤ ، ص ٣٥٢-٣٥٤ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ٣٥٥ .

(٣) ابن الاثير ، ج ٤ ، ص ٣٥٦ .

الموقف في خراسان عقب مقتل ابي مسلم

ثورة سبأذ:

لم يمر موت ابي مسلم بسلام وذلك انه قامت بخراسان ثورة تطالب بدم ابي مسلم هذه الحركة تزعمها رجل من احدي قري مدينة نيسابور اسمه "سبأذ" . واستجاب لدعوة هذا الرجل التي قالت بعودة ابي مسلم "وانه لم يموت ولن يموت حتي يظهر فيملاء الارض عدلا [١] كثير من الناس .

واستطاع سبأذ ان يستولي علي نيسابور وقومس والري . واتي بالكثير من افعال العنف والتخريب والتهب ولكن جيوش الخليفة تمكنت من هزيمته بين همدان والري وانتهى الامر بمقتله [٢] .

ولكن هذا لايعني خضوع خراسان اذ ستظل البلاد ارضا خصبة مالحة لقيام الحركات المعادية للدولة اذ تقول الرواية انه في سنة ١٤١ هـ قام الراوندية من اهل خراسان ممن يدينون بفكر ابي مسلم ويعتقدون بتناسخ الارواح، ونادوا بالوهية المنصور وساروا من خراسان الي الهاشمية وحاول الخليفة ان يستعمل معهم اللين والسياسة ولكنه لم يوفق في ذلك مما اضطره الي التشدد معهم واستعمال العنف والقوة فحبس زعماءهم ولكن الامر تطور الي ان قاموا بثورة هددت المنصور نفسه اذ كسروا السجن واخرجوا

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٤٤ .

(٢) انظر ابن الاثير، ج ٤، ص ٣٥٧ .

أهـاجبهم وأتجهوا نحو الغليفة الذي أظهر شجاعة نادرة في قتلهم
والتنكيل بهم.

وسيطل حزب أبي مسلم هنا قائما وسيضم إليه كثير من أهل
البلاد واتخذ هنا الحزب المتناوئ للدولة شعارا مضادا شعارا الدولة
الأ وهو اللون الأبيض وعلي ذلك أصبحوا يسمون بالمبيضة. [١]

هنا عن ثورات المشرق ذات الأفكار الغارجة.

كذلك عرفت الدولة بعض الثورات مثل: ثورة العوارج في
الجزيرة تلك الثورة التي اخمدتها الدولة [٢].

والثورة التي قام بها القائد الذي هزم سبناذ في سنة ١٣٨ هـ
وهو جمهور بن مرار العجلي. هنا الرجل بعد أن هزم سبناذ
واستولي علي خزائنه، رفع راية العصيان، ولكن انتهى الأمر بهزيمة
جمهور، ومقتل الكثير من أصحابه. وهرب جمهور الي الدريجان ولكن
أصحابه قتلوه وحملوا رأسه الي المنصور.

ثورة عبد الجبار بخراسان

في سنة ١٤١ هـ قام والي خراسان عبد الجبار بن عبد الرحمن
الأرذي بثورة وسير اليه الخليفة ابنه ولي عهد المهدي الذي تمكن

(١) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٦٥-٣٦٦.

(٢) ابن الأثير، ج٤، ص ٣٥٨-٣٥٩.

من القضاء علي الثورة بسهولة . ولكن المنصور حرص علي الا يضيع نفقات الحملة التي كان قد جهد في تجهيزها فوجهها الي بلاد طبرستان .

وفي سنة ١٤٢ هـ قام والي السند عيينه بن موسي بن كعب، الذي كان بعيداً في أقصى المشرق بالثورة ولكن الدولة استطاعت أن تقضي عليه، كما أنها اقترت الأمور وقضت علي الثورة التي قامت في بلاد الديلم وهذه الحملات حمت حدود الدولة وصانتها [١] .

موقف العلويين:

أن العباسيين كما نعرف - عندما قاموا بثورتهم انما قاموا بها باسم آل البيت وانتقاما واثارا لمقتل العلويين واستغلوا عطف الناس علي العلويين خاصة في بلاد الحجاز . وعين بدأ محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دعوته السرية كان حذرا واستند في ادعائه بالخلافة الي وصية ابي هاشم عبد الله، كما كان شعار الدعوة الي "الرضا من آل محمد" واستطاع ابنه ابراهيم الامام الذي خلفه في زعامة الدعوة ان يوجه جهوده الي خراسان حيث توجد القبائل العربية المتلمزة من الادارة الاموية . وكللت جهوده بالنجاح الا انه قتل قبل وصول الشيعة العباسية الي العراق واحتلالها الكوفة .

وقد بايع زعماء الدعوة ابا العباس عبد الله بن محمد خليفة

(١) انظروا ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٦٨ .

للدولة العباسية وما ان تسلم العباسيون مقاليد السلطة حتي نظروا الي العلويين نظرة ريبة باء تبارهم المنافسين لهم علي الخلافة ويشكلون مصدر خطر علي الدولة الجديدة . أما الشيعة العلويون فقد نظروا الي العباسيين كمغتصبين للسلطة من اصحابها الشرعيين ، وهكذا دخل النزاع حول الخلافة مرحلة جديدة حيث أصبح نزاعا بين الهاشميين انفسهم . بين العباسيين والعلويين [١] .

علي أن العلويين لم يكونوا متحدين او متقنين علي زعامة واحدة تنظم كفاحهم المسلح وغير المسلح تجاه العباسيين . ثم ان كثرة القيادات العلوية يعني بالتالي ان ولاء الشيعة في تلك الفترة لم يكن باتجاه واحد واضح نحو فرع علوي معين .

قامت حركة العلويين ضد أسرة بني العباس في المدينة ، وكانت المدينة مركز الأسرة العلوية الكبيرة ، وكان المنصور ، يعتقد أن للعلويين سلطانا كبيرا هناك ولذلك فهو شديد الحرص علي قمع حركتهم وعلي بسط سلطانه علي الحرمين بصفته الامام . واجتهد المنصور في طلب مدبري الثورة وهما : محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن الذي يلقب " بالنفس الزكية " [وكان يدعي بالنفس الزكية لزهده ونسكه كما يقول المسعودي] واخوه ابراهيم . وكانت الدعوة للنفس الزكية والسبب في مطالبة محمد بن عبد الله بن الحسن

[١] انظر د. نازوق - مهم بحوث في التاريخ العباسي ، الطبعة الاولى بيروت ، لبنان ١٩٧٧ ، ص ٩٣ (موقف العلويين السياسيين من العباسيين اولاً : الموقف كما تعكسه الرسائل المتبادلة بين المنصور ومحمد النفس الزكية) .

بالخلافة انه كان يري احقيته في الملك وذلك من قبل ان يلي المنصور وربما قبل أخيه ابي العباس . وتقول الروايات ان ابا مسلمة كان قد راسل عبد الله بن الحسن ابو محمد هنا وانه عرض عليه الخلافة وان عبد الله قبلها . وكان يرسل جعفر الصادق ولم يقبلها ولولا تأخر الرسول في العودة لربما انتقلت الامامة فعلا الي الفرع العلوي .

وتقول الرواية ان عبد الله عندما عرض عليه هذا الامر قال :
انما يريد القوم ابني محمد لانه مهدي هذه الامة [٩] .

وكان محمد النفس الزكية واخوه ابراهيم قد تخلفا عن الحضور مع من حضر عنده من بني هاشم مع من حج علي ايام السفاح . والظاهر ان محمد ادعي ان المنصور كان قد بايعه في مكة في اواخر ايام مروان بن محمد وعلي هذا الاساس قام هو بالدعوة لنفسه . وهناك تفاصيل عن مطالبة المنصور لمحمد واخيه ابراهيم منذ سنة ١٤٠ هـ الي سنة ١٣٦ هـ حينما اعلن الثورة .

في هذه الفترة تجشم العلويات الكثير من المشاق واضطر الي التنقل بين البصرة والمدينة والسند والكوفة كما ارسل محمد اخوته

(١) نفس المرجع ، ص ٩٣ .

وابناءه في سائر الامصار والبلدان للدعوة له، فأرسل ابنه عليا الي مصر يدعو اليه ولكنه قتل بها [١] .

وحاول العلويون ان يدبروا مؤامرة لقتل المنصور في موسم الحج في سنة ١٤٠ هـ ولكن هذه المؤامرة فشلت وراح ضحيتها بعض اصحاب محمد الذي كان قد عاد الي المدينة وتمكن بفضل تساهل واليها من الخروج عنها . وعزل المنصور هذا الوالي وعين مكانه محمد بن خالد بن عبد الله القسري وأمدّه بالاموال وفوض اليه سلطات واسعة في كشف «تفتيش» المدينة ولكنه لم ينجح في مهمته . فعين المنصور عاملاً اخر مكانه اسمه رباح بن عثمان بن حيان المري [٢] وذلك في سنة ١٤٤ هـ وجد الوالي الجديد في طلب محمد ولكنه لم ينجح فلجأ الي سجن كل العلويين من أبناء الحسن من الفرع الحسيني وليس من الفرع الحسيني فقيّدوا بالحديد والسلاسل وعذب بعضهم بقسوة في حضرة المنصور، بل قتل البعض . ويسير بعدد منهم الي الكوفة حيث حبسوا . وازاء هذه الاجراءات التعسفية اضطر محمد ان يضع حدا لهذه المأساة وذلك بأن اعلن الثورة في سنة ١٤٥ هـ وعلم الوالي بما يدبره محمد فحاول تلافى الثورة وحمل اهل المدينة المسئولية الجماعية . وكان يساند الحركة العلوية من الناحية الشرعية القانونية الفقية مالك بن انس صاحب المذهب المالكي . من ذلك ان مالك بن انس حلل الناس من البيعة ومن يعين

(١) ابن الاثير، ج ٤ ص ٣٧٤ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣ .

الولاء للمنصور فقال لهم " انما بايعتكم مكرهين وليس علي مكره
يمين^[١] ولذلك لم يفلح التهديد وتشاور العلويون وكسروا السجن
وحرروا اقاربهم ممن كانوا قد سجنوا وتوجهوا الي دار الامارة
واستولوا عليها وأسروا الوالي.

وبعد أن استولي محمد علي المدينة بدأ في تنظيمها الاداري
فاستعمل واليا وقاضيا وصاحب بيت السلاح وصاحب الشرط، وكذلك
انشأ ديونا للعطاء وسجل في الديوان اسماء اعوانه واتباعه.

وبدا محمد يرسل الولاة الي الاقاليم المختلفة، لدولته الناشئة،
فارسل واليا الي مكة هزم واليها العباسي وبعث باخر الي اليمن،
وبثالث الي بلاد الشام. ولكن هذا الاخير لم يستطع ان ينجح في
مهمته.

ويمكننا ان ننظر الي اختيار محمد للمدينة كمركز لثورته علي
أنه عمل لا يدل علي بعد النظر السياسي، والظاهر أن محمد نفسه
كان يعرف ذلك اذ تقول الرواية أنه قال في خطبته في المسجد:
"أن أحق الناس بالقيام في هذا الدين ابناء المهاجرين والانصار"
وقال: اني والله بين أظهركم وانتم عندي أهل قوة ولاشدة ولكني
اغترتكم للنفس^[٢] هذا يعني ان المسألة في نظرة كانت مسألة
تقليد وسنة لاتقوم علي اعتبارات اقتصادية أو بشرية وهنا لا يكفي

(١) نفس المصدر السابق، ص ٣٧٣.

(٢) نفس المصدر السابق ص ٣.

وهذا لا يكفي بطبيعة الحال لأن الظروف كانت قد تغيرت عما كانت عليه في الفترة الأولى في بداية الاسلام.

وعندما بلغ المنصور خبر الثورة جزع وطلب النصح من كل مايمكنه نصحه رغم علمه بعدم خطورة ثورة محمد في المدينة فانه لجأ الي استعمال السياسة والمداورة وكتب الي محمد ويطلب اليه العودة الي الطاعة ويعطيه الامان المطلق له ولاهله ولكل من بايعه مع الوعد بالزرق والعطاء الجزيل كما انه سوغه ما أصاب من دم أو مال. ورد محمد بالرفض بطبيعة الحال.

وهذه المراسلات التي دارت بين المنصور وبين محمد النفس الزكية تبين الاسانيد الشرعية والجدل الفقهي الذي كان يستند اليه كل من الفريقين فمحمد يقول: "فان الحق حقنا وانما ادعيتهم هذا الامر بنا وخرجتم له بشيعتنا"، كما يقول "أن ابانا عليا كان الوصي وكان الامام فكيف ورثتم ولايته وولده احياء؟ ثم يقول: "وانا بنوام رسول الله صلي الله عليه وسلم فاطمة بنت عمرو في الجاهلية وبنو بنته فاطمة في الاسلام".

ثم هو بعد ذلك يؤمن المنصور ان دخل في طاعته واجاب دعوته علي نفسه وماله وعلي كل امر احدثت الا حنا من حدود الله أوحقا لمسلم أو معاهد فقد علمت مايلزمني من ذلك [١].

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٢٥ هـ

وهذا الشرط الأخير يدل علي صلابة في الرأي فيما يتعلق بالأمور الدينية وهو يدل في نفس الوقت علي عدم النظر السياسي . كما أنه يلاحظ ان امان المنصور لايعتد به ويذكر بالامان الذي اعطاه لابن هبيرة ولعمه عبد الله بن علي والامان الذي اعطي لابي مسلم .

ولم يكن من العسير علي الخليفة العباسي ان يفند ادعاءات العلوي فهو يلفت نظره الي انه فخر بقرابة النساء لتضل به الجفاة والافواة ولم يجعل النساء كالعومة لان الله جعل العم ابا . يحتج ان العباس من اعمام النبي صلي الله عليه وسلم اسلم تبعا لما تقوله الآية : **وانذر عشيرتك الاقربين** ^١ بينما لم يسلم ابو طالب ثم هو يفند حقوق علي بن ابي طالب في الخلافة ويدفع بعدم كفايته فانه رغم سابقته في الاسلام دعا النبي عندما مرض غيره للصلاة بالناس ثم انه لم ينتخب يوم السقيفة . ولما كان في الستة الذين عينهم عمر تركوه كلهم دفعا ولم يروا حقا له فيها .

وبعد ان يروي له قصة جهاد العلويين وفشلهم علي ايام علي الذي اجتمع الحكمان علي خلعه وحسن الذي باعها من معاوية وحسين الذي قتل ثم تقتيل الأمويين لهم . ويقول ان العباسيين هم الذين طلبوا ثأرهم وادركوا بدمائهم وانه لايجوز له أن يأخذ ذلك حجة عليهم [١] .

هنا عن دفع العلويين وتفنيد حججهم ثم هو بعد ذلك يبين

(١) ابن الاثير ، ج ٥ ، ص ٦٠ .

ادعاءات العباسيين في مطالبتهم بوراثة خلافة النبي فيقول ان العباس كانت له سقاية الحج . وولاية زمزم في الجاهلية والاسلام ثم يذكر حقوق العباس التي لا تنازع في هذا الميراث وهو انه لم يبق من بني عبد المطلب بعد النبي غيره بمعنى انه يريد ان يجعل الخلافة تركه يرثها اقرب الناس الي النبي وهذه هي وجهة نظر أقارب النبي والشيعه . وهي في الحقيقة بعيدة عن السنة وعن روح الاسلام .

تلك كانت حجج كل من الفريقين . وكان علي القوة ان تقر لمن تكون الخلافة . وندب المنصور عيسى بن موسى ولي العهد لمحاربة العلوي وارسل معه ابنه محمد واقترب عيسى من المدينة ، واستشار محمد النفس الزكية اتباعه فاشار عليه البعض بالخروج من المدينة ولكنه اخذ برأي القائلين بالمقام ثم انهم بتفكيرهم المثالي التقليدي الساذج فكروا كما فعل النبي في حفر خندق يحميهم من المهاجمين . هنا مع أن بعضهم لم يرغب عنه . . ضعف هذا الموقف من الناحية العسكرية الاستراتيجية .

ولم يكن تأييد اهل المدينة لمحمد قويا، كما خرج اناس من اهل المدينة بلراريهم واهليهم الي الاعراض والجبال وبقي محمد في شردمة يسيره وامر المنصور نائبه الايقاتل اهل المدينة الا فيما ندرو ان يتسامح معهم، ولكنه الح عليه في القبض علي محمد وعدم تمكينه من الهرب وان يعلن مسئولية جميع القبائل اذا تمكن النفس الزكية

من الفرار . وعرف محمد خنوع المدنيين واتخذ معهم بعض الاجراءات العنيفة ولكنه سمح في اخر الامر لمن يريد الخروج منهم ان يخرج . وحاصر عيسى المدينة وسد منافذها وتمكن جنده من الوصول الي الخندق فردموه وتفرق معظم اتباع محمد النفس الزكية الذي سقط قتيلًا بعد قتال سريع مجيد وذلك في منتصف رمضان سنة ١٤٥هـ كانون أول «ديسمبر» ٧٦٢م [١]

ولم يكن للثورة العلوية من رد فعل في المدينة الا اضطراب السودان في البلد الذين استولوا علي بعض امتعة الوالي الجديد ولكن أمرهم انتهى الي الهدوء [٢]

وهكذا يقضي المنصور علي محمد النفس الزكية ولكن بقي اخوه ابراهيم الذي خرج في البصرة والتي كانت ثورته اشد خطرا علي المنصور .

ثورة ابراهيم بن عبد الله بن الحسن اخي محمد بالبصرة:

كان ابراهيم يدعو - كما سبق القول - لآخيه محمد، واغلب الظن ان الاخوين كانا قد اتفقا علي أن يعملوا منفصلين، وذلك حتي تتم المباغطة للدولة وحتى اذا ما انهزم احدهما نجا الآخر ولو عرف ابراهيم كيف يستغل الظروف ويسير بجيوشه ضد المنصور وقت ان

(١) ابن الاثير، الكام، ج ٥، ص ٨-١١.

(٢) ابن الاثير، ج ٥، ص ١٣-١٤.

كان المنصور في ضعف نتيجة لانتشار قواته في اطراف الدولة لربما انتهت ثورته في البصرة بالنجاح.

وكما تقول الروايات اتخذ ابراهيم المشرق مجالا لنشاطه. وذلك في فارس وكرمان والاهواز وذلك قبل قدومه البصرة واستقراره بها.

وبدا ابراهيم حركته في البصرة في شهر رمضان سنة ١٤٥ هـ [١] بداية طيبة وكانت الظروف مواتية له اذ تقول رواية خليفة بن خياط، التي ترجع الي شهود عيان للأحداث ان الوالي سفيان بن معاوية بن يزيد بن المهلب سلم دار الامارة الي ابراهيم من غير قتال [٢] ثم قوي امره بما استولي عليه من دواب الجند وما أخذه من الأموال بعد الاستيلاء علي دار الامارة. واستطاعت طلائع قواته وان تحرز بعض النصر علي القوات العباسية فاستولت علي الاهواز بعد ان الحقت الهزيمة بواليتها، كما نجحت في دخول فارس وتمكنت من تملك مدينة واسط، وهي المركز الاستراتيجي الممتاز في سنة الوقت.

ولم يكن لدي المنصور، إلا قلة من العسكر، اذ كانت جيوش الدولة موزعة في الحجاز. وفي خراسان وفي الفريقية التي كانت مضطربة ايضا، واحس المنصور بخرج موقفه فأظهر الزهد والتسك والتشف. ولكن سرعان ما استعاد رباطة جأشه فاستدعي عيسى بن موسي من المدينة وطلب بعض جيوشه التي كانت بالري وكتب الي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٦.

(٢) ابن الاثير، تاريخ خليفة بن خياط، ج ٢، ص ٦٤٩.

المهدي ابنه يامرہ بارسال القوات لاستعادة الاهواز ووجه عيسى بن موسى الي قتال ابراهيم وطلب اهل الكوفة من ابراهيم المسير ليستعين بهم ولكن النصوص تقول انه كان مثاليا فخشي ان خرج اهل الكوفة اليه ان تفتك خيل المنصور بنسائهم واطفالهم [١] .

وأخيرا خرج ابراهيم من البصرة للقاء عيسى ونزل في موضع يعرف باسم باخمرا "علي بعد ١٦ فرسخ من الكوفة" وحسب تقاليد هؤلاء الثوار المثلين، وكما حدث في المدينة رفضوا ان يقاتلوا فرقا حتي اذا بدأ انهزمت فرقة خرجت فرقة غيرها للقتال واصرروا علي ان يقاتلوا صفا مثل اهل الاسلام رغم ما قيل لهم من ان الصف اذا انهزم تداعي سائره واقتتل الناس قتالا شديدا، وانتصر اصحاب ابراهيم في البداية ولكن الامر انتهى بهزيمتهم وبمقتل ابراهيم في ٢٥ من ذي القعدة سنة ١٤٥ هـ

وبذلك اندحرت الثورة العلوية وخلص الامر للعباسيين .

بناء مدينة بغداد:

انصرف اهتمام المنصور، الي تشييد حاضره جديدة للدولة . وكان قد شرع في ذلك، عقب توليه الخلافة مباشرة . فتقول النصوص انه كان يبحث عن موضع مناسب لتلك العاصمة . وكان السفاح قد استقر في الانبار في الهاشمية وهي التي استقر فيها المنصور في اول

(١) ابن الاثير، الكامل، ١٥٣-١٨٨ هـ

عهده - ولما كانت الهاشمية علي الضفة اليسري للفرات فانها كانت قريبة من الكوفة . والكوفة كانت مركز العلويين وهي التي سببت الكثير من القلاقل للدولة الاموية ربما كان هذا هو السبب في عدم اختيار ذلك الموضع لبناء العاصمة الكبرى .

وتجمع الروايات علي أن المنصور لم يبن مدينته الجديدة في مكان كفر خال من السكان بل ان الكتاب يذكرون عددا من الأماكن العامرة بالقرب منها ويذكرون من بين هذه الأماكن بغداد علي الضفة الغربية لنهر دجلة وربما كانت هذه القرية نواة عاصمة المنصور المستديرة .

واسم بغداد يعني "عطية الله" وتقول النصوص ايضا ان المنصور عندما بناها سماها "مدينة السلام" وكان يطلق علي المدينة ايضا اسم المنصورية وذلك نسبة الي بانيها وكذلك عرفت باسم الزوار .

وكان اختيار المنصور لذلك الموضع موقفا وذلك ان ازدهار المنطقة يرجع الي مركزها الممتاز من نواحي كثيرة . فالارض في هذا المكان خصبة جيدة بسبب وقوعها بين دجلة والفرات في ذلك الموضع الذي تضيق به المسافة بين النهرين، فكان يمكن تهيئة وسائل الري فيها بسهولة عن طريق القنوات التي تصل بين النهرين والتي كانت مألحة للملاحة . ووجود هذه القنوات كان يجعل المدينة في

موضع استراتيجي حصين فتقول الرواية انه قيل للمنصور عندما اختار هذا الموضع: "ات بين انهار لا يصل اليك عدوك الا علي جسر أو قنطرة فاذا قطعت الجسر واخربت القنطرة لم يصل اليك. ودجلة والفرات والصرة خنادق هذه المدينة، وانت متوسط للبصرة والكوفة وواسط الموصل والسواد وانت قريب من البر والبحر والجبل [١]".

ووضع المنصور بيده اول لبنة في بناء المدينة في سنة ١٤٥ هـ وقال "بسم الله والحمد لله والارض لله يورثها من يشاء من عبادة والعاقبة للمتقين ثم قال ابنوا علي بركة الله" [٢]

وبعد تخطيط المدينة، وبلغ السور مقدار قامة، قامت الثورة العلوية في المدينة والبصرة فصرف المنصور كل همه اليها وترك البناء حتي تم له القضاء علي النفس الزكية واخيه ابراهيم.

واستلزم البناء جمع عدد كبير من الصنائع والفعلة من مختلف الجهات وهناك تفصيلات عن العمال ومراتبهم من: الاستاذ الي الروزكاري. وأشرف علي البناء وحساب النفقات قوم من ذوي الفضل والعدالة والفقهاء وذوي الأمانة والمعرفة بالهندسة من هؤلاء الفقيه الشهير ابو حنيفة النعمان صاحب المذهب الحنفي [٣].

وقسمت المدينة الي أربعة مناطق تسمي ارباع وذلك تحت

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٤

(٢) نفس المصدر السابق، ص ١٥.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٥.

اشرف اربعة من القواد يسهرون علي العمل الذي استمر طوال اربع سنوات. وخططت المدينة ورسمت حسب خطة جعلتها تتسع في شكل دائري. فالنص يقول "وجعل المدينة مدورة لئلا يكون بعض الناس اقرب الي السلطان من بعض وبدئ ببناء قصر الخليفة في وسطها، والي جانب القصر بني المسجد الجامع. ويفهم من النصوص ان مدينة المدائن القديمة امتدت بغداد بكثير من مواد البناء الكبيرة التي قامت عليها. وحول نواه المدينة اي حول القصر والجامع تجمعت بغداد في شكل دائري وقسمت الي احياء منفصلة تخترق هذه الاحياء طرق عريضة مستقيمة كان يبلغ عرض الطريق منها ٤٠ ذراعا واتسعت المدينة وعملت فيها مجاري المياه، وأقيمت فوقها القناطر وانشئت المهاريج، وحصنت المدينة تحصينا قويا حتي تكون الإقامة فيها مأمونة ثم احيطت بسورين أحدهما من الداخل والاخر خارجي، وكان السور الداخلي اعلي من السور الخارجي. وكانت المنطقة بين السورين تسمي الفصيل. وجعل للمدينة أربعة ابواب المسافة بين كل من باب من ابوابها والباب الذي يليه تقدر بميل. ومن هذه الابواب باب خراسان وكان يسمي باب الدولة لاقبال الدولة العباسية من خراسان وهو في الشرق وباب الكوفة الذي يسمي ايضا باب الكوخ في اتجاه الكوفة وفي اتجاه الحجاز وفي الغرب باب الشام، وفي اتجاه الجنوب باب البصرة، وهو يوصل الي منطقة الاهواز وفارس وخورسنان. ويقال ان المنصور لم يصنع للمدينة ابوابا جديدة ولكنه استجلب لها الابواب من مدينة واسط باستثناء باب الشام الذي صنعه المنصور. وشعر المنصور بضيق قصره وسط المدينة التي تزدحم بالسكان، وبني بعد الانتهاء من المدينة المدورة وخارج اسوارها

الشرقية قصرا ثانيا هو قصر الخلد . وحدث شغب بين أهل السوق فاضطر الخليفة ان يخرج اهل الاسواق من المدينة وان يسكنهم في منطقة الكرخ في الجنوب . وبني ايضا المنصور الجزء الشرقي من بغداد وأنشأ في هذا المكان الجديد وشمال القصر الذي خصص ليكون معسكرا لولي العهد المهدي قصر "الرصافة" [١] ووزعت الأراضي المحيطة بالمدينة كقطاعات لأقارب المنصور ولعاليه وللكبار رجال الحاشية .

ومن هذا الوصف يمكن ان نرجح ان المنصور عندما بني مدينته كان يهدف الي بناء معسكر لجنده الخراسانية بعيدا عن مدينة الكوفة بمعنى أن نشأة بغداد كانت اشبه ماتكون بنشأة المدن التي بنيت في صدر الاسلام مثل: البصرة والفسطاط والقيروان التي أسست لتكون قواعد عسكرية للجند العربي في تلك الاقاليم .

بعض مظاهر نظم الدولة:

وظهرت المدينة الجديدة بمظهر يختلف عن مدينة دمشق حاضرة الامويين فالخليفة العباسي ظهر بمظهر الامام أولا وقبل كل شيء وكلمة الامام هنا لها معني دينيا اكثر من كلمة الخليفة او كلمة ائمة المؤمنين فالامام هنا مشتقة من امانة الصلاة .

وعمل العباسيون علي تأكيد صفتهم الدينية هذه فكانوا يرتدون

البردة التي كان يلبسها الرسول «صلي الله عليه وسلم» هذا في الوقت الذي عهدوا فيه بجزء كبير من سلطانهم الزمني الي الوزير . ووظيفة الوزير تعتبر تجديدا عباسيا فيما يتعلق بإدارة الدولة وذلك ان اللقب لم يعرف عند الامويين قبل ذلك . كان اللقب عند الامويين هو لقب الكاتب (١) .

واحاط الخليفة العباسي نفسه بمظاهر الابهة والعظمة .

أما عن البلاط العباسي، فكان يظهر فيه الي جانب أفراد الاسرة وآل النبي صلي الله عليه وسلم، وهؤلاء كانوا يكونوا طبقة الاعيان، الي جانبهم كان يظهر كبار رجال الدولة والموالي، كما كان هناك القراء والفقهاء والاطباء وعلماء الفلك والشعراء والموسيقيون والمضحكون والخصيان . كل هذا يعني ان خليفة بغداد لم يعد شيخ قبيلة بل اصبح وريث ملوك فارس .

ولم تعد الوظائف الكبيرة في الدولة وفقا علي النبلاء بل أصبحت تمنح وكذلك أصبحت الملابس الرسمية التي تعرف بالخلع هي السمة المميزة لاصحاب الرتب الكبيرة، وكذلك القلائس الطويلة التي أمر المنصور كبار موظفيه بلبسها .

وإذا كان الامويون قد عرفوا وظيفة الحاجب وهو الرجل الذي

(١) انظر، الجهشيارى، كتاب الوزراء، ص ٤٤٤، ص ٨٤-٨٥ .

ينظم مقابلات الخليفة فان الخليفة العباسي اصبح بعيدا كل البعد عن العامة بفضل عدد كبير من الحجاب والموظفين ورجال الدولة الذين كانوا يزدادون عددا من مرور الوقت.

والي المنصور يرجع الفضل في وضع نظم الدولة العباسية فقد حافظ علي النظام الساساني البيزنطي الذي كان معمولاً به علي أيام الامويين كما أنه جدد بناء هذا التنظيم فأصبح علي كل ولاية عامل او وال وكان لافراد الاسرة نصيب كبير في هذه الولايات.

البريد

وبفضل نظام البريد الذي عرفه الامويون والذي توسع فيه المنصور استطاع الخليفة ان يفرض رقابة شديدة علي ادارة الولايات المختلفة.

وكان علي اصحاب البريد ان يقوموا بكل الاستعلامات رغم ان عملهم كان يتركز في امداد الخليفة بالمعلومات المتعلقة بقيام الولاة باداء مهام وظائفهم في أعمالهم. وكانت تقارير اصحاب البريد لها أهمية خاصة فعن طريق هذه التقارير كان تعرف حالة المحاصيل فتتخذ الاجراءات المناسبة في الوقت المناسب عندما يكون الوقت وقت جذب. وكانت احصاءات البريد هذه المصدر الذي استقي منه الجيل التالي علم الجغرافية الذي ازدهر عند العرب.

وتقول النصوص ان المنصور قال: "ما احوجني ان يكون علي بابي اربعة نفر لا يكون علي بابي اعف منهم هم اركان الدولة ولا يصح الملك الابهام. اما احدهم فقاص لاتأخذه في الله لوحة لانهم، والاخر صاحب شرطة ينصف الضعيف من القوي وماحب حراج يستقصي ولا يظلم الرعية فاني عن ظلمها غني ثم عض علي اصبعه السبابة ثلاثة مرات يقول في كل مرة اه اه قيل: ماهو يا امير المؤمنين؟ قال: صاحب بريد يكتب خبر هؤلاء علي الصحة [١] .

الفقه:

وضم المنصور الي بلاطه كبار الفقهاء وأصحاب المعرفة بعلم الحديث والفقه . وكان تقريب الفقهاء يعني ان الدولة المثالية التي تعتنى بنشر العدل والشرع اصبحت حقيقة واقعة .

وفي ذلك الوقت كان مؤسسا المذهبين الكبيرين الا وهما: المذهب الحنفي والمذهب المالكي علي قيد الحياة كانا يميلان الي العلويين يقال ان ابا حنيفة كان يميل الي ابراهيم بن عبد الله عندما قام بثورته في البصرة .

وأبو حنيفة النعمان بن ثابت كان من الموالي هنا ولوان اصحابه وتلاميذه سيضعون له نسبا يرجع الي ملوك آل ساسان .

وعاش ابو حنيفة في الكوفة وكان يشتغل بتجارة الحرير،
وتوفي ابو حنيفة في سنة ١٥٠هـ / ٧ في بغداد . وكان قد قام
بالقاء الدروس في الكوفة وكانت له اراؤه الفقهية وفتاويه . وتتميز
مدرسة ابوحنيفة في التوسع في استعمال "الرأي" وكذلك
القياس.

اما عن مالك بن انس مؤسس المذهب المالكي بالمدينة فقد عرف
بميله للعلويين ايضا، والظاهر أنه عوقب وضرب بالسياط لهذا السبب
وذلك بعد ان فشلت ثورة النفس الزكية . ولكن الخلفاء سيتقرون
مالك فيما بعد وسيزوره هارون الرشيد عند اداءه فريضة الحج وذلك
قبل موته بقليل . وبينما كان اتباع مالك ينشرون مذهبهم في بلاد
العرب خاصة وفي الاندلس، دخل الحنفيون في خدمة النولة وعملوا
علي نشر مذهبهم وخاصة بعد أن شغل أبو يوسف واحد تلاميذ ابو
حنيفة منصب قاضي القضاة، فأصبح المذهب الحنفي هو المذهب
الرسمي .

ومدرسة مالك بن انس مبنية علي الأحاديث وذلك بسبب وجوده
في مدينة الرسول صلي الله عليه وسلم وهويهتم بالمتن أكثر من
اهتمامه بالاسناد وهو علاوة علي اتخاذه القرآن والسنة كأصلين
للتشريع يضيف اليهما ما تعارف عليه اهل المدينة . أي انه يرى ان
الاجماع هو اجماع اهل المدينة .

فتنة الموصل سنة ١٥٨هـ:

ويتأسس العاصمة الجديدة بغداد أصبحت سياسة الدولة شرقية ورغم أن المنصور اهتم اهتماماً كبيراً بتأمين وميانة حدود دولته فعمل علي تعقب الخارجين والقضاء عليهم فان هذه السياسة الحازمة لم تمنع قيام الثورات في كثير من الجهات من ذلك ثورة الخوارج بالموصل سنة ١٥٨ هـ والقلقل التي أثارها الأكراد بهذه الجهات مما جعل المنصور يستعمل خالد بن برمك علي الموصل فتقهر خالد المفسدين وكانت له هيبة في نفوس الناس [١].

ثورة استاذ سيس:

قامت بخراسان ثورة بقيادة رجل يعرف باسم استاذ سيس وذلك في سنة ١٥٠هـ، وكانت هذه الثورة خطيرة مثلها في ذلك مثل الثورات المذهبية التي قامت بایران. فيقال ان هذا الرجل ادعي النبوة وان اصحابه اظهروا الفسق وقطع السبيل، وانضم الي جانب هذا الرجل كثير من الاتباع "وغلّب علي عامة خراسان". واستطاع ان يوقع الهزيمة بعدد من الجيوش العباسية، ولكن امره انتهى بالهزيمة بعد ان سبب للدولة متاعب شديدة [٢].

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٣، ص ٤٦-٤٧.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٣، ص ٢٨-٢٩.

السياسة الخارجية:

الحرب ضد بيزنطة:

أما عن السياسة الخارجية فإنها كانت تتلخص في الصراع الذي أصبح تقليديا بين الاسلام وبين الدولة البيزنطية، ولقد طال الصراع ضد بيزنطة لمدة زادت علي أربع قرون هي التي بدأت بالتوسع الاسلامي. وانتهت سنة ١١٩٥هـ بالحروب الصليبية. ورغم طول هذه الفترة كانت هذه الحرب سقيمة لم يستطع احد طرفيها ان يعجز اثناءها انتصارا حاسما وخلال هذه الفترة عرفت بيزنطة عصرا من القوة علي ايام الابطارة الايسوريين وكان هذا من اسباب رجحان كفة بيزنطة ولكن اتت مسألة النزاع الداخلي في بيزنطة من اجل عبادة الصور ثم الاضطرابات التي تلحقها فاضعفت من قوة بيزنطة وهكذا كانت الفرصة مواتية للمصور في سنة ١٤٩هـ ولكي يواجه هجوما ضد البيزنطيين.

والحقيقة ان الامبراطورية البيزنطية لم تكن مهددة تماما من جانب الخلافة كما ان الخلافة كانت أقل عرضة للخطر من جانب البيزنطيين ولهذا السبب يطلق بعض الكتاب الافرنج علي هذه الحرب اسم "حرب العظمة" فهو يرى ان هذه الحرب لم تكن ضرورية ولكن الاسلام كان عليه ان يشعر دولة الكفار بسلطوته وهيبته ولهذا كانت تقوم القوات الاسلامية بتلك الحملات التي تعرف باسم "الموائد

والشواتي" وهو يرى ان المصالح الاقتصادية بين بيزنطة وبين الاسلام كانت توجب قيام اتفاق ودي بين الطرفين

وعلي أية حال كان مجال العمليات العسكرية ضد بيزنطة هي المنطقة المحاذية لجبال طوروس في الشرق وهي المنطقة التي رقت عند الكتاب باسم "العواصم" أو "الثغور" ومعناها الحد الذي يفصل بين دولة الاسلام وبين دولة الكفر خلف هذه المنطقة كانت توجد الممرات والمنافذ في الجبال وكانت هذه الممرات محمية بالقواعد والقلاع، وهذه القواعد كانت مدنا اغريقية قديمة جدها العرب واعادوا بناءها وحولوها الي حصون وأهم هذه الحصون ادنه وطرطوس والمصيصة وسميساط وملطية، ومرج دابق، وخلف هذه القلاع كانت تمتد اقاليم اسية الصغرى وهي ارض الروم وهذه الارض كانت هدف القوات الاسلامية خلال الصوائف والشواتي تهرب بها الاعداء وترجع بالسبي والمغانم اما عن الهدف الحقيقي للجيش الاسلامي فكان هو عاصمة الدولة البيزنطية. ولكن قوات الاسلام لم تستطع تحقيق الاستيلاء علي القسطنطينية.

والذي يلاحظ هو ان الصوائف لم تكن تذهب علي ايام المنصور الي بيزنطة الا اذا كان العسكر غير منشغلين في اخماد ثورة...
تقول الرواية في سنة ١٣٧هـ "لم يكن للناس في هذه السنة مائدة لشغل السلطان بحرب سنباد" [١]

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٤، ص ٣٥٨.

ولهذا السبب نجد انه في السنة التالية يتمكن الامبراطور قسطنطين من اخذ ملطية ويهدم اسوارها ولكن المسلمين استطاعوا ان يستعيدوها واعادوا بناءها وعمرها .

وبعد ذلك عقدت معاهدة في سنة ١٣٩ هـ بين المنصور وبين الامبراطور قسطنطين وعلي ذلك فلم تعد الغارات الا في سنة ١٤٦ هـ بعد ان انتهى المنصور من حرب العلويين [٩] .

خلع عيسى بن موسى من ولاية العهد والبيعة للمهدي:

اضطر عيسى في سنة ١٤٧ هـ ان يحل الناس من البيعة له وذلك بعد ضغط شديد من المنصور استعمل فيه الكثير من الاساليب العنيفة واخذ المنصور البيعة لابنه المهدي بدلا من عيسى الذي اصبح يلي المهدي في ولاية العهد - وتقول الرواية ان عيسى قال "انا ذا أشهد ان نسائي طوائق ومعالكي احرار وما املك في سبيل الله تصرف ذلك فيمن رأيت يا أمير المؤمنين" .

ويقال ان الناس تندروا بعد ذلك بقولهم: "هذا الذي كان غدا فصار بعد غد" [٢]

(١) نفس المصدر السابق، ج ٤، ص ٣٥٩ - ٣٦٠ .

(٢) نفس المصدر، ج ٥، ص ٢٢-٢٣ .

وفاة المنصور:

وفي شهر ذي الحجة من سنة ١٥٨ هـ توفي المنصور وكان في طريقه الي الحج بالقرب من مكة .

وكان المنصور كما تصفه الروايات من الحزم ومواب التدبير وحسن السياسة علي ماتجاوز كل وصف [١] فقد كان يشغل صدر نهاره بالامر والنهي والولايات والعزل وشحن الثغور والأطراف وامن السبل، والنظر في الخراج والنفقات، ومصلحة معاش الرعية . . فاذا صلي العصر جلس لاهل بيته فاذا صلي العشاء الاخيرة جلس ينظر فيما ورد من كتب الثغور والأطراف . . وشاور سماره فاذا مضى ثلث الليل قام الي فراشه وانصرف سماره، واذا مضى الثلث الثاني قام فتوضا وصلي حتي يطلع الفجر ثم يخرج فيصلي بالناس، ثم يدخل فيجلس في ايوانه [٢] .

(١) المسعودي، مروج الذهب، ج ٤، ص ١٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٤٧٠ .

الفصل السادس

خلافة المهدي

خلافة المهدي

١٥٨ - ١٦٩ هـ

مات المنصور - كما سبق القول - بالقرب من مكة وهو في طريقه لأداء فريضة الحج، واحتفل بتأيينه وأخذ البيعة لابنه المهدي.

ويفهم من النصوص أن الذي أخذ البيعة للمهدي هو ابنه موسي «الهادي» وكان من بين الحاضرين عدد من كبار رجال الدولة، وبعض عمومه الهادي بل وتذكر الرواية أن عيسى بن موسي، ولي العهد الثاني، كان حاضراً بدوره كان متردداً، والنص يقول: "أبي من البيعة" . ولكنه بايع [١]

ووصل نبأ وفاة المنصور إلى المهدي الذي كان ببغداد في منتصف شهر ذي الحجة وأرسلت إليه إشارات الملك وهي: بردة النبي صلى الله عليه وسلم، والقضيب وخاتم الخلافة .

وفي بغداد تمت البيعة الثانية للخليفة الجديد وهي "بيعة العامة وأولي" المشاكل التي اعترضت المهدي هي ولاية العهد، فقد كان عيسى بن موسي هو ولي العهد الثاني. ومر عيسى بن موسي بنفس المحنة التي عرّفها في عهد المنصور، فقد التعرض للاضطهاد

(١) ابن الأثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٠.

والتهديد والترغيب ومحاولة اقناعه عن طريق الفقهاء والقضاة خلع نفسه في أوائل سنة ١٦٠هـ، وباع للمهدي، كما باع ابنه موسى الهادي بولاية العهد. ثم جلس المهدي في الغد، وأحضر أهل بيته وأخذ بيعتهم، وخرج إلى الجامع ومعه عيسى بن موسى فخطب الناس وأخبرهم بخلع عيسى والبيعة للهادي فأسرع الناس لمبايعته.

أما عن العلويين فلا تذكر الروايات أنه قام بأعمال عنيفة. ضدهم وكان المهدي كما تقول الرواية محببا إلى الخاص والعام. لأنه افتتح أمره برد المظالم وكف عن القتل وأمن الخائف وانصف المظلوم. -
إلا أن المهدي كما يفهم من النصوص استتني بعض العلويين من التمتع بالعمو، وهو الحسن بن إبراهيم بن عبد الله بن الحسن بن علي مما اضطره إلى الهرب من سجنه وأقلق ذلك الخليفة ولكن الأمر انتهى بطلب العلوي الأمان من الخليفة فأمنه المهدي ووصله

وأطلق المهدي كما تقول الرواية ابني داود بن طهمان، الذي كان يناصر إبراهيم في البصرة وقرب ابنه يعقوب - بن داود - تقريبا شديدا واستوزره وقرب داود بدوره الزيدية من العلويين "فجمعهم وولاهم أمور الخلافة في الشرق والمغرب" وكان ذلك من الأسباب التي دفعت الشاعر بشار بن برد إلى أن يقول بيتية المشهورين:

بني أمية هبوا طال نومكم ان الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتمسوا خليفة الله بين الناي والعود

والظاهر ان الخليفة ادرك خطورة امر ترك مقاليد أمور الدولة الي وزيره فتخلص منه، سجنه، وذهب بصره في السجن، وبقي محبوسا حتي عهد هاروق الرشيد، اذ شفع اليه فيه يحيي بن خالد بن برمك، فأمر الرشيد باخراجه من سجنه، واحسن اليه ورد اليه ماله، وأختار يعقوب الإقامة في مكة فاقام بها حتي مات في سنة ١٨٧هـ [١].

موقف الخوارج:

كان الخوارج يلجأون كعادتهم الي القيام بأعمال العنف والشدة من ذلك ما تذكره النصوص من قيام ثورة خارجية بخراسان في سنة ١٦٠ هـ تزعمها رجل يعرب باسم يوسف بن ابراهيم ويلقب "بالبرم" وقد قيل أنه كان حروريا واستطاع التغلب علي بوشنج ومرو الروذ والجوزجان، ولكن جيوش الخليفة استطاعت القضاء علي الثوار والقبض علي يوسف هذا الذي سبق الي الرصافة حيث قطعت يدها بها ورجلاه وقتل هو اصحابه وصلبوا علي الجسر.

وفي اواخر هذه السنة قامت ثورة خارجية أخرى بنواحي الموصل، ينفرد بذكر تفصيلات دقيقة عنها خليفة بن خياط في تاريخه، كما ينفرد بإيراد نص الرسائل المتبادلة بين الثائر الخارجي

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٦.

عبد السلام الإشكوي والخليفة المهدي وقد سببت حركة الإشكري -
الذي استولي علي معظم ديار ربيعه - الكثير من المتاعب للدولة،
وذلك قبل ان يقضي عليها ويقتل زعيمها .

الحركات المذهبية:

حركة المقنع:

أما عن الحركات المذهبية التي اشتهرت بها خراسان منذ مقتل
ابي مسلم فانها انتجت علي أيام المهدي ثورة كبيرة قام بها رجل
يعرفه الكتاب بلقب "المقنع" وهذا الرجل كان يؤمن بالتناسخ، واسم
هذا الرجل هاشم وهو من مرو الروذ، واعتنق هاشم فكرة التناسخ
والحلول فقال: "أن الله خلق آدم فتحول في صورته، ثم في صورة
نوح- وهلم جرا الي ابي مسلم الخراساني ثم تحول الي هاشم . وكان
هذا يعني ان روح الله قد تجسست في علي ذلك يقول بعض الكتاب أنه
ادعي الألوهية . وبدأت الدعوة التي قام بها المقنع في منطقة كش
ونسف - من أرض ما رواء النهر - والتف حوله جمع كثير وأيده
أعداء الدولة من أتباع مذهب ابي مسلم الذين عرفوا بالمبيضة ببخاري
والصغد، وساعد هذه الثورة قيام الثورة الخارجية في خراسان «ثورة
البرم» وكذلك اعانة الترك الذين استنجد بهم فتمكن المقنع من
السيطرة علي الاقليم في وقت قليل، كما استطاع ان يحقق عددا من
الانتصارات علي قوات الخلافة التي سارت ضده . وكان الرجل يظهر

امام الناس مرتدياً قناعاً، هذا القناع منسوج بخيوط الذهب حتي يبهـر
الابصار عن طريق اشراق الانوار الالهية كما كان يدعي. وتقول
النصوص ان اتباعه كانوا يسجدون له، ولهذا السبب عرف بالمقنع
وربما كان السبب في ارتدائه ذلك القناع هو محاولته اخفاء تشويه
وجهه. اذ تقول الرواية "انه كان أعور" [١].

وبعد عدة حملات كللت بالظفر استطاعت الجيوش العباسية
هزيمة الثوار في منطقة بخاري بعد ان ضيقوا عليهم الخناق
وحاصروهم حوالي اربعة اشهر ولكن المنهزمين لم يستسلموا اذ
لحقوا بالقوات الرئيسية للمقنع وطالت المناوشات طوال سنة ١٦٠هـ
دون جدوي في السنة التالية وهي سنة ١٦١ هـ تجمعت قوات
الخلافة وتقدمت نحو التأثر، وشددت عليه الحصار حتي اضطر كثير
من اتباعه الي الاستسلام وذلك بعد أخذ الامان سرا منه وبقي المقنع
في قلعة من اصحابه زهاء الفين، وعندما أيقن بالهلاك اضطر الي القاء
نفسه هو وأهله ونسائه وخوامه في النار وذلك بعد ان احرق كل
مافي قلعته. ومن دابة وثوب غير ذلك، وتقول الرواية انه قال:
من أحب أن يرتفع معي الي السماء فليلق نفسه معي في هذه
النار. [٢]

ورغم القضاء علي الفتنة، وقتل امير بخاري، فان ذلك المذهب

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٢٠.

(٢) نفس المصدر، ص ٥٨٠.

ظل باقيا في كش وبغض قري بخاري ونهاية هاشم الغربية هذه كانت سببا في افتنان من بقي من اصحاب كما تقول النصوص [١].

وتقول النصوص ان المهدي^١ جد في طلب الزنادقة والبحث عنهم في الافاق وقتلهم [٢] كما تقول الرواية انه قال لولي عهده الهادي وقد قدم اليه زنديقا فقتله وامر بصلبه يابني اذا صار الامر اليك فتجرد لهذه العصابة يعني اصحاب ماني - فانها تدعو الناس الي طاهر حسن كاجتناب الفواحش والزهد في الدنيا، والعمل للأخرة ثم تخرجها من هذا الي تحريم اللحوم ومس الماء الطهور وترك قتل الهوام تخرجها، ثم تخرجها الي عبادة اثنين، احدهما النور والاخر الظلمة، ثم تبيع بعد هذا نكاح الاخوات والبنات والاعتسال بالبول وسرقة الاطفال من المهد لينقلوهم من ضلال الظلمة الي هداية النور. فارفع فيها الخشب وجرّد السيف فيها وتقرب بأمرها الي الله [٣]

وحوالي ذلك الوقت عهد المهدي بالتفتيش علي الزنادقة الي موظف خاص يعرف باسم المتولي لأمر الزنادقة او صاحب الزنادقة. وتذكر الرواية أن اول من تقلد هذا المنصب الجديد هو عمر الكلواذاني [٤] الذي توفي سنة ١٦٨، فولي مكانه محمد بن عيسى بن حمدويه الذي كان غنيفا "فقتل عن الزنادقة خلقا كثيرا" [٥].

-
- (١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٥٨.
 - (٢) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٩.
 - (٣) نفس المصدر، ص ٨١.
 - (٤) ابن الاثير، ج ٥، ص ٦٩.
 - (٥) ابن الاثير، ج ٥، ص ٦٣.

ولاشك في أن تهمة الزندقة هذه كانت تحقق للخليفة ولعماله هذين في وقت واحد اول هذه الهذين هو التخلص من الأعداء السياسيين والثاني كسب حب الشعب . وهناك نصوص نستشف منها ذلك فعندما يود الخليفة التخلص من وزيره برميّه بالزندقة وتذكر الرواية ان المهدي عندما تجهز لغزو الروم في سنة ١٦٣هـ، أرسل وهو بحلب - فجمع من يتلك الناحية من الزنادقة فجمعوا فقتلهم وقطع كتبهم بالسكاكين [١٦] .

ونهج خلفاء المهدي نفس السياسة فوجهوا تهمة الزندقة الي كل من ارادوا التخلص منه بل والي كل اصحاب الآراء التي لا ترضي الخليفة .

اما عهد المهدي فهو عهد ازدهار ورخاء . وقد قصد بابه الشعراء فآكرمهم واغنى عليهم . ويرجع الفضل الي المهدي في انشاء شبكة من الطرق وكذلك تحسين نظام البريد . وعلي ايام المهدي غدت مدينة بغداد المحطة الرئيسية لتجارة الهند، ويفضل اهتمام الخليفة ازدهرت الصناعة واهتم المهدي اهتماما خاصة كما تقول النصوص بالحرمين، فأمر ببناء المحطات للقوافل علي طول الطريق الي مكة، وأمر ببناء المصانع «الصهاريج» لآخزن المياه، وحفر الآبار، وتلد هذا العمل لموظف خاص أطلق عليه "صاحب المصانع" [٢] . كما أمر المهدي كما تقول الرواية في سنة ١٦٧هـ باقامة البريد بين مكة

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٥هـ، ص ٦٣٠ .

(٢) انظر، ابن الاثير، ٥٥هـ، ص ٦٠، ص ٦٤ حيث يقول الرواية ان المهدي سار للحج، فاما بلغ العقبة وروى قلة الماء خاف ولحق الناس عطش شديد حتي كادوا يهلكون، وغضب المهدي علي يقطين لانه صاحب المصانع .

والمدينة وكذلك بينهما وبين اليمن " ولم يكن هناك بريد قبل ذلك" [١] وعلي ايامه جددت كسوة الكعبة، كما أمر بالزيادة في المسجد الحرام ومسجد النبي صلى الله عليه وسلم [سنة ١٦٧هـ] فدخلت فيه دور كثيرة .

وعلي عهده ايضا تم بناء مسجد الرصافة وسورها وخندقها، كما زاد في مسجدي البصرة والموصل. [٢]

وتنسب اليه النصوص انه وضع في سنة ١٦٢هـ ديوان الازمة كما "اجري علي المجلمين وأهل السجون الازراق في جميع الاقالق" [٣] .

السياسة نحو بيزنطة:

وكانت سياسة المهدي ازاء بيزنطة، نفس السياسة التقليدية للدولة العربية الاسلامية، وينسب للمهدي تجهيز حملات قوية ضد بيزنطة ولكنها لم تحرز انتصارات حاسمة .

ففي سنة ١٦٣هـ تذكر الرواية أن المهدي تجهز بنفسه وأعد عدة عظيمة وجمع الأجناد من خراسان وغيرها، وخرج علي رأس قوات كبيرة، وكان بصحبته ابنه هرون «الرشيد» بينما استخلف علي بغداد

(١) انظر، ابن الاثير، ص ٦٨.

(٢) ابن الاثير، ٥٣ ص ٥٧، ٦٩ ص.

(٣) ابن الاثير، ٥٣ ص ٦٩.

ابنه موسي «الهادي»، وسار الي الموصل الجزيرة ومن هناك عبر
الفرات الي حلب، ثم رافق ابنه هرون حتي جاز الدرب «أي الممر»
المهدي الي ارض الروم، وهناك ودعه وعاد ادراجه ليزوربيت
المقدس [١] .

وسار الرشيد بأرض العدو وكان بصحبته عدد من كبار القواد
منهم عيسي بن موسي والحسن بن قحطبة، كما كانت امانة الحملة من
امور العساكر والنفقات والكتابة موكولة الي يحيي بن خالد الذي كان
كاتب الرشيد واغلب الظن ان هذه الحملة لم تأت بنتائج كبيرة وذلك
انها تمكنت من فتح احد الحصون فقط بعد حصار استمر أكثر من
شهر، ولي سنة ١٦٤ هـ أي السنة التالية ردت بيزنطة بأن تقدم
البطريق ميخائيل وتحدي الصائفة الاسلامية التي اضطرت الي
الانسحاب وعادت مما اثار سخط المهدي علي قائد الصائفة حتي انه
رغب في قتله [٢] .

وترتب علي ذلك انه في سنة ١٦٥ هـ سار المهدي ابنه هرون
«الرشيد» علي رأس حملة عظيمة بلغت حوالي «٩٥ ألف رجل كما
تقول الرواية» [٣] والظاهر انها لاقت نجاحا اذ أن القائد البيزنطي
اضطر الي الانسحاب امام هرون الذي توغل هو والخرسانية في أرض

(١) نفس المصدر، ص ٦٣ .

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٤ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٥ .

الروم الي أن وصلوا الي خليج البوسفور . وخافت ايرين «أمرأة اليون
كما يقول بن الاثير» الوصية علي ابنها قسطنطين السادس واضطرت
الي عقد الصلح او الهدنة لمدة ثلاث سنوات علي ان تدفع الجزية
السوية ، وسينقض البيزنطيون هذه الهدنة قبل حلول اجلها وذلك في
أواخر سنة ١٦٨هـ أي قبل وفاة المهدي [١] .

أما عن موقف المهدي ازاء المغرب والاندلس فسراه بتفصيل
فيما بعد اما من جهة المشرق فتقول النصوص أن المهدي أهتم
بالمشرق حتي بلاد الهند وذلك انه ارسل حملة بحرية الي هذه البلاد
١٦٩هـ وكانت هذه الحملة تحوي كثيرا من الجند النظامي
والمطوعة ، وهاجمت هذه الحملة احدي المدن الساحلية الهندية ،
وخربت معبد المدينة البوذي "البد" واخذت المدينة ، وعاد المسلمون
محملين بالأسري والمغانم ولكن الحملة انتهت نهاية اليمة قرب ساحل
فارس اذ عصفت بها الرياح فتكسرت معظم المراكب [٢] .

موت الهدي:

وفي سنة ١٦٩ هـ مات المهدي، بعد خلافه دامت عشر سنين،
وترك الخلافة لابنه موسي الذي تلقب بالهادي [٣]

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٦٥ .

(٢) نفس المصدر السابق، ص ٥٥ .

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٧١ .

الفصل السابع

خلافه الهادى

خلافة الهادي

١٦٩ - ١٧٠ هـ

ببيع لموسي «الهادي» بالخلافة، في بغداد في نفس اليوم الذي مات فيه المهدي وكان مقيماً بحرجان، يحارب أهل طبرستان وكتب الرشيد إلى الأفاق بوفاة المهدي وأخذ البيعة للهادي [١] ونستشف من الروايات قيام نزاع خفي بين ابني المهدي وهما: موسي «الهادي» الذي تنازل له عيسى بن موسي «الذي مات سنة ١٦٧ هـ» [٢] عن ولاية العهد، وهارون الرشيد، الذي أخذ له البيعة كولي ثان للعهد في سنة ١٦٦ هـ [٣] والذي كانت أمه الخيزران تهتم بشئون الحكم منذ عهد زوجها المهدي وأغلب الظن أنه مما ساعد علي دقة الموقف أن المهدي اشرك الأخوين في الحكم علي أيامه فعهد بمشرق الدولة إلي ولي العهد موسي كما عهد بمغربها إلي ولي العهد الثاني هارون وكان لكل منهما ديوانه الخاص. ففي سنة ١٦٣ هـ ولي المهدي هارون الرشيد المغرب كله من الأنبار حتي الفريقية، وأضاف إلي ذلك الأرييجان وأرمينية وجعل لهارون كاتب علي الخراج هو ثابت بن موسي، وعلي ديوان رسائله يحيي بن خالد بن برمك. وزاد في حرج الموقف أن المهدي كما تقول الروايات مال في آخر أيامه إلي عزل ابنه موسي الهادي والبيعة للرشيد بولاية العهد وتقديمه عليه، ويقال أن المهدي مات وهو خارج للهادي وهو بمنطقة جرجان ليخلعه بعد أن بعث إليه في القدوم عليه لهذا الغرض وامتنع الهادي ولهذا تحاول بعض الروايات أن تفسر موت المهدي فتقول أنه لم يمت

(١) ابن الأثير، ح ١٥٤، ص ٧٣-٧٤.

(٢) ابن الأثير، ح ١٥٤، ص ٦٩.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٦٦.

ميتة طبيعية وانه مات في حالة صيد اومات مسموما [١] .

ولن تطول خلافة الهادي اكثر من سنة وثلاثة أشهر أرقتة «شغلته» فيها مسألي ولاية العهد، وذلك أن الهادي شعر بخطر أخيه هاروق الذي كانت تؤيده أمه «الخيزران» وكانت تتدخل في شئون الحكم، فعمل علي الحد من سلطانها كما حاول أن يحمل الرشيد علي التنازل عن ولاية العهد وبدأ يتخذ اجراءات مشبدة ضد أخيه، وسلبه امتيازاته كولي للعهد فالنص يقول: "امر الهادي - ان لايسار بين يدي هرون بالحربة فاجتنبه الناس وتركوا السلام عليه [٢] .

ونستبين من النصوص أن الرشيد كان مستعدا للتنازل عن ولاية العهد لابن أخيه جعفر وربما تم ذلك لولا صغر سن ابن الهادي ونصح يحيى بن خالد بن برمك للرشيد بعدم الاستجابة لطلب أخيه الخليفة، وعرف الهادي تاثير يحيى علي الرشيد، فبعث اليه وتهدهه ورماه بالكفر" ولكن ابن برمك تمكن من اقناع الخليفة بترك هذه المسألة بعض الوقت، ونصحه بالا يحمل الناس علي نكت الايمان اي حث الايمان أي تحللهم من البيعة وبين له ان ابنه جعفر لم يزل صغيرا وسأله "أظن الناس يسلمون الخلافة لجعفر - وهو لم يبلغ الحنث - أو يرضون به لصلاتهم وحجهم وغزو" ثم رغبة في أن يكون ابنه ولي العهد الثاني .

(١) ابن الاثير ج ٥ ، ص ١٧١ .

(٢) انظر ابن الاثير الكامل ج ٥ ، ص ١٧١ (من الحد من شؤنا امه) .

ثورة الحسين بن علي بالمدينة

أما عن العلويين، فإنهم قاموا بالثورة في المدينة ومكة وستفشل هذه الثورة في الحجاز كما فشلت سابقتها من قبل، ولكنها ستنتج في بلاد المغرب الأقصى وتزعج هذه الثورة الحسين بن علي بن الحسن بن الحسن بن علي أبي طالب المعروف بقتيل فخ عند مكة .

أما عن سبب اشتعال الثورة فهو ان والي المدينة وهو حفيد عمر بن الخطاب اسمه عمر بن عبد العزيز بن- عبد الله بن عمر بن الخطاب - اقام الحد علي احد العلويين الذي يعرف باسم الزفت وذلك لشربه النبيذ . واحتج العلوي وهو الحسين بن علي علي عقاب المتهمين وقال للوالي ان اهل العراق لا يرون به بأساً، وكفل الحسين بن علي الثائر ابا الزفت «أي ضمه» ولكن ابا الزفت تغيب عن العرض الذي كان يجب عليه ان يحضره وكان في هذا حرج للضامن، الذي لم يجد سوي الثورة ردا علي رهانات الوالي وجاء العلويون صباحا الي المسجد فبايعوا الحسين علي كتاب الله وسنه نبيه للمرتضي من آل محمد* وتمكن الثوار من هزيمة الوالي ونهبوا بيت المال، الا ان اهل المدينة لم يجيبوهم فخرجوا بعد احد عشر يوما . وذهب الحسين الي مكة وتمكن من ضم كثير من العبيد حوله وذلك بعد ان اعلن تحريرهم . وكان في مكة كثير العباسيين، وكان معهم الهوالي والسلاح فاجتمع العباسيون "بدي طوي" وقادهم محمد بن سليمان بن علي والي البصرة وقاتلوا العلويين وذمكناهم من الطاق

الهزيمة بهم، وقتل المطالب بالخلافة وتمكن كثير من الثوار من النجاة باختلاطهم بالحجاج. وتمكن أحد العلويين وهواد ادريس بن عبدالله من الهرب الي مصر وهناك حملة صاحب البريد الذي كان يتشبح الي بلاد المغرب حيث وصل الي مدينة "وليلي" في منطقة طنجة وهناك استجاب له بزعير اورية وكون دوله الادراسه وبني مدينة فاس التي ستصبح عاصمة المغرب الاقصى [١].

الخوارج

اما عن الخوارج فانهم ثاروا بالجزيرة وهزموا الوالي قرب الموصل ولم يقض عليهم الا بعد ان قتل زعيمهم غيله [٢].

الزنادقة:

اما عن الزنادقة فتقول الرواية ان المهدي اوصي الهادي بمحاربتهم دون شفقة وانه كان قد أمر باعداد الف جلع لصلبهم ولكن الموت لم يمهله [٣] - اذ خرج الي الموصل وعاد منها شديد المرض، والظاهر انه لم يمت ميتة طبيعية بسبب معاودته التفكير في خلق اخيه هرون من ولاية العهد. وهناك روايات يستشف منها أن الخيزران هي التي دبرت موته [٤].

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل ج ٥٥، ص ٧٤-٧٦.

(٢) ابن الاثير، ج ٥٥، ص ٧٧.

(٣) ابن الاثير، الكامل، ج ٥٥، ص ٨١.

(٤) نفس المصدر السابق، ص ٧٨-٧٩.

الفصل الثامن

خلافة الرشيد

خلافة الرشيد

١٧٠ - ١٩٣هـ

ببيع لهرن الرشيد بالخلافة في الليلة التي مات فيها الهادي.
واستمر حكم هرون الرشيد حوالي ٢٣ عاما شهدت الدولة العباسية
خلالها اوج مجدها وعظمتها.

وفي السنوات الأولى من حكم هارون تركت أمور الدولة لوزير
الخلافة يحيى بن خالد. ويحيى هذا كان واقعا تحت تأثير الخيزران
ام الخلافة التي ماتت في اواخر سنة ١٧٣هـ.

وعلى ايام المهدي قام يحيى بن خالد بن برمك بولاية اد ربيعان
ثم أنه استدعي الي بغداد، وعندما عين الرشيد واليا للولايات
الغربية من الدولة بالاضافة الي ارمينية وادريجان كان يحيى بن خالد
علي ديوانه وظل يحيى مخلصا للرشيد فنصح به عدم التنازل عن ولاية
العهد عندما حاول الهادي ان يرغمه علي ذلك وربما لقي يحيى بعض
العنت في هذا السبيل فتقول بعض الروايات انه سجن بعض الوقت
وان الهادي كان يفكر في قتله وقد اعترف له الرشيد بوفاته واخرجه
من الحبس واستوزوه، وادار يحيى مقاليد الأمور في الدولة
بالاشتراك مع ابدية الفضل وجعفر من ١٧٠-١٨٧هـ.

وبينما كان الفضل يلي الولايات الشرقية تمكن من تحقيق أعمال

عسكرية كبيرة فاخضع الديلم، وغزا ما وراء النهر وبلغ نفوذه هناك حتى منطقة اشروسنة وكذلك حقق الفضل أعمالاً سلمية هامة غالية ينسب بناء المساجد والرباطات الكثيرة في اقليم خراسان.

وفي نفس الوقت كان أخوه جعفر ببغداد مقرباً الى الخليفة تاركاً الولايات التي كانت تابعة له لنوابه وكان يستفيد من غلاتها فقط. ولكن صداقته للخليفة انتهت. وهناك عدة روايات تبين الاسباب التي ادت الى حلق الخليفة عليه وأخرها قصة حريم فتقول النصوص أنه لم يحترم الزواج السوري الذي كان عقده الخليفة له علي أغته العباسية وذلك لكي يتمتع الرشيد بمحضرها [١].

ومل سنة ١٧٣هـ عند وفاة ام الخليفة أعطي جعفر من حمل الخاتم الذي كان يحمله حتي ذلك الوقت، وعهد به وكذلك ببعض شئون الدولة الى الفضل بن الربيع [٢].

وفي سنة ١٨٧ هـ عندما قفل الرشيد من اداء فريضة الحج وكان حريصاً علي القيام بها باستمرار قتل جعفر في اول صفر، وكان جعفر يبلغ من العمر حوالي ٣٧ عاماً وعرض رأسه علي الجسر الأوسط ببغداد كما عرض نصفي جسده علي الجسرين الآخرين حتي أمر بحرقهما فيما بعد سنة ١٨٩هـ.

أما عن والده وأخوته فإنه قبض عليهم وصودرت أموالهم

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ٨٢، ص ٩٩.

(٢) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١١٤.

وأموالهم وسينتهي الأمر بيحيي في أن يموت محبوساً سنة ١٩٠هـ له من العمر ٧٠ عاماً وسيتوفي الفضل في سنة ١٩٣هـ له من العمر ٤٦ عاماً [١]

لم تنقطع الاضطرابات الداخلية في الدولة علي أيام هارون الرشيد كما نستبين من الروايات فقد سرت هذه الاضطرابات في دمشق والموصل والجزيرة وحتى مصر أيضاً واشترك فيها العلويون والخوارج معاً.

الفتنة بدمشق:

ففي سنة ١٧٦ هـ قامت الفتنة في دمشق بين العصبيتين المصرية واليمينية وساد البلاد الفوضى نحو سنتين ووقع بين العصبيتين معارك سقط فيها كثير من الناس، ورغم عزل والي دمشق عبد الصمد بن علي واستعمال عامل جديد هو ابراهيم بن صالح بن علي فان الفتنة لم تخمد بل زادها الوالي الجديد تأججاً اذ انه وقف الي جانب اليمينية ضد اعدائهم وانتصر القيسية علي اليمينية ونهبوا مواضعهم قرب دمشق بل واستولوا علي دمشق وعدند اضطرت اليمينية الي طلب الامان، وأراد ابن الوالي ان ينتقم من الثوار فكان ذلك نليراً بتجدد المعارك، ولم يقف القتال الا عند وصول قائد الرشيد الذي قبلت القيسية طاعته.

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ج ٥ ص ١٢٤ ص ١٢٨-١٢٩.

ولم يستمر الهدوء طويلاً إذ يوجد في حوليات سنة ١٨٠ هـ ذكر لمسير جعفر بن يحيى بن خالد الي الشام بنفسه ومعه القواد والعساكر والسلاح والأموال وذلك "للعصبة التي بها" فتمكن من تسكين الفتنة واطفاً الشائرة وعاد الناس الي الأمن والسكون [١]

الفتنة بالموصل:

وشهدت الموصل الكثير من الثورات منها ثورة سنة ١٧٧ هـ التي تزعمها رجل من الازد تمكن من السيطرة علي الناحية وحيبي خراجها مدة سنتين حتي خرج اليه الرشيد بنفسه، وهدم سور المدينة وأقسم ليقتلن من لقي من أهلها لولا أن أفتاه القاضي أبو يوسف ومنعه من ذلك ولم يتمكن الرشيد من القبض علي الثائر الذي فر الي ارمينية واستعمل الرشيد علي الرضاة وال أساء فهم السيرة وظلمهم وطالبهم بغراج سنين مضت فهاجر أكثر اهل البلد عنها [٢] .

خراسان

أما عن بلاد خراسان فانه الي جانب الثورات الخارجية التي عرفتها شهدت أيضا حدوث اضطرابات وفتن منها ثورة قام بها رجل يعرف بابن الخصيب وذلك بمدينة نسا في سنة ١٨٣ هـ واتعب هذا الرجل والي خراسان وهو علي بن عيسى بن ماهان تعباً شديداً وذلك

(١) نفس المصدر، ص ٩١-٩٣، ص ١٠٣-

(٢) نفس المصدر، ص ٩٦، ص ١٠٣ .

انه بعد أن طلب الامان عاد ونقض وغدر بابن الوالي وحلب علي
ابيورد وطوس ونيسابور وحاصر مدينة مرو ولكنه عجز عن
اخذها واضطر عيسي بن ماهان الي المسير اليه في سنة ١٨٦هـ الي
نسا "فقتله وسبي نساءه وذرايه واستقامت خراسان" [٨]

والظاهر أن الخليفة - كما نستبين من النصوص - كان مسئولاً
الي حد كبير عن اضطراب بلاد خراسان وذلك ان الوالي علي بن
عيسي استغل البلاد استغلالاً سيئاً وكتب كبراء أهل البلد واشرافها
الي الرشيد في سنة ١٨٩هـ يشكون سوء سيرة ابن ماهان وظلمه
واستخفافه بهم وأخذ أموالهم "سار الرشيد الي الري لينظر في أمر
خلع الوالي ولكن الأخير اتاه من خراسان وأهدي له الهدايا الكثيرة
والأموال العظيمة وأهدي لجميع من معه من أهل بيته وولده وكتابه
وقواده من الطرف والجواهر وغير ذلك وانتهى الأمر بطبيعة الحال
بأن رده الخليفة الي ولايته من جديد" [٩]

ولكنه في سنة ١٩٠ هـ اضطرب مشرق الدولة من جديد وذلك
عندما ظهر [شار] رافع بن الليث بن نصر بن سيار بسمرقند من أرض
ماوراء النهر وذلك لأسباب تتعلق بالأخلاق وجلد رافع وقيد وطيف
به علي حمار ليكون غطة لغيره فثار واستطاع أن يستولي علي
المدينة وقتل عاملها وهزم جيشا ارسله اليه عيسي بن علي بن ماهان
وغلب رافع علي بقية ما وراء النهر ثم انه بعد ذلك استمال الترك
المقيمين في هذه النواحي وتمكن هؤلاء من قتل عيسي بن علي

(١) انظر، ابن الاثير، ج ٥، ص ١٠٢، ص ١٠٨، ص ١١٠، ص ١١٣.

(٢) نلس المصدر، ص ١٦٠-١٦١.

وعندما سار علي بن عيسي الي مرو ليحميها من رافع عزله الرشيد
كما نستبين من النصوص طمعا في امواله واستعمل بدلا منه هزيمة
بن اعين وقبض ابن اعين علي الوالي المعزول واخذ امواله بأمر من
الرشيد . وجد هزيمة في حرب رافع فحاصره بسمرقند واستعان بظاهر
بن الحسين القائد المشهور في قتاله واهتم الخليفة بأمر رافع واشفق
من تزايد خطره حتي انه عزم علي الخروج اليه بنفسه . ولكن الرشيد
سيهوت في الطريق وذلك قبل القضاء علي ثورة رافع بن الليث التي
ستستمر حتي سنة ١٩٥هـ [١] .

أما عن الخوارج فان ثوراتهم لم تنقطع خاصة في اقليم الجزيرة،
وكذلك في خراسان .

ففي اول عهد الرشيد قام احدهم بالجزيرة وهزم الوالي وتقدم
نحو الموصل وهزم حامية المدينة ولم تتمكن جيوش الخليفة من
النيل منه الا بعد عناء شديد .

وفي سنة ١٧٥هـ خرج احد الموالي من القيسية وهو حصن
الخارجي بخراسان وهزم والي سجستان، واستولي علي عدد من المدن
واستطاع كما تقول الروايات وهو في قلة من قواته لم تتجاوز
الستمائة رجل ان يهزم الجيش الذي سيره والي خراسان وكان يبلغ
اثني عشر الفا .

(١) ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٢٦ .

وظل الثائر بيعث في البلاد فسادا حتي قتل سنة
١٧٧هـ [١] .

واثناء ثورة الحصين، قام خارجي آخر بالجزيرة وقدم الموصل
وتمكن من هزيمة عسكرها وذلك قبل ان يقتل [٢] .

أما الثورة الخارجية التي ازعجت الخليفة فهي ثورة الوليد بن
طريف التغلبي الذي خرج بالجزيرة سنة ١٧٨هـ وفتك بالسلطة
العباسية في نصيبين وقوي امره فدخل ارمينية واذريجان وارض
الجزيرة وعاث فيهم واتعب قائد الرشيد يزيد بن مزيد الشيباني وبعد
مقتل هذا الثائر قام الرشيد باداء العمرة شكرا لله [٣]

وفي سنة ١٧٩هـ خرج بغراسان ثائر خارجي اخر هو حمزة بن
اترك السجستاني الذي دوخ جيوش علي بن عيسى بن ماهان، حتي ان
الوالي "قصد القرى التي كان أهلها يعينون حمزة فاحرقها وقتل من
فيها" وتورد النصوص ان هذا الثائر قام باعمال فظيعة منها انه كان
يقتل الغلمان بالمكاتبه كما كان يقتل معلمهم . واضطر طاهر بن
الحسين عامل ابن ماهان علي بوشنج الي القيام باعمال رهيبة ضد
الخوارج المحاربين منهم والقاعدين غير المحاربين ومن لهم ديوان ومن
لا ديوان لهم تقول الروايات انه كان يشد الرجل منهم في شجرتين
يجمعهما ثم يرسلهما فتأخذ كل شجرة نصفه وذلك حتي طلبوا الامان
في سنة ١٨٥هـ .

(١) ابن الاثير، الكامل، ٥٥٣، ص ٨٩٠

(٢) ابن الاثير، الكامل، ٥٥٣، ص ٩٤٠

(٣) ابن الاثير، الكامل، ٥٥٣، ص ٩٧٠، ١٠١

الفتنة بمصر:

هذه الاضطرابات التي سرت في أرجاء الدولة بلغت ارض مصر
الامنة المطمئنة بدورها فقام في سنة ١٧٨هـ أهل الحوف وهم من
قيس قضاة بالثورة وقاتلوا عاملهم الذي استنجد بعامل فلسطين.
وبعد أن أخذت الثورة امر الخليفة بعزل والي مصر وعين آخر
مكانه.

الشيعة:

أما عن العلويين «الشيعة» فكان لهم نشاطهم المعادي ايضا ولو
أن نشاطهم لم يصل الي درجة خطيرة كما هو الحال بالنسبة
للخوارج. ففي أول عهد الرشيد أطمأن العلويين وظهر من كان
مختفيا منهم مثل ابراهيم بن اسماعيل المعروف بطباطبا، وعلي بن
الحسين بن ابراهيم بن عبدالله بن الحسين. وفي سنة ١٧١ هـ
تذكر النصوص أن الرشيد أمر باخراج الطالبين من بغداد الي مدينة
النبي صلي الله عليه وسلم ماعدا العباس بن الحسن بن عبدالله بن
عباس [١].

ظهور يحيى بن عبدالله بالديلم

قام يحيى بن عبدالله بن الحسن بالثورة علي الرئيد في بغداد

(١) انظر: ابن الاثير، البداية، ٥٥٢، ٥٨٣، ٥٨٥، ٥٨٥.

الديلم في سنة ١٧٦هـ وازعج هارون، فندب لقتاله الفضل بن يحيى، ومعه مناديد القواد، وولا، جرجان وطبرستان والري وغيرها. ولجأ الفضل الي السياسة- فكاتب يحيى ولطفه، كما اتصل بصاحب الديلم وبذل له الاموال وأخيرا استجاب يحيى للملح علي أن يكتب له الرشيد امانا بخطة وأن يشهد علي هذا الامان. "القضاة والفقهاء وجلة بني هاشم ومشايخهم" فاجابه الرشيد الي ذلك، وعظمت منزلة الفضل عنده، وقدم الفضل معه يحيى بن عبدالله بغداد فاستقبله الرشيد استقبالا حسنا، الا أن أمانة ووعدده لم يكونا بأهم من امان أسلافه وذلك انه لم يحترم ذلك الامان وأمر بحبس العلوي. وتمكن الرشيد من اعطاء نقضه العهد صفة الشرعية فأنتاه بعض القضاة بأن هذا الامان منتقض من وجوه كثيرة وظل يحيى في سجن الرشيد حتي وافته الأجل [١].

السياسة الخارجية

الصراع ضد بيزنطة

فيما يتعلق بالسياسة الخارجية في الدولة فقد استمر الصراع ضد بيزنطة طوال عهد الرشيد وزادت حدته بسبب اهتمام الرشيد اهتماما خاصا بالجهاد وذلك منذ ايام والده المهدي الذي كان يعهد اليه بقيادة الحملات في بلاد الروم.

(١) نفس المصدر السابق، ص ٩٠.

وبدا الرشيد خلافته في سنة ١٧٠ هـ باجراء اصلاح. رئيسي علي الحدود البيزنطية وذلك أنه اصلح الثخور جميعها وشحنها بالحاميات من الخرسانية وجعل من هذه المنطقة ولاية مستقلة واسماها " العواصم" وكانت الموانئ ووفي بعض الاحيان الشواتي تسير الي ارض الروم بانتظام وكان الاسطول يساعد في البحر في كثير من الاحيان. وفي سنة ١٨١ هـ سار الرشيد بنفسه علي رأس الجيوش وافتح عددا من الحصون. وتم الاتفاق بين البيزنطيين والمسلمين علي فداء الاسري، وتولي ذلك من قبل المسلمين القاسم بن الرشيد ومعه الاعيان من أهل الثغور والعلماء وتم التبادل قرب طرسوس وكان عدد الاسري المتبادلين ثلاثة الاف وسبعمائة [١].

وفي سنة ١٨٧ هـ توغل القاسم بن الرشيد في أرض الروم وحاصر عددا من الحصون حتي اضطر البيزنطيون الي شراء انشحاب المسلمين عن طريق دفع الجزية وتحرير اكثر من ثلاثمائة وعشرين اسير مسلم وفي هذه الاثناء قامت ثورة في بلاط بيزنطة كان من نتائجها خلع ايرين «اريني» واعتلاء وزير ماليتها نقفور العرش. وعمل الامبراطور الجديد علي نهج سياسة مناهضة الخلافة ورفض الجزية واستلزم قيام حملة قادها الرشيد بنفسه فحاصر مدينة هرقله ونشر الخراب حتي اضطر نقفور الي دفع الجزية الا انه نقض الاتفاق بعد رجوع الرشيد مباشرة فاضطر الخليفة الي الرجوع الي ارض الروم اثناء الشتاء رغم قسوة البرد.

(١) انظر، ابن الاثير، الكامل، ج ٥، ص ١٠٥-١٠٦.

واشتدت الحرب بعد ذلك وتذكر النصوص انه قتل في الحرب من الروم في سنة ١٨٨هـ اربعون الفا وسبعمئة . ولكن هذه المصافة لم تكن لها نتيجة ملموسة [١] .

وفي سنة ١٩٠هـ استطاع الرشيد الانتقام لغدر نقفور فساد علي رأس جيش كبير تماثل النصوص في عدده فتقول انه زاد علي مائة الف وخمسة وثلاثين الفا "سوي الاتباع والمتطوعة ومن ديوان له" وحاصر هرقله حصارا شديدا طوال شهر حتي سقطت وسارت طوابير المسلمين في مختلف انحاء آسيا الصغرى تخرب وتذهب وتشر الدعر في كل مكان . وانتهى الأمر بخضوع نقفور واضطر الي دفع الجزية ولكن هذه النتيجة كانت مؤقتة . ولم تكن الحملات الاسلامية التي تلت ذلك ناجحة تماما . اذ تذكر النصوص ان الروم استطاعوا ان يقفوا امام المسلمين ان يزعموهم في بعض الاحيان الي الانسحاب ، وعلي ذلك لم تستطع الدولة ان تحقق انتصارات حاسمة وطال الصراع لمدة طويلة دون ان يوتي بثمرة بالنسبة لأي من الطرفين المتنازعين [٢] .

ومات الرشيد في مدينة طوس سنة ١٩٣هـ وهو متوجه لاجماد الثورة التي قام بها حفيد نصر بن سيار في المشرق . وترك الخلافة محل نزاع بين ابنة الامين والمأمون ، وقد اشرك الرشيد ابنة معه في الحكم وقد بدأ الرشيد بأن عهد الي ابنه محمد بن زبيدة ولقبه

(١) نفس المصدر ، ص ١٢٠ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ، ٥٥٣ هـ ، ص ١٢٦ .

بالامين وكان طفلاً صغيراً بلغ من العمر حوالي خمس سنوات . ثم
شعر بالغبن بالنسبة لابنه عبدالله وكان من أم ولد خرسانية ، فعهد له
سنة ١٨٢ هـ بولاية العهد بعد الامين واشركه في الحكم فولاه
مشرق الدولة - أي خراسان ومايتصل بها الي همدان ولقبه المامون
وعهد بتدبير شئونه الي جعفر بن يحيى بن خالد ولم يكتف الرشيد
بهذا بل بايع لابنه الثالث وهو القاسم بولاية العهد بعد المامون
ولقبه بالمؤتمن ولكنه جعل للمأمون حرية التصرف في تشييته
اوخلعه . وكان للدين الثالث ولايته هو الآخر في الجزيرة والشعور
والعوامم . [٦] .

وفي سنة ١٨٦ هـ عندما سار الرشيد الي مكة لاداء فريضة
الحج امطحب معه أبناءه ، وفي مكة دعا الفقهاء والقضاة وكبار رجال
الدولة وكتب كتاباً أشهد فيه علي الامين بالوفاء لله للمأمون كما
كتب كتاباً اخر اشهد فيه علي المأمون الوفاء للامين وعلق الكتابين
في الكعبة [٢] ولكن عندما توفي الرشيد في سنة ١٩٣ هـ قرب
طوس ال عسكره جميعاً الي المامون الذي كان مصاحباً له .

(١) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

(٢) نفس المصدر السابق ، ص ١١٣ .

الفصل التاسع

الصراع بين الأمين والمأمون

خلافة الامين

«١٩٨ - ١٩٣»

«٨٠٨ - ٨١٢»

الصراع بين الامين والمامون

المقدمات

يموت الرشيد أو شكت الدولة العباسية ان تنقسم الي قسمين ينازع كل منهما الآخر: الجزء الغربي حيث مدينة الخلفاء ، بغداد، وعلي رأسه الامين والجزء الشرقي اي خراسان والولايات الشرقية حيث يقيم المأمون بمدينة مرو. ويعود الفضل في هذا التقسيم الي الرشيدكما رأينا بل ولربما تحقق الانفصال فعلا بين مشرق الدولة ومغربها عقب وفاته مباشرة ولو ان كلا من الابنين احترم وصية ابيه . والظاهر ان هذا الانفصال كان لابد منه اذا ان المشرق الايراني كانت له امانيه واماله السياسية التي يعمل علي تحقيقها، والتي ظهرت جليا بقيام الدولة العباسية نفسها . وسنري فعلا ان المشرق الايراني سيحقق استقلاله فعلا - ان لم يكن شكلا علي عهد الطاهرين وعلي ايام المأمون .

ويفهم من ذلك ان مسألة الصراع بين ابناء الرشيد لن تأخذ شكل نزاع عائلي من اجل وراثة العرش بل سيكون لها شكل النزاع الشعبي او العصبي بين العرب والفرس . وعلي ذلك فلن يكون للمطالبين بالعلانية رأي كبير في سير الحوادث هذا علي ان ظهر المأمون، وغلبته علي الامين، أن هو الا انتصار للمشرق الايراني علي العرب العربي . يعيد الي الاذهان قيام امر العباسيين علي اكتاف

الخراسانية وزحف هؤلاء نحو الغرب وتغلبهم علي العالم العربي الشامي، أحس بذلك وزير المأمون الفضل بن سهل الايراني الاصل، الحنثي، الاسلام «منذ خمس سنوات» فكان يشبه أصحابه بنقباء الحركة العباسية الاوني(١) كان يقول للتميمي نعيمك مقام موسي بن كعب وللربيعي نعيمك مقام ابي داود، وخالد بن ابراهيم نعيمك مقام قحطبة .

بدأ الاختلاف بين الامين الذي له بالخلافة وبين المأمون عندما رفض الامين - بصفته صاحب السلطان - الاعتراف بما اوصي به الرشيد، من ان يؤول عسكره وكل مافيهِ من الاموال والامتعة والعدد الي المأمون . وعمل علي ان يعود هذا الجيس بكل اثقاله اليه، بفضل الفضل بن الربيع الذي حضر وفاة الرشيد، وغيره من القواد الذين ارسل اليهم بتعليماته . ولكي يخفف من روع المأمون كتب ايضا يهون عليه من الامر . ويأمره بترك الجزع وأخذ البيعة لهما، وكذلك لأخيها القاسم «المؤتمن» .

وقام ابن الربيع بدعوة الجند الي الانفضاض من حول المأمون والعودة الي بغداد . فعلا اجابه كثير منهم رغم ما قام به قواد المأمون علي رأسهم ابن سهل من تذكير الناس ببيعة المأمون وسؤالهم الوفاء وتحذيرهم الحث «قال ابن الربيع انما أنا واحد من الجند» نتج عن ذلك ان اشفق المأمون عن حرج الموقف ولكن ابن سهل طمأنه ورسم له السياسة الواجب اتباعها، والتي تتلخص اولا

(١) انظر ٥، ٩، ١٠، سعد زغلول، التاريخ العباسي، والاندلسي، ص ١١١ .

في الاعتماد بخراسان، اذ ان الخراسانية اخواله «المأمون» وهم بحكم قرابتهم هذه لن ينقضوا البيعة التي له في اعناقهم «ثانيا انتهاج سياسة دينية رزينة بدعوة الفقهاء الي الحق والعمل به واحياء السنن». ثم الاهتمام شخصا بأمورالدولة ورد المظلم واظهار التقشف والزهد. وبدأ تنفيذ هذا البرنامج بعمل موفق، وذلك انه وضع اوخفض ربع الخراج عن خراسان مما كان له وقع حسن عند أهل البلاد «قالوا بن اختنا وابن عم نبينا». كما أنه لاین الامين في نفس الوقت الذي عمل فيه علي توطيد مركزه في ولايته الشرقية، بأن كتب اليه وعظمه واهداه الهدايا.

أما عن الامين فانه من جهته لم يرض عن موقف اخيه، وعمل علي اعادة الوحدة للدولة وعلي ان يحقق لنفسه السيادة الفعلية وبدأ ذلك علي حساب الاخ الثالث، وهو القاسم «المؤتمن» الذي كان يلي الجزيرة وما يتبعها بأن نجاه عن جزء كبير من ولايته واقره علي قنشرين والعوامم فقط وكانت هذه هي الخطوة الاولى "في السنة التالية ١٩٤هـ «٨١٠م» خطا الخطوة الثانية وكان فيها تهديد مباشر للمأمون ومايمكن ان نسميه بتمهيد للانغارة علي حقوقه في وراثة العرش والخلافة. اذ امر الامين باغراء وزيره الفضل بن ربيع بالدعاء لابنه موسي. الذي كان طفلا صغيرا في خطبة الجمعة الي جانب الدعاء لأخويه.

وكان من الطبيعي ان لايسكت المأمون - تحت ضغط وزيره

الفضل ابن سهل هو ايضا - علي هذا العمل غير الودي واجاب عليه بالمثل بأن تجاهل خليفة بغداد، وقطع كل علاقة به «اسقط اسمه في الطرز ومن النخود وقطع عنه البريد» . وزاد ذلك من تأزم الموقف، اذ كشف الامين عن نواياه وارسل بعثه الي المأمون يطالبه بالحضور عنده ببغداد وكان الهدف من هذه الزيارة هو الضغط عليه للتنازل عن بعض حقوقه في الوراثة. «تقديم موسي بن الامين عليه» وربما في ولايته للمشرق [طلب اليه ان ينزل عن بعض كور خراسان وان يكون عنده صاحب البريد يكاتبه بالاخبار» .

وكان من الطبيعي أن يرفض المأمون اجابة مطلب الخليفة [١] كما لم يوافق حزبه اطلاقا علي خروجه من خراسان، هذا رغم ان الموقف السياسي للاطراف الشرقية من ولايته كان يندرج بالخطر . فاذا كان رافع بن الليث قد مال الي الاستسلام والطاعة فان غيره كان قد اعلن العصيان مثل جابغو أو جبغوية الفارلوق «علي سيحون» وخاقان التبت، وملك كابل الذي كان يستعد للاغارة علي خراسان، وملك اترار «مركز الغزو» الذي منع الضريبة .

واستطاع ابن سهل ان يدبر الامور تدييرا حسنا، وأن يظهر مقدرة سياسية فائقة. وذلك أنه بدا بأن استمات أحد افراد بعثه الامين وهو العباس بن موسي بن عيسي «حفيد عيسي بن موسي الذي خلع علي عهدي المنصور والمهدي» وعدة أمري الموسم ومواقع من مصر - فكان يكتب اليهم بالاخبار من بغداد ثم أنه شدد الحراسة

(١) كتب له المأمون «انما انا عامل من عمال امير المؤمنين وعمون من اموانه امزني الرشيد - معناه تحسكه بوصية ابيه - بلزوم الشجر ولعمري ان مقامي به اراد علي امير المؤمنين واعظم عناء للمسلمين . انظره ابن الاثير ج ٥ ص ١٣٩-١٤٠ .

علي حدود خراسان ومنع العبور الي ولايات اذربايجان للشخص المعروفين.
اما فيما يتعلق بملوك الاطراف من الوطنيين فان الفضل نصح المأمون
بارسال خطابات لجابغو والحقان يؤكد لهما سيادتهما علي بلادهما،
ويعددهما بالمساعدة ضد اعدائهما وان يرسل هدايا الي ملك كابل وأن
يعفي امير اترار من جزية عام. وفعلا نجحت هذه الاجراءات في
استتباب الامن والسلام في هذه النواحي.

خلع المأمون:

حاول الامين انفاذ الرسل لاقناع المأمون بالعدول عن موقفه
ولكنهم منعوا عند الري من حرية الاتصال باهل البلاد. حفظوا في
حال سفرهم واقامتهم من ان يخبروا أو «يستخبروا» عندك رأي
الامين ان القطيعة قد تمت وعمل علي أن يعيد توحيد الدولة عن
طريق استعمال اساليب العنف. وفي اوائل سنة ١٩٥هـ اعلن خلع
المأمون من ولاية العهد واخذ البيعة لابنه موسى بدلا منه ولقبه
«الناطق بالحق» وجعل له ديوانا من شرطة وحرس ووسائل وعهد
بإدارة شلونه وتأديبه الي علي بن عيسى بن ماهان والي خراسان
السابق ثم عهد لابنه الآخر عبد الله ولقبه «القائم بالحق» كما اعلن
عدم صلاحية النقود التي ضربها المأمون والتي لاتحمل اسم خليفة
بغداد للتداول [١].

واتبع الامين ذلك بأن ارسل الي الكعبة واتي بكتابي العهد

(١) انظر ابن الاثير، الكامل، ٥، ص ١٤٦، احداث سنة ١٩٥هـ (نظر
قسطموني خطبة المأمون، سعد لعلول، ص ١١٧).

الذين كتبهما الرشيد ومزقهما . وخرج من حيز الكلام الي حيز العمل وكلف علي بن عيسى بن ماهان القائم بأمر ولي العهد الجديد بالسير الي خراسان للقبض علي ولي العهد المخلوع وتنفيذ ما تخله من اجراءات ضده .

ولاشك في ان اختيار بن ماهان للقيام بهذه المهمة لم يكن اعتبارا موفقا فالرجل معروف بسوء السيرة في خراسان لجشعه في ابتزاز الاموال حتي اضطر الرشيد الي عزله بعد ان جمع ثروة طائلة وبعد ان كان يقاسمه في استغلاله للبلاد . والظاهر ان الاهواء الشخصية قامت بدورها في هذا الاختبار ، فابن ماهان كان يطمع في العودة الي منصبه القديم المغري . وربما اراد الامين ان يؤكد لاهل خراسان فولاة هذا الامر نكاية فيهم ، ولكن بلغ عدم التوفيق ، هذا ، حدا قيل معه ان عينا للفضل ابن سهل هو الذي اشار بانفاذه حتي يقاومه اهل خراسان .

بداية الصراع

سار علي بن عيسى علي رأس ٥٠ الف رجل ، وخرج الامين ووجوه اهل دولته لوداعه . واتجه جيش بغداد نحو الري حيث كان طاهر بن الحسين قائد المأمون يعد العدة للدفاع ويستعد للقتال وحاول علي ابن عيسى ان يستغل معرفته السابقة للبلاد والاتصال بالملوك الوطنيين واثارتهم ، هذا ولو أننا لانعرف الي اي حد نجحت

هذه الخطة رغم ما يقوله الكتاب من أن هؤلاء الملوك اجابوه الي قطع طريق خراسان . ولكن المحقق ان ابن ماهان استهان بأمر طاهر، اذ تقول النصوص بأنه لما طلب اليه اصحابه بث العيون وعمل خندق، قال : "مثل طاهر لا يستعد له" وخرج طاهر من مدينة الري في جيش قليل العدد [نسبياً ٤ الاف] حيث عسكر علي بعد قليل منها «ه فراسخ». كما حرض جنده علي القتال خالعا الامين داعيا بالخلافة للامويين . وكان الغرض هو اعطاء موقعة جيشه صفة شرعية حتي لا يخيل للجند انهم يقفون موقف الخلعيين علي صاحب الامر . واتخذ كل من الجيشين تشكيل القتال ووقعت الواحد منهما امام الاخر .

وبدا طاهر بمظاهرة سياسية بان حمل صاحب شرطته بيعة الهامون وعلقها علي رمح، ودعا علي بن عيسي الي- تقوي الله في البيعة التي اخذها ولما خرج احد اصحاب ابن ماهان عليه بالسيف اظهر شجاعة فائقة، اذ حمل عليه واخذ منه السيف بيديه وصرعه ولهذا سمي طاهر ذو اليمينين .

وفي هذه الاثناء حدثت مفاجاة سيئة بالنسبة لطاهر، وذلك ان اهل الري اغلقوا باب المدينة دون عسكرة، ولكن يظهر انه كان يتوقع مثل هذا منهم ولذلك فضل الخروج والقتال بعيدا عن المدينة فامر اصحابه بالاشتغال بمن امامهم فقط . وبدأ القتال في صالح علي بن عيسي فهزمت ميمنته ميسرة طاهر هزيمة منكرة، وعرجت ميسرته علي ميمنة طاهر فزحزحتها عن مواضعها . ولكن طاهر اظهر كفاءة

عسكرية عظيمة فلم يفت سوء الموقف في عضده، فامر اصحابه بالقيام بهجوم خاطف «حملة خارجية» علي قلب علي ابن عيسي. ويفضل ذلك الهجوم القوي تحول الموقف لصالح طاهر فانسحب جناح ابن ماهان، وكثر القتل في اصحابه وسقط هو قتيلا بضربه سهم في الميدان. ولم ينقذ المهزمين الا حلول الليل بعد ان التجأ كثيرون منهم الي معسكر طاهر بعد ان امنهم.

الزحف على بغداد

كانت هذه الواقعة فاتحة سلسلة من الانتصارات قادت طاهر من الري الي بغداد تعيد الي الدهن الحملة المظفرة التي قام بها فحطبة بن صالح من خراسان الي العراق. وتمكن طاهر بعد ذلك من هزيمة قائد الامين عبد الرحمن بن جبلة الذي ولي همدان، والذي كان يأمل ان يلي كل ما يفتحه من أرض خراسان. هزمه طاهر مرتين، حاصر مدينة همدان حتي فجر اهل المدينة، فطلب عبدالرحمن الامان وخرج عن المدينة، ولكنه كان يضرر الغدر بطاهر اذ شن عليه هجوما شديدا يائشا انتهى بقتله وهزيمة اصحابه كان هذا الرجل متعصبا للامين ضد المأمون في أول الامر فقال لايري امير المؤمنين وجهة ابداء، وبعد الاستيلاء علي همدان عمل طاهر علي تأمين ظهيرة قواته عن طريق احتلال قزوين، ولم ينتظر قائد الامين وجيشه الكثيف وصول طاهر اذ انه رأى الجلاء عن البلاد، فوضع طاهر حامية لمنع مرور أية قوات من هناك.

وبذلك خلت البلاد لطاهر فتقدم يحتل الكور والمدن حتي وصل الي قرب حلوان، حيث عسكر هناك وكان للانتصارين اللذين احرزهما طاهر اثرهما الكبير في اضعاف الروح المعنوية لدي قواد وجيوش الامين. فبعد ان بحث الفضل بن الربيع عن قائد عربي متعصب للعرب، هو اسد بن يزيد ابن مزيد، وبعد ان حرضه من اجل المحافظة علي قوة الشعب العربي [١] فشل في تسييره اذا كان للتعاقد العربي مطالب مالية [٢]. لم يقابلها الامين بالرفض فقط بل امر بحبسه كذلك واخيرا نجح في تسيير عم اسد وهو احمد بن مزيد لحرب طاهر وسير معه عبد الله بن حميد بن قحطبة ولكنها لم يتقدما الي ابعد من خانقين. واكتفي طاهر بان ظل في مكانه ودس عليهم الجواسيس والعيون ولم يزل يحتال حتي وقع الاختلاف في معسكر اعدائه [٣] وقاتل بعضهم بعضا حتي اضطر قائدا بغداد الي الرجوع عن خانقين دون ملاقاته طاهر الذي تقدم ونزل حلوان نفسها.

الاضطراب في الشام :

في هذا الوقت بينما كانت الامور مستقرة في خراسان، وبينما كان امر المأمون في تحسن مستمر بدأ مغرب الدولة ومركز الخلافة يضطرب وسارت الامور علي غير مايشتهي الامين حتي أنه وقع اسيرا

(١) قال له: انما نحن شعب من اصل ابي قوي قويا وان ضعف ضعفنا وبعد ان ينقذ الامين للهوة ومبسه يقول: وقد خشيت ان نهلك بهلاكه وانت فارس الغرب وابن فارسها انظر ابن الاثير، ٥٥٥ هـ ١١٤٩-١١٤٨

(٢) طالب بصرف رزق سنة وجبل رزق سنة اخري مع الجبل.

(٣) كان يزعمون ان الامين وضع العطاء.

بين ايدي الثوار، وفقد خلافته لفترة ما . والغريب في هذا الشأن ان بلاد الشام، وهي مركز الدولة العربية السابقة ومعقد أمال الشعب العربي وامانيه في هذا الصراع العنصري كانت نهب الغن والقتل منذ البداية .

ففي سنة ١٩٤ هـ ثارت حمص علي عامل الامين فعزلهم ولكنه ولي آخرأ مكانه انتقم من أهلها حتي طلبوا الامان ثم هاجوا بعد ذلك فاضطر الي الانتقام من جديد . وفي السنة التالية سنة ١٩٥ واثناء انهزام جيوش الامين امام طاهر طن اهل الشام ان امر العباسيين ودولة الفرس الي بوار فثارت دمشق ودعت الي عودة الامويين «السفياني المنتظر» اعلنت احمد حفدة معاوية ويدعيه ابو العميطر علي «علي بن عبد الله بن خالد» وكان علوي الام «نفيسة بنت عبد الله» مشغلا بالعلم، ويبلغ من العمر ٩٠ عاما خليفة «ذي الحجة» وتمكن ابو العميطر من اخراج عامل دمشق وذلك بفضل معونة احد موالي بن امية وعندما سير الامين لحربه الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان لم يسر هذا الاخير الي دمشق بل اكتفي بالانتظار بالرقعة .

وأحسن السفياني السيرة أول الامر ولكنه لم يكن ليستطيع القضاء علي الخصومات القديمة بين العصبيات العربية من كلب وقيس او التوفيق بينهما ففي اول الامر اتخذ اكثر اصحابه من كلب ولكنه عاد وخاصهم واتفق مع قيس ولكن الزعيم الكلبي محمد بن صالح ابن بيهس اوقع به هزيمة منكرة وحاصره في دمشق وقتل ابنه وارسل راسه للامين . وحدث ان مرض ابن بيهس فعمل علي الكيد للسفياني

فبايع امويًا اخر بالخلافة «مسلمة بن يعقوب» ونجحت خطته، وتمكن الأموي الجديد من القبض علي السفيناني وقرب القيسية فلما عوفي ابن بيهس من مرضه عاد وحاصر دمشق فسلمها اليه القيسية وهرب الأموي والسفيناني بعد ان دامت الفتنة حوالي ٣ سنوات «محرم سنة ١٩٨هـ» وظل ابن بيهس بدمشق حتي وصل اليها عبدالله بن طاهر.

وكان عبد الملك بن صالح، الذي اخبره الأمين من السجن عند ولايته [١] قد حاول ان يجد علاجًا لنكبة الشام فطلب الي الأمين ان يوليه اياها ومناه بأنه يمكنه ان يجيش اهل الشام لنجدته. ولكن فشل عبد الملك في مهمته اذ قامت الفتنة بين الخراسانيين واهل الشام بينما كان هو مريضاً، وانتهت الفتنة بانهزام العرب، فمات الرجل سنة ١٩٦ هـ متأسفاً لنكبتهم وضياع امله فيهم.

وبئس كذلك الحسين بن علي بن عيسى بن ماهان الذي كان ارسله الأمين الي الشام من تقويم الحالة بعد موت عبدالمك فعاد الي بغداد ولما اراد الأمين ان يحاسبه عما فعل رفع راية العصيان وهزم جند الخليفة واعلن خلعه [١١ رجب] واخذ البيعة للأأمون. ولم يتقض يومان حتي كان الخليفة اسيراً وهو وامه زبيدة، وتم ذلك بتدبير العباس بن موسي بن عيسى الذي كان قد استماله الفضل بن سهل كما رأينا ولكن الحسين لم يستطع السيطرة علي الموقف فثار به الجند واطلق الأمين واعيد الي كرسي الخلافة. وبذلك قدر للنزاع

(١) وكان الرشيد قد حبسه ايام نكبة البرامكة. انظر ابن الاثير، ٥٥ هـ. ١٥٠.

بين الاخوين ان يستمر مدة اطول.

وفي هذه الاثناء وقعت بغداد فريسة للفوضى وبلغ من حرج مركز الامين انه لم ينتقم من الرجل الذي خلعه بل عفا عنه [١] واكثر من هلكا انه لم يجد قائدا غيره للقيام بحرب [٢] المأمون فوجهه لذلك. ولكن الحسين كان قد فقد الثقة في موقف الامين فحاول الهرب الا أنه اخذ وقتل* وظهر الفشل في حزب بغداد بهرب الفضل بن الربيع، وكان القوة المحركة لهذا الحزب واحتفائه بعدمقتل الحسين.

ظهر بجلاء اذن ان موقف بغداد ميلوس منه وكان من الطبيعي ان تتقدم جيوش خراسان بسهولة والايصاف طاهر بن الحسين عقبات خطيرة فتمكن من الاستيلاء علي الاهواز بعد أن حاول واليها الدفاع عنها فلقي حتفه كما ان طاهر اصيب في هذه المعركة بجراح بليغة «نقطعت يده» وباستيلائه علي الاهواز تمكن من السيطرة علي المنامة والبحرين وعمان «علي الخليج الفارسي من شبه جزيرة العرب» ارسل اليها عمالا يلونها من طرفه واستمر تقدم طاهر المظفر دون مقاومة حتي اتي واسط التي استسلمت للخراسانية دون مقاومة هذه المرة ومنها ارسل احد قواده الي الكوفة وكانت قد خلعت الامين واعترفت بخلافته المأمون «كان عليها العباس بن موسي صنيعه ابن سهل، ولم تفلح محاولات بغداد لاستردادها».

- (١) قال الحسين عندها طلب الامين «ما انا بهمن ولا مسبار ولا مضحك»
انظر ابن الاثير، ج ٥، ص ١٥١.
- (٢) قيل ماهو باكثرنا سنه وماهو باكثر منا حسبا ولا باكثرنا منزلة
ولغني، انظر ابن الاثير، ج ٥، ص ١٥٢.

وبذلك تم طاهر الاستيلاء علي كل الاراضي الواقعة بين واسط والكوفة كما أعلن والي البصرة خضوعه له، وأعقبه والي الموصل. وبهذا أصبحت بغداد شبة محاصرة وأنقطعت عن كل الولايات الشرقية والجنوبية، وتم خروج كل بلاد العرب جميعا من سلطان الامين، بدخول مكة والمدينة في طاعة المأمون. ورغم أن موقف الامين كان لا يبشر بأي امل الا انه ظل جامدا في تصرفاته لا يريد سوي التشبث بعاصمة الخلافة التي أصبحت محاصرة «لم يصبح لها اتصال الا ببلاد الشام المضطربة» فهو لا يريد الخروج منها - كما نصحه بعض الناس - ومحاولة تنظيم قواته من جديد بالشام ولا هو يحاول المرونة واستعمال السياسة ومفاوضة اعدائه في سبيل انقاذ ما يمكن انقاذه اذا كان هناك ما يمكن انقاذه.

في هذه الظروف تقدمت جيوش المأمون، وصارت تقترب من بغداد شيئا فشيئا، وكانت كلما قربت اضطربت امر الجيوش البغدادية وانسحب افرادها. هذا ما حدث بالمداين «عطي بعد ٤ كلم من بغداد» حيث نزل طاهر «بصرصر» وماحدث بالنهروان حيث نزل هرثمة بن أعين. كل هذا والامين لا يفقد الأمل، بل وربما اعتقد في مقدرة بغداد وحدها علي استعادة دولتها المفقودة ففي محاولة أخيرة عمل علي استمالة جيوش طاهر يبذل الاموال والتلويح ببريق الذهب، ودس بينهم الجواسيس ونجحت التجربة جزئيا اذ شغب بعض الجند علي طاهر وانضم فريق منهم الي جانب الامين «حوالي ٥ الاف» ولكن النجاح لم يذهب الي ابعد من ذلك اذ تمكن طاهر بسرعة من

السيطرة علي رجاله وهزم جيش بغداد الذي اقترب من مواقعه فلجأ الي داخل المدينة التي اصبحت مطوقة تماما من جميع الجهات وافلت زمام القواد - الذين كانوا يطلبون المال بجشع والحاج- من يدي الامين وعمت العاصمة الفوضى، فنقبت السجون وخرج أهلها وثار العامة والغوغاء وساد التهب والسلب والاضطراب.

رغم حالة الفوضى التي عمت بغداد لم يكن من السهل اخذ المدينة التي بناها المنصور لتكون أولا وقبل كل شئ معسكراً لجنوده وملجأ يستقر فيه -في امان من مفاجأة الاعداء - فللمدينة سورها الضخمان، والخلدق الممتد بينهما، ثم هي مقسمة بعد ذلك الي احياء «أرباع». شبه منفصلة تتوسطها المدينة الملكية، ويمكن لكل منها أن ينظم دفاعه الخاص. بعد ذلك هناك الاحياء والاسواق خارج الاسوار وهي مكتظة بالعباني والسكان ويمكن الاعتماد بها.

عرف طاهر ذلك وعمل علي ضرب حصار محكم حول المعسكر الضخم. فقسم دائرة الحصار الي اربع مناطق وعهد بكل منطقة الي قائد. ونزل هزيمة بالمنطقة الشرقية «وراء دجلة» بينما نزل طاهر بالمنطقة الغربية من ناحية باب الانيار «باب الكوفة».

ومهم الامين من جهته علي المقاومة المستميتة دون النظر الي العواقب مضحيا بمدينة الخلفاء العالمية. فلما أحوجه المال ضرب أنية الذهب والقضة وفتحها في اصحابه ولما خرجت عليه احياء

المدينة امر باحراقها رميا بالنقط والنيران وبالمجانيق . ولم يتورع طاهر عن فعل مثل هذا أيضا بالنسبة للأحياء التي ظلت تقاومه وسماها دار النكت «أهل الأرباض ومدينة المنصور وأسواق الكوخ والخلد، لامتلائنها بالعامه والغوغاء» كما أنه لجأ إلى أرباب الأعيان الذين لم يخرجوا إليه من الهاشميين وكبلد القواد في أموالهم وأمولاكهم فصادر مزارعهم الموجودة خارج المدينة .

ولم يمض وقت طويل حتي انتهت المقاومة النظامية وانهارت معنويات الجنود وضعفوا عن القتال . كما أستأمن كثير من وجوه المدينة ومن القواد وظل الغوغاء وأهل السوق وباعة الطريق، من أعداء النظام والا من ينهبون ويسلبون ويقامون جنود طاهر . ورغم أنهم لم يكونوا مسلحين أو كانوا يحملون اسلحة بدائية مثل المخالي فيها الصخر والحجارة، ومعها المقاليع فإنهم أمكنهم شل حركة جيوش طاهر النظامية لمدة ما، بل وأكثر من هذا تمكنوا اثناء قتال الشوارع والبيوت من أن يلحقوا بهم في بعض الأحيان خسائر فادحة وان يحرزوا بعض الانتصارات أيضا . واتخذ طاهر ازاء هذه المقاومة اجراءات شديدة فأمر بهدم كثير من الدور والأحياء «مابين دجلة ودار الرقيق، وباب الشام، وباب الكوفة الي الصراه وريض حميد ونهر كرخايا» حتي عم الخراب واضطر كثير من أهل المدينة الي الجلاء عنها . وبعد ذلك عمد الي منع الاقوات عن المدينة «صرف السفن التي يحمل اليها القوت الي الفرات» فغلا السعر وأصبح الناس في ضيق شديد .

سقوط بغداد ونهاية الامين:

وأخيرا تقدم طاهر من جهة الكرخ وتمكن من دخول المدينة عنوة واحتل أسواق الكرخ ثم عمل علي حصار مدينة المنصور - المدينة الملكية وسط بغداد حيث كان الامين قد التجأ هو وأمه وأهله بعد ان فارقه كثير من جنده وجواربه، واحاط قصورها «قصر زبيدة وقصر الخلد» بالمجانيق. ورغم هذا الضيق الشديد الذي وقع فيه الامين فانه لم يتخل عن عاداته من الانصراف الي الغناء والاستمتاع بالشراب والموسيقى. وربما وجد في ذلك بعض التخفيف من محنته، وكان هذا ايلانا بالنهاية، إذ لم يعد أمامه سوي الاختيار بين احد شيئين: امام القيام بمحاولة يائسة لاختراق صفوف المحاصرين بما تبقي لديه من الخيل وأما الاستسلام وطلب الامان. ولما لم يكن الامين من هؤلاء الرجال الذين يزدادون عزما كلما ازدادت الصعاب شدة، فانه ركن الي طلب الامان. وكل ماقلعه أنه لم يرض ان يكون استسلامه لطاهر بل فضل عليه هرثمة بن أعين.

وكان من الطبيعي ان يشير ذلك طاهرا صاحب الحصار. وتمكن الطرفان من ايجاد حل لذلك، اذ اتفق علي أن يدفع الامين شعار الخالدة والخاتم والقضيب والبردة - الي طاهر. واتي هرثمة بحراقة في دجلة ونقل الامين اليها «وحدة» ولكن طاهرا لم يكن

ليرض أن يفوته شرف استسلام الخليفة . فدير اغراق الحراقة بأيدي اصحابه تدييرا سافرا . وتنتهي قصة الامين نهاية مأساة روائية «تراجيدية» بأن يؤسر وهو شبه عريان، ويحبس في احدي الدور . وفي ظلام منتصف الليل الذي تبدده بعض المشاعل يدخل عليه بعض الرجال من العجم ويلدبحونه ذبح الشاة من قفاه «في يوم الاحد ٢٣ محرم ١٩٨ هـ» ويسيروا برأسه الي طاهر الذي يرسلها بدوره الي المأمون صاحب العرش دون منافس .

استلمت بغداد بعد اذن، وفي يوم الجمعة التالي «٢٨» من المحرم» دخل طاهر بغداد وصلي الجمعة ودعا للمأمون . وكان المتوقع أن تهدأ الاحوال ويستتب الامن وتستقر الامور بعد موت الامين وغلوص الامر للمأمون وهذا ما لم يحدث . فالمسألة كانت اكثر من ذلك تعقيدا، اذ معني انتصار صاحب الولايات الشرعية هو أن مركز الخلافة والحكم كان يتزحزح نحو المشرق . وفعلنا لن يدخل المأمون بغداد الا بعد ست [٦] سنوات قضاها في عاصمة ولايته الشرقية . وخلال هذه السنوات الست ستعرف بغداد كما ستعرف الولايات الغربية الوانا من الاضطراب ومنوفا من الفتن والثورات وذلك حتي يعود الخليفة من جديد الي عاصمة بغداد .

فبعد دخول طاهر بغداد لم تلبث الثورة أن شبت بالمدينة واشترك فيها الجند الذين طالبوا بارزاقهم ونادوا بموسي من الامين . وطن طاهر أن في الامر مؤامرة فخرج عن المدينة وعزم علي التنكيل

- ١٩٠ -

بأهل الارباض. ولولا تدخل الاعيان واعتذارهم اليه. وعندئذ حمل
ظاهر ولدي الامين وهما موسى وعبد الله وأمر بتسييرهما الي
المامون بخراسان.

الفصل العاشر

خلافة المأمون

- ١٩٣ -

خِلافة المأمون

«١٩٨ - ٨٢١٨»

٨١٣ - ٨٣٣ م

وحسب السياسة التقليدية للخلفاء العباسيين عمل الخليفة الجديد علي التخلص ممن يستشعر خطره من كبار الرجال الذين مهدوا له الطريق الي الملك فكان نصيب الفاتح الكبير طاهر بن الحسين أن أمر بالتخلي عن كل فتوحاته، من كور الجبال والعراق وفارس والاهواز والحجاز واليمن للحسن ابن سهل أخي الوزير الخطير الفصل، الذي استعمله المأمون - بإيحاء الوزير من غير شك - ولم يفعل طاهر سوى مدافعتة بتسليم الخراج حتي وفي الجند؛ إذ أقامهم، وبعد ذلك كان علي طاهر ان يسير حسب أوامر الحسن بن سهل الي الرقة علي رأس قوات غير كافية لحرب احد شوار الشام من رجال الامين، وهو ابن شيث «نصر بن سيار» الذي غلب علي نواحي حلب وما جاورها من الجهات، وعبر الفرات الي الجانب الشرقي يبغي التغلب عليه وفي نفس الوقت ولي طاهر الولايات المضطربة، والتي لم تكن قد دخلت في الطاعة بعد، وهي الموصل والجزيرة والشام والمغرب. أما عن هرثمة بن اعين فسيكرن مصيره الموت بعد قليل.

العلويون وثورة ابي السرايا:

انتهاز اعداء الدولة وعدم الاستقرار هذا وعملوا علي الاستفادة من الاضطراب والصيغ في الماء العكر، كما يقال، فظن العلويون ودعاتهم ان الخلافة العباسية ضد ضعفها الصراع وان الفرصة مواتية لقيام دولتهم المنتظرة وفي ١٠ من جمادي الثانية سنة ١٩٩هـ اعلنوا امامة ابي عبد الله محمد بن ابراهيم بن اسماعيل المعروف بابن طباطبا بالكوفة، مركز العلويين ودعوا للرضا من آل محمد، والعمل بالكتاب والسنة .

وربما كانت الظروف التي قامت اثناءها دعوة ابن طباطبا تدعو الي التفكير في موقف قواد المأمون مثل طاهر وهرثمة، وهل كان لهذا الموقف تأثير غير مباشر علي الاقل علي سير الحوادث في ذلك الاتجاه. فتتحية طاهر عما كان اليه من الاعمال التي افتتحها، والعهد بها الي الحسن بن سهل اخي وزير المأمون القوي الذي اصبح يدعي ذا الرناستين، كان من شأنه ان دارت الشائعات بأن الوزير غلب علي المأمون، وكان من الطبيعي ان يثير ذلك بني هاشم ووجوه الناس وان يهيج الفتن. وهذا عن طاهر، أما فيما يتعلق بهرثمة فان الرجل الذي قثم بامر حرب العلوي اي بقيادة جيوشه هو ابو السرايا الذي كان مخاطر اشبه ما يكون بزعماء العصابات والذي كان يعمل تحت قيادة هرثمة اثناء الصراع بين

الامين والمأمون. فلما استتب الامن عاد الرجل الي سيرته الاولى.
هنا يمكن التساؤل عما اذا كانت علاقة هرثمة قد انقطعت نهائيا
بهذا المغامر؟ وهل لم يكن من صالح هرثمة ان تقوم امام منافسة
ظاهر بعض المضاعف من الصعب أن نجد أجوبة لهذه الأسئلة.

علي كل حال التقى ابو السرايا بابن طبابا واصبح قائده.
وعندما وجه الحسن بن سهل اليهما جيشا تمكنا من هزيمة هذا
الجيش في اخر جمادي الثاني ولكن في الشهر التالي يموت ابن
طباطبا. والظاهر ان ابا السرايا الذي كان يريد أن يكون صاحب
الامر الفعلي تخلص منه نسمة واقام مكانه غلاما علويا للمحمد بن
زيد. فتحقق له ماكان يبغى وعندما ارسل الحسن بن سهل جيشا
ثانيا تمكن ابو السرايا من القضاء عليه قضاء تاما.

وعندئذ احس الطالبيون بقوتهم فانتشروا في البلاد يبشرون
بدولتهم ودعوا نصر بن شيب بالشام الي بيعتهم لرفض، وقال: انما
حاربتهم محاربة عن العرب لانهم يقدمون عليهم العجم. وضرب ابو
السرايا الدراهم بالكوفة وسير قواته الي البصرة وواسط
ونواحيهما، بل وأكثر من هذا ظن ان اطراف الدولة قد دانت له
أو علي وشك أن تدن، فارسل العمال والولاة الي مختلف الجهات
: الي البصرة والي مكة حيث فسد موسم الحج هذا العام والي
اليمن وفارس والاهواز وفعل غلب رجاله علي البصرة والاهواز
والمدائن واليمن، كما انسحبت امام قائده جيوش الحسن بن سهل

التي كانت بواسط الي بغداد، حتي طمع في دخول بغداد نفسها .

وعند استفحل الخطر، اضطر الحسن بن سهل الي استدعاء هرثة الذي كان قد سار نحو خراسان وهو مختلف مع الحسن . ورضي هرثة بعد امتناع الذهب لحرب ابي السرايا، وتمكن من هزيمته بسهولة قرب الملائن فارتد ابو السرايا والطالبون الي الكوفة حيث قاموا بأعمال انتقامية ضد من بها من بني العباس، فهدموا دورهم وانتهبوا وخربوا ضياعهم، ولكن ثم يلبث ابو السرايا ان خرج منها ودخلها هرثة «الي ١٦ من المحرم سنة ٢٠٠هـ» وانتهي الامر بالقبض علي ابي السرايا وقتله وتصيير رأسه الي المأمون .

في هذه الفترة القصيرة التي عرف فيها العلويون سطوة الحكم والسلطان قاموا بأعمال انتقامية شديدة، كما اساءوا السيرة . فكما حدث في الكوفة حدث في البصرة حتي سبي زيد بن جعفر يزيد النار، لكثرة ما أحرق بالبصرة في دور العباسيين . وفي اليمن اطلق علي ابراهيم بن موسي جعفر" الجزار لكثرة من قتل باليمن وسبي وأخذ من الأموال . وكذلك لم تسلم مكة والكعبة من فعالهم السيئة، فقام الانطس «الحسين بن الحسن» عامل ابي السرايا بالاستيلاء علي ودائع بني العباس هناك وأخذ أموال الناس ومال أصحابه علي شبايك الكعبة واخذوا ماكان عليها من أساطين الذهب اليسيرة وماكان بخزانتها من المال . ولما بلغه موت ابي السرايا ألح

علي محمد بن جعفر العجوز في قبول الخلافة واجبروا الناس علي بيعته . وأخيراً تمادى الطالبيون في عيهم وانتهكوا الاعراض [١]

وأخيراً تمكنت جنود هرثمة مع جنود والي اليمن المطرود من هزيمتهم واعتذر محمد بن جعفر بأنها كانت فتنة عمت الارض، وخلق نفسه فسير به الي المأمون بمرو سنة ٢٠١ هـ هكذا قضي تماماً علي الفتنة العلوية التي ربما كان له ضلع في اثارها نكابة في ابني سهل اللذين غلبا علي الخليفة اولها ماسيتهم به اعداؤه فيغضب عليه المأمون ويموت بعد أيام في حبس الفضل .

الاضطرابات في بغداد:

اما عن بغداد فكان من الصعب عليها أن تعيش مطمئنة بدون خليفة والقيت تبعه عدم مجئ الخليفة الي العاصمة علي ابني سهل وانتهاز الجند تأخر أرزاقهم بعض الوقت، ثاروا ضد الحسن بن سهل وتمكنوا من طرده هو وعماله «ونادوا باسحق بن موسى الهادي نادبا للمأمون علي بغداد» وحاول الحسن ارضاءهم بالمال بعد أن استعمل معهم العنف، ولكن وصول خبر مقتل هرثمة [٢] وهروب بعض العلويين من سجن البصرة زاد من هياج الفتنة . وخرج

- (١) اذ تقول الروايات التي ربما كانت متحيزة ضد العلويين او الانطس وشب علي ١٦ مرة جبيلة فامتصت فاخاف زوجها حتي حوازي واخذها مذي وشب علي بن محمد بن جعفر غلام اسود وهو ابن القاضي فاخذته فنهراه انظرا ح ١٥٥ هـ ١٧٧-١٧٨ .
- (٢) الحسن بن سهل كان يريد أن يوجهه بعد ذلك الي الشام والحجاز فرفض هرثمة وسار دون استئذانه . انظرا ابن الاثير ح ١٥٥ هـ ١٧٩ .

قائد الحسن بن سهل عن بغداد، وسار الحسن ندسه من المدائن الي واسط في اوائل سنة ٢٠١ هـ. وفكر الهاشميون واهل بغداد من الغاضبين علي الحسن بن سهل في مبايعة منصور بن الهدي وعرضوا عليه العلفنة ولكنه كان مخلصا للمأمون قايي. والخير ا رضي ان يضبط الامور باسم المأمون اي أن يكون نائباً له ببغداد والعراق [كانوا يقولون لانرضي بالمجوسي ابن المجوسي].

المطلوعة في بغداد:

ازاء اضطراب بغداد ههنا، وقيام الفتن بين الناس وانتشار السلب والذهب والمفاسد، من قطع الطريق الي اخط النساء أوالمبمان علانية وقصور السلطات عن ضبط الامور، قامت حركة شعبية تهدف الي نشر الامن والطمأنية وحسن المعاملة بين الناس، واتخذ القائلون بهذه الحركة المبدأ الاسلامي الشهير: وهو الامر بالمعروف والنهي عن المنكر" شعاراً لهم. معني ذلك أن الحركة كانت في أول امرها عبارة عن دعوة الي التقوي ولزوم أوامر الدين. هذه الدعوة ستعطي أعمال الجماعة عندما تضرب علي أيدي الفساد صفة شرعية، اذ أن هذا العمل من اختصاصات صاحب الامر الشرعي.

وأول ما فكر في تنظيم هذه الحركة رجل اسمه خالد الدريوش، دعا ههنا الرجل جيرانه واهل محله الي معاونته علي الامر

- ١٩٩ -

بالمعروف والنهي عن المنكر وفعلًا قاتل النفاق وتمكن من هزيمتهم . كل هذا في حدود الاعتراف بسلطان ولي الامر . وقام بعد ذلك رجل اخر اسمه سهل بن سلامة وعلق مصحفًا في عنقه ودعا الناس لمناصرته في دعوته، ولكن لما كان كثير من اصحاب هذين الداعين من عامة الناس وغوغائهم فان منصور بن المهدي الذي دخل بغداد قاومها وهزم اصحابها . وفي هذا الوقت كانت هناك مفاوضات بين الحسن بن سهل واهل بغداد من اجل تأمينهم علي أن يعطي لهم وللجند من الثوار الانزاق، وفعلتهم الاتفاق علي ذلك وعاد الحسن بن سهل الي بغداد ١٣٨ شوال سنة ٢٠١ هـ الا أن سهل ابن سلامة ظل علي ما كان عليه من الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

العهد للعلويين:

في غمرة الحوادث الدامية هذه وجد المأمون ان الفضل في ماوصلت اليه الدولة من حالة الاضطراب التي تكاد تؤدي بالاسرة العباسية، بل بالاسرة النبوية جميعا، يعود الي مشكلة وراثية ' رش، التي لم يستطع اسلافه ايجاد حل مرض لها، وفكر هو في ايجاد حل لهذه المسألة . وربما كان المأمون خياليا بعض الشيء . فيما فكر فيه، وربما كان فيسلولنا يريد أن يصل الي اصل الناء . فعلي حين غرة اعلن العلوي علي بن موسي الرضا وليا للعهد بعده، وكان قد خلع اخاه الموثمن قبل ذلك سنة ١٩٨ هـ .

ويمكن النظر الي هذا الاجراء من وجهين:

١- علي أنه عمل سياسي صرف يرمي الي ارضاء العلويين واتباعهم ومن يعطف عليهم في انحاء الدولة المختلفة، وهؤلاء كانوا عديدين في العراق والحجاز ارضاء مؤقتا، ورغم سياسة القمع التي كانت الاسرة العلوية هدفا لها لم تزل الاسرة تتمتع بنصيب كبير من التعظيم، كما أن العباسيين كانوا يخشون أن يجلبوا لانفسهم. عن طريق الشدة القاسية كراهية الشعب التي كانت حسا وشوما علي الامويين.

٢- علي أن المسألة أعمق من هذا، وأنها تتصل بشرعية ولي الامر وأحقية الفرع العلوي من اسرة النبي هو الآخر في الاشتراك في الحكم اشتراكا فعليا وهذه نظرة الفيلسوف الزاهد الذي يبحث عن الحقائق الصرفة دون اعتبارات اخري. ويمكن التفكير في أن المأمون كان متأثرا في ذلك براء وزيره الفضل بن سهل.

ويؤيد وجهة النظر الثانية هذه أن المأمون زوج العلوي ابيه أم حبيب وزوج ابن الرضا وهو محمد ابنة اخري وهي أم الفضل، ولي هذا معني تحقيق وحدة الفرعين العباسي والعلوي. ثم أنه غير اللون الاسود لون العباسيين للرايات والخلع، وأحل محله اللون الأخضر شعار العلويين «معني ذلك حل المشكلة السلوية وقيام دولتهم المنتظرة» وربما ايدها أيضا تصرفات المأمون ازاء العلويين بعد وفاة الرضا.

نتائجبيعة الرضا:

ولكن هذا العمل السياسي الغريب يعكس ما كان يتوقع له في العراق، فبدلاً من أن يؤدي إلى الهدوء اثار الغضب ، اذ احتج جميع العباسيين علي اعتزال اوتنحي رئيسهم «قالوا لا تخرج الخليفة من ولد العباس». وفي بغداد رفضوا اداء البيعة للامير العلوي وفكروا في خلع المأمون نفسه «كان أشدهم فيه منصور وابراهيم ابناء المهدي» وفعلاً تنازعوا هذا الامر اثناء خطبة الجمعة «٢٧ ذي الحجة». وتفرق الناس دون صلاة بعد ان نودي بعم المأمون. وهو المصغني الموسيقي الهاوي ابراهيم بن المهدي، خليفة ولقبوه «بالمبارك» .

وتمكن ابراهيم من الاستيلاء علي الكوفة مركز العلويين اذ ان هؤلاء في جانبهم لم يرفضوا عن البيعة لعلي بن موسي لرضا بعد المأمون الا أن تكون البيعة لرضا فقط. واستولي كذلك علي السواد جميعه، ثم أخذ قصر ابن هيبيرة بفضل اختلاف بعض القواد الحسن بن سهل «١٠ ربيع» وسير ابراهيم جنوده الي واسط حيث كان عسكر الحسن متحصنين ولكنهم انهزموا . وفي بغداد نفسها قبض ابراهيم علي سهل بن سلامة الذي كان يدعو علي رأس رجاله الي الامر بالمعروف والنهي عن المنكر «كان قائد عيسي بن محمد بن ابي خالد يسميهم القساق» فعاقبه وحبسه . وعندئذ عرف المأمون أن بغداد لا تستطيع ان تعيش بدون خليفة، كما رأي عدم جنوي ولاية

العلوي للعهد فقرر ان يعمل شخصيا . والظاهر ان وزيره امده بمعلومات خاطئة عن الموقف بالعراق وأن مهره الطالب هو الذي اوضح له الأمر «ابنا سهل اخفي عنه بيعة ابراهيم» .

وكان هناك خطر جديد يهدده في المشرق، فالحركات المذهبية التي بدأت بتعاليم ابي مسلم، والتي تابعه فيها المقنع عن تناسخ الارواح والحلول الالهية كانت قد انتشرت في اذربيجان بفضل من يسمي بابك الذي اكتسب كثير من الاتباع، والذي ربما بلغت قوته الي حد فصل الولايات الايرانية عن الغرب لو قدر لحركته ان تتسع الي أكثر من ذلك . فهم المأمون اذن خطورة الموقف وترك مرو وسار الي بغداد . ولحسن حظه تمكن من الخروج من المأزق الذي دبره هو نفسه . ففي الطريق تحدث مأسا اشتهر بها التاريخ العباسي اذ يفتال الفضل بن سهل، ذو الرئاستين بسرّس - بتدبير من الخليفة علي ماتدل الطواهر . واتجه المأمون نحو طوس لزيارة قبر والده والتبرك بالصلاة عليه . وفي طوس مات مهره العلوي مصابا بسوء هضم كما يقال «أكل عنب» وكان يحب العنب، ولكن من المحتمل انه مات مسموما «اين الاثير لايعتقد في ذلك»، ودفن الي جانب قبر هارون ولما كان العلويون سيقتبرونه شهيدا في القريب العاجل، بنيت حول قبره مدينة جديدة سميت المشهد الرضوي "او مشيد" التي محت نهائيا مدينة طوس القديمة، والتي تمثل الان اكبر عتبات الشيعة المقدمة الي جانب كربلاء .

- ٢٠٣ -

ولما كان أخو الوزير وهو الحسن بن سهل بمنطقة واسط، وكان غريباً بالنسبة للعراقيين فإنه سيجن بعد قليل، كما يقال وبسجن بهذه الحجة وبناء علي ذلك فإن أهل بغداد بدأوا يهجرون المطالب بالخلافة «ابراهيم بن المهدي» الذي اضطر الي الاختفاء، بعد أن تسلسل قواده الي قواد المأمون وفشل محاولاته للاحتفاظ بمركزه «في ١٦ ذي الحجة سنة ٢٠٣هـ» كما اختفي الفضل بن الربيع ايضاً ثم انه تحول الي قائد المأمون وسمحوا للمأمون بدخول بغداد.

عودة المأمون الي بغداد:

دخل المأمون بغداد في صفر سنة ٢٠٤هـ / أغسطس ٨١٩ م وبصحبه طاهر بن الحسين الذي كان المأمون قد استدعاه من الرقة «للقدوم عليه بالنهر» وكان المأمون يتخذ لون العلويين الأخضر شعاراً له، ولكنه لن يلبث ان يغيره العباسيين الاسود. «حسب نصيحة طاهر الذي اصبح رئيس شرطة بغداد، وعامل خراج السواد». عمل المأمون علي تهدئة العراقيين بان خفف الاعباء المالية عن أهل السواد بعض الشيء «وهي نفس السياسة المالية التي اتخذها عند ما اعتصم بخراسان أول امره فقد امر بمقاسمة أهل السواد علي الخمسين وكانوا يقاسمون علي النصف».

طاهر إلى خراسان:

وفي السنة التالية سنة ٢٠٥هـ سار طاهر الي خراسان بامر

الخليفة الذي ولاه علي المشرق من مدينة السلام الي اقصي عمل المشرق . اذ كانت الاحوال تنقلب بالاضطراب والفتنة هناك . وبعد قليل من الوقت اصبح السيد ائذي لا ينازع للولاية جميعا . وولاية طاهر لخراسان بفضل تدبيره هو نفسه ، وذلك ان صديقه احمد بن ابي خالد «الوزير» اثار شكوك المأمون حول مقدرة والي خراسان غسان بن عباد «ابن عم الحسن بن سهل منافس طاهر» ، فقال : "اخاف ان تخرج فيه خارقة من الترك فتهلكه" وربما كان احمد ابن ابي خالد مغرضا ، فعندما توجه الي خراسان في ايام طلحة بن طاهر ليقوم بأمره وهب له طلحة ٣ آلاف درهم وعروضا بالفي الف درهم . وذهب لابراهيم بن العباس كاتب احمد ٥٠٠ الف درهم . وبعد مسير طاهر الي المشرق حل ابنه عبد الله بن طاهر الذي خلفه في قتال نصر بن شيبث بالرقعة محلة ببغداد كصاحب الشرطة كما ولاه المأمون من الرقة الي مصر وكذلك الجزيرة .

وبعد قليل سيشعر طاهر بقوته حتي انه في سنة ٢٠٧ هـ / ٨١٦ م سمح لنفسه باهمال ذكر اسم الخليفة في خطبة الجمعة . ورغم أن هذا الاهمال او السكوت كان معناه العصيان المكشوف او اعلان الاستقلال عن الخلافة ومع ان الشكوك قالت عن طاهر الذي توفي عقب ذلك مباشرة أنه مات مسموما بتدبير من الخليفة ، الا أن المأمون عين ابن طلحة واليا لخراسان وسيظل احفاد

طاهر محتفظين بهذا المركز حوالي قرن - بينما شغل افراد الاسرة وظائف مهمة في الغرب منها شرطة بغداد . وهكذا فقدت الدولة حقيقة ولايتها الشرقية المتطرفة . كما سبق ان فقدت الولاية الغربية [ولاية الاغالبه] .

حلب والموصل

ورغم عودة المأمون الي بغداد فان الولايات المختلفة كانت قد تعودت علي الاضطراب، وسيودي عبد الله بن طاهر خدمات عظيمة للدولة فيما يختص بإدارة الولايات الغربية . وفي منطقة حلب حيث كان نصر بن شيث وهو تابع الأمين المخلص والمتعصب للعرب قد رفض طاعة المأمون وغلب علي الجهة، فان طاهر قام بمحاربته، ولكنه لم يستطع قهره الا سنة ٢٠٩ هـ ٨٢٥ وسيرباين شيث الي بغداد .

وانتهز أحد العباسيين من أتباع ابراهيم بن المهدي وهو المدعو "ابن عائشة" هذه الفرصة ودبر القيام بانقلاب في العاصمة، ولكن كشف أمره وكان جزاؤه القتل والصلب بعد الضرب والحبس «وهو أول عباسي صلب في الاسلام» وفي نفس هذه السنة «٢١٠هـ» قبض علي ابراهيم بن المهدي نفسه «وكان متنبها في زي امرأة» ولكنه تمكن من نيل صفح المأمون وعلوه .

أما عن منطقة الموصل فكانت مضطربة كالعهد بها . إذ قامت الحرب بين واليها السيد بن انس وبين علي بن صدقة المعروف بزريق^(١) والي ارمينية واذرييجان وانتهت بقتل ابن انس سنة ٢١١ هـ . وفي السنة التالية ارسل المأمون احد قواده «محمد بن حميد الطوسي» لحرب بابك وامره في نفس الوقت ان يصلح امر الموصل فتمكن من هزيمة زريق وأرسله للخليفة «وأصبح هو واليا للموصل» .

الحالة في مصر:

أما عن مصر فانها عرفت الاضطراب هي أيضا علي عهد المأمون، وكان علي عبد الله بن طاهر اقامة الامن واتباب النظام بها . إذ ثار النزاع القديم بين عرب الجنوب وعرب الشمال بمناسبة النزاع بين الأخوين: فانهم القيسيون للأمين واخذ الكلبيون جانب المأمون . وتحققت وحدة الامبراطورية من جديد ولكن مصر ظلت مضطربة حتي اضطر المأمون نفسه الي القدوم اليها سنة ٢١٦ هـ . ففي سنة ٢١٠ هـ وبعد أن تخلص عبدالله بن طاهر من نصر بن شيث سار نحو مصر وكان قد تغلب عليها عبد الله بن سري . تمكن هذا الرجل من مقاومة القائد الذي ارسله عبدالله بن طاهر . ولكن عندما توجه ابن طاهر نحو العاصمة المصرية انهزم ابن سري ودخل المدينة واعتصم بها . ولكن ابن طاهر شدد عليه الحصار حتي استسلم وحمل الي بغداد . ولكن حدث في نفس الوقت ان غزا من

(١) زريق ازدي مثل ابن انس وهو موصل في الاصل، وكان قد تغلب علي المنطقة ما بين الموصل واذرييجان .

الاندلسيين «١٥ ألف رجل» الذين نفاهم الحكم صاحب الاندلس الاموي الاسكندرية واستولوا عليها وأثاروا الاضطراب من جديد . ولكن عبدالله تمكن بعد قليل من ارجاعهم علي الانسحاب الي جزيرة كريت وتسيير دولاب الادارة من جديد «هذا الحادث يدل علي مايشبه الوحدة الاسلامية في البحر المتوسط ايام الاضمحلال البيزنطي - سيظل الاندلسيون بكريت حتي يطردهم البيزنطيون منها سنة ٩٦١م» .

وعاد عبد الله بن طاهر الي بغداد فاستقبله المأمون وأهل المدينة استقبال الفاتحين . وبعد موت اخيه طلحة سنة ٢١٣هـ تمكن من وضع يده علي ممتلكات الطاهريين الوراثية في خراسان «قيل أنه ولي خراسان بعد ابيه ولكنه كان قد عهد بها الي اخيه طلحة» . وقام ولي العهد ابو اسحق المعتمد بامره مصر ولكنه اظهر عدم كفاءة اذ وثبت العصبية العربية من قيسية ويمنية بواليه وقتلوه «ربيع اول سنة ٢١٤هـ» فاضطر الي السير بنفسه وقتال الثوار وقمعهم بالقوة . ولكن الاضطرابات عادت من جديد «واشترك القبط في الثورة» حتي اضطر المأمون نفسه الي المسير من دمشق الي مصر في اواخر سنة ٢١٦ هـ كما قدم القائد التركي الافشين اليها من برقة . واقام المأمون بمصر سنة ٢١٧هـ حتي هدأت الاحوال «اذ طفر الافشين بأهل الفرما وقتل عبدوس الفهري الذي كان قد وثب بعمال المعتمد» وقبل أن المأمون هو الذي امر بحفر الثلثة التي في الهرم الاكبر .

وعن اليمن، فقد قامت بها ثورة علوية، فرغم المعاملة الخاصة التي حايي المأمون بها الطالبين، دعا عبدالرحمن بن احمد العلوي لنفسه بالخلافة هناك سنة ٢٠٧ هـ «لرضا من ال محمد» منتهزا تدمير اهلب البلاد من العمال. ولكن ما أن وجه المأمون احد قواده «دينار بن عبد الله» الي هناك وخير الطالبين بين امان الخليفة والحرب حتي اعلن الثائر الطاعة فاقتيد الي المأمون.

وكان لهذه الثورة اثرها في نفس المأمون فامر بمنع الطالبين من الدخول عليه، كما منعهم من ارتداء لونهم الأخضر وامرهم بلبس السواد، وبدأ يكون حذرا بعض الشئ في معاملته لهم، حريضا علي تعقب ابناءهم. فهو عندما تصله شائعات انكرها عن ميل عبد الله بن طاهر الي العلويين لابتورع عن أن يدس عليه رجلا يتظاهر بالدعوة للعلويين حتي يتأكد من صحة رأيه في ابن طاهر.

ولكن لم يكن هلتا تغييرا جوهريا في سياسته ازانهم فهو دائم العطف عليهم والمحابة لهم يفعل ذلك طبعا لاتكلفا، كما تقول النصوص فهو في نفس السنة ٢١١ هـ ينادي بالحط من شأن معاوية - عدو علي اللدود - ويلعن من ذكره بخير أفضله علي احد من اصحاب النبي. وفي السنة التالية ٢١٢ هـ يعلن تفضيل عن بن ابي طالب علي جميع الصحابة. وكما أنه قبل أن يموت في وصيته لاختيه المعتصم علي احسان صحبة بني عمه اولاد امير المؤمنين علي

والتجاذز علي مسيلهم.

بداية بابك الخرمي:

هذه الاضطرابات التي حلت بمختلف الولايات لم يكن لها خطورة الحركة المذهبية الخطيرة التي ترأسها بابك باذريجان. هذه الحركة التي ظهرت سنة ١٩٢ هـ في اواخر ايام الرشيد، بداها رجل يسمى جاويدان بن سهل وستظل تقوي وتشتد طيلة عهدي الامين والمامون حتي تصبح خطراً داهماً علي عهد المعتصم الذي سيتمكن بفضل قواد الترك من التغلب علي الثوار. ولأشك في ان الانقسام الذي اضعف الدولة أيام الامين والاضطرابات التي تلت موته كان من الاسباب التي مكنت الثوار من الاعتصام بجهتهم ومقاومة الحملات الضعيفة التي كانت توجهها لهم الحكومة المركزية والحقيقة أنه لو قدر للرشيد أن يعيش بعض الوقت لقضي علي الحركة في مهدها. اذ أنه في نفس السنة التي بدأت فيها الحركة «١٩٢ هـ» وجه اليهم قائدا علي رأس ١٠ الاف رجل فنكل بهم. وكان الرشيد حازماً ازاء الثوار فامر بقتل اسراهم وبيع سباياهم وطلت الحركة ضعيفة حتي سنة ٢٠١ هـ حين ظهر علي رأسها رجل صعب المراس هو بابك الخرمي الذي اظهر الي جانب كونه داعياً سياسياً ودينياً كفاءة عسكرية ممتازة فدوخ الجيوش تلو الجيوش.

ففي سنة ٢٠٤ هـ كانت الحرب سجلاً بينه وبين قائد الخلافة

يحيى بن معاذ . وفي سنة ٢٠٦ هـ هزم عيسى بن محمد بن ابي خاك، وفي سنة ٢٠٩ هـ، المأمون زريق وهو علي بن صدقة علي، ارمينية واذربيجان وأمره بحرب بابك، ولكن هذا اكتفي بان اشار الاضطراب في الموصل والجزيرة كما رأينا وارسل المأمون قائدا اخر [هو محمد بن حميد] فتك بزريق وتوجه الي اذربيجان لملاقاة بابك . وتوغل ابن حميد في البلاد الجبلية نحو معاقل الثوار متخذا الحيلة في سلوك الدروب والمفاوز وحراستها، ولكن فاجاته قوات بابك في مضائق الجبال من كل وجه فانهمز الجيش وقتل ابن حميد وظل الثائر معتصما بجبال اذربيجان حتي وفاة المأمون سنة ٢١٨ هـ .

الي جانب الثورة المذهبية المسلحة هذه، عرف مركز الدولة حركة دينية اشبه ما تكون بحركة الزنادقة علي عهد المهدي، وهي التي تسميها بمحنة خلق القرآن . اذ أهتم المأمون بالمسائل الدينية . وتدخل في الجدل بين المعتزلة واهل السنة . ومع ان العامة لم تهتم كثيرا بمسألة القضاء والقدر الا انها اهتمت اهتماما بالغا بمشكلة خلق القرآن، اذ اعتنق المأمون رأي المعتزلة في أن القرآن مخلوق وأظهر ذلك سنة ٢١٢ هـ وبدأ يجبر القضاة والفقهاء والائمة علي اعلان "خلق القرآن" واتخذ اجراءات شاذة ضد من لم يعتنق هذه الفكرة فترك الاستعانة به وربما ذهب الي ابعد من ذلك لعاقبه .

- ٢١١ -

وكان الهدف من هذه الحركة مزدوجا كما هي العادة . فالخليفة
الي جانب اهتمامه بالحياة الروحية لشعبة ورغبته في شغل رعيته
بهذه المسألة واكتساب محبة الرعية ايضا، كان يعمل علي أن تكون
هذه المشكلة الدينية وسيلة لان يتخلص «من اعدائه السياسيين ممن
لا يدينون بهذه الفكرة» وعرف المأمون كيف يربط بين الجهاد في
سبيل الله ضد بيزنطة وبين هذه الحركة الدينية . فهو يهتم بها
اهتماما جديا في اواخر ايامه اثناء وجوده سنة ٢١٨ هـ في
شغور الروم، تماما كما حدث ايام المهدي من اهتمامه بامر الزنادقة
اثناء توجهه لحرب الروم . فهو يكتب الي بغداد في امتحان
الفقهاء والقبضاة وطلب انقاذ بعضهم اليه ليمنتحنهم شخصا .

ومن المهم متابعة استجابات هؤلاء الاشخاص المهرة الذين
يبحثون عن أجوبة لاتجرح ضمائرهم ولا تضر بمبادئهم فعندما سئل
بشر بن الوليد عن رايه في القرآن قال: قد عرف مقاتلي امير
المؤمنين غير مرة- " فلما قيل له قد تجدد كتاب امير المؤمنين
قال: اقول القرآن كلام الله، وعندما رد عليه بأنه لم يسأل عن هذا
وانما المطلوب معرفة ماذا كان القرآن مخلوقا قال: الله خلق كل
شيء "قبل له" فما القرآن شيء فقال "نعم" قبل له "فمخلوق ع" .
قال "ليس بخالق" .

ولما سئل احمد بن حنبل، مات قوله في القرآن قال كلام الله
قيل له "مخلوق هو" كلام الله ما ازيد عليها، فامتنح .

وكتب اسحق بن ابراهيم «المتحن - خليفة المأمون ببغداد» مقالات القرم واحدا واحدا وارسلها الي المأمون فاجاب بان ذمهم . ولكنه كتب اليه ان يمتحن بشر بن الوليد وابراهيم بن المهدي «المدعي الخلافة ببغداد سابقا» وامره ان يضرب عنقهما ان لم يجيبا، أما عن سواهما فيحملون الي معسكره موثقين بالحديد . رفعا شد احمد بن حنبل في الحديد ومعد اخر «محمد بن نوح» ووجها الي طرسوس في انتظار عودة المأمون من ارض بيزنطة الا ان خبر موت المأمون وملهم وهم بالركة ، فعادوا الي بغداد .

الحرب مع الروم:

أما عن سياسة المأمون ازاء بيزنطة فرغم أنه لم يكن معتادا قيادة الحملات العسكرية شخصا الا انه اضطر في اخر ايامه الي القيام بالعمليات الحربية بنفسه ضد امبراطورية القسطنطينية . فبعد انقطاع الغارات الاستعمارية بمناسبة الصراع بين الامين والمأمون ربما كانت مساعدة البيزنطيين لبابك الذي ظل دائما يرفع رأيه العصيان باذربيجان والذي ازداد خطره اخيرا سببا في ان يقوم بغارة كبيرة علي آسيا الصغرى سنة ٢١٥ - ٨٣٠ م وخلال ٣ سنوات متتابعة استمر الخليفة في الاشتراك في الصوائف .

ففي أول سنة ٢١٥ هـ توجه علي رأس حملة كبيرة الي

شغور الروم واستصحب معه ابنه العباس، كما استدعي اخاه المعتصم من مصر، والتتي به هذا الاخير قرب الموصل، ومن الموصل اتجه الي منبج ثم دابق ثم انطاكية ثم المصيصة وطرسوس. ومن طرسوس دخل الي الاراضي البيزنطية في جمادي الاولى هذه الغارة عمت كثيرا من نواحي اسيا الصغرى. فالعباس دخل من جهة ملطية يخرب ويدمر وفتح المأمون حصن ماجدة بالامان ثم حصن قرة عنوة وهدمه. ووجه القائد التركي اشناس الي حصن سندس ووجه قائدين اخرين الي حصن سنان، فخضع قائد الحصنين لشروط المسلمين. وعندما حل الشتاء عاد المأمون الي الشام «دمشق».

ولما تحسنت الاحوال الجوية في السنة التالية ٢١٦ هـ رجع المأمون الي ارض الاعداء وكان الامبراطور قد قام باعمال انتقامية ضد طرسوس والمصيصة وتمكن المسلمون من الاستيلاء علي عدد كبير من الحصون «٣٠» حصنا افتتحها المعتصم لاسيما هرقله التي خرج اهلها عنها بعد ان اخذوا الامان وكذلك مطمورة. واستمرت الصائفة ٤ اشهر «جمادي الاولى - ١٤ شعبان» ثم عاد المأمون من جديد الي الشام.

وفي سنة ٢١٧ هـ حاصر الخليفة اكبر الحصون البيزنطية علي الحدود وهو حصن لؤلؤة طوال الصائفة تقريبا «١٠٠ يوم» ثم

- ٢١٤ -

رحل عنه تاركاً أحد قواد «عجيف» علي حصاره واضطر الباسليوس
تيوقيل.

الي طلب السلم بعد سقوط الحصن ملحا «ارسل ملك الروم يطلب
المهادنة فلم يتم ذلك».

وفي سنة ٢١٨ هـ سيعود المأمون الي ارض شغور الروم
ويوجه ابنه العباس الي طوانة ليحصنها بالحاميات ، وتم بناء
الحصن فعلا وارسل الي البلدان في طلب المقاتلة للحصن
واجري لهم العطاء السخي «الفارس ١٠٠ درهم والراجل ٤٠
درهما» ولو ان هذا لم يتم ففي هذه الاثناء عرض المأمون مرضه
الذي مات فيه اذ فاجاته المنية قرب طرسوس حيث دفن.

الفصل الحادى عشر

التشريع

التشريع

تركنا التشريع في العصر الأموي، وأظهر مميزات انقسامه إلى قسمين: أهل الرأي، وأهل الحديث، وقد تجلي ذلك أكبر جلاء في آخر العهد الأموي، وأول العهد العباسي، وزاد الخلف بين الطائفتين، وتميزتا علي مرور الزمان، وأصبحت أعلام كل مدرسة من المدرستين جليلة واضحة مغايرة لأعلام الأخرى في الشارة واللون وما إلى ذلك، ويجمل أعلام مدرسة الحديث الحجازيون، وخاصة الدينيين، وعلي رأسهم مالك بن أنس وتلاميذه، ويحمل أعلام مدرسة الرأي العراقيون وخاصة الكوفيين، وعلي رأسهم أبو حنيفة النعمان.

وفخر العراقيون بأنه قد نزل بين أظهرهم أعلام من الصحابة، كعبد الله بن مسعود، وعلي بن أبي طالب، وسعد بن أبي وقاص، وعمار بن ياسر، وأبي موسى الأشعري وغيرهم. وقال الحجازيون أن من تفرق من الصحابة في الأمصار أقل عدداً ممن في الحجاز فإن النبي صلى الله عليه وسلم بعد رجوعه من حنين ترك بالمدينة نحو اثني عشر ألف صحابي، مات بها نحو عشرة آلاف، وتفرق في سائر الاقطار نحو ألفين.

وفي الواقع اذا حصرنا نظرنا في الحديث، وجدنا الأولوية للحجازيين، فأكثر الصحابة كانوا بالمدينة، وهم أعرف الناس بحديث رسول الله، وأخبر بقوله وعمله حتي من رحل منهم إلى العراق وسائر الأمصار فانها كانوا غارية من الحجاز. وقد خلف هؤلاء - كعلي بن أبي طالب، وعبد الله بن مسعود - الحديث في المدينة كما خلفوه في

العراق، ففضل الحجازيين في هذا لا ينكر، ولهذا اذا تجادل الحجازيون والعراقيين في هذا الباب كان الحجازيون اقوي واقهر، بل عابوا علي العراقيين أنهم يتزايدون في الحديث الصحيح، ويكثرون من الحديث الموضوع. قال مالك: "اذا جاوز الحديث العرتين ضعفت شجاعته"، وكان مالك يسمي الكوفة "دار الضرب" يعني أنها تصنع الاحاديث وتضعها، كما تخرج دار الضرب الدراهم والدنانير، وقال ابن شهاب: "يخرج الحديث من عندنا شبرا فيعود في العراق ذراعاً".

وسبب ذلك أن حديث رسول الله بدأ وختم في الحجاز، والمعتصمين لرسول الله كثيرون، ومن العسير الكذب في حادثة شاهدها الكثير، أو في قول سمعه الجهم الغفير وليس الشأن كذلك في العراق، فبعده عن الحجاز يجعل اصطناع القول ممكناً. هذا إلي أن اغلط المسلمين من الأمم المختلفة كانوا في العراق أكثر منهم في الحجاز وفيهم من لم يصل الايمان إلي أعماق نفسه فلا يتخرج من اختلاق حديث أو رواية خبر غير صحيح، مادام ذلك يعلي شأنه ويؤيد دعواه، وعامل آخر، وهو ظهور المذاهب المختلفة في العراق، من معتزلة ومرجئة وأصناف من المتكلمين، وليس يجاريهم في ذلك أهل الحجاز، لبساطة أهل في الحياة والعقيدة، وفي كل صف من هؤلاء من رأي أن يؤيد حجته ورأيه بتأويل آيات القرآن واختلاق الحديث كما أسلفنا.

علي أن الحجازيين وان بزوا العراقيين في الحديث، فقد بزهم العراقيون في الرأي، وهو مايسمي "القياس"، وكان ذلك طبيعياً أيضاً، لأن الأحداث تتبع في كثرتها وقتلتها المدنية، فإذا كانت

معيشة قوم ساذجة بسيطة، كما هو الشأن في الحجاز كانت مسائلها الاقتصادية والجناية وأحوال الأسرة ساذجة بسيطة وأن تعقدت الحياة وعظمت المدينة كما هو الشأن في العراق، تعقدت الأحداث الاقتصادية والجناية والاجتماعية وتنوعت، وكل هذه الأحداث تحتاج الي تشريع وأحاديث رسول الله [ص] التي كانت معروفة بالحجاز تكفي بنصها علي وجه التقريب للالتاء بما يقع في الحجاز من أحداث، للشبه الكبير بين عهد مالك وعهد النبي [ص]، وليس كذلك الشأن في أحداث العراق، فهي كثيرة معقدة، متنوعة . بالعراق دجلة والفرات وما يتطلب ذلك من ري وخراج ليس مثلها في الحجاز، وفي العراق مال وفير يصب صبا، والمال يتبعه الترف والنعيم، واللهو والاجرام، وخلق مشاكل تحتاج الي فتاوى ليس مثلها في الحجاز، وبالعراق اغلاط من فرس وبوم ونبط وغير ذلك لهم عادات اقتصادية واجتماعية وليس مثلها في الحجاز فلئن كفي الحديث في الحجاز وحاجتهم قليلة وحديثهم كثير، فليس في العراق وحاجتهم كثير وحديثهم قليل - لذلك اضطروا الي اعمال الرأي فيما لم يرد فيه نص، والتوسع في النص بالوضع - ورأينا النزاع يشتد حول القياس وجوازه وعدم جوازه، وكانت معركة كبيرة نجمل أمرها فيما يلي:

لعب القياس دوراً كبيراً في العصر العباسي، وشغل حيزاً كبيراً من العلوم، فالقياس في أصول الفقه، وفي الفقه، وفي اللغة، وفي النحو، وفي المنطق، والذي يهمنا الآن منه في التشريع.

اصل القياس أن يعمل حكم في الشريعة لشيء فيُقاس عليه أمر آخر لاتحاد العلة فيهما، ولكنهم توسعوا في معناه أحياناً فأطلقوا علي

النسب والبحث عن الدليل في حتم مسألة عرضت لم يرد فيها نص، وأحياناً يطلقونه علي الاجتهاد فيما لانص فيه . وبعبارة أخرى جعلوه مرادفاً للرأي، ويعنون بالرأي وبالقياس بهذا المعني أن التقية من طول ممارسته للأحكام الشرعية تنطبع في نفسه وجهة الشريعة في النظر الي الأشياء، وتتمن ملكاته علي تعرف العلل والأسباب، فيستطيع اذا عرض عليه أمر لم يرد فيه نص أن يري فيه رأياً قانونياً متأثراً بجو الشريعة التي ينتمي اليها، وبأصولها وقواعدها التي انطبعت فيه من طول مزاولتها، ومن أجل ذلك ذموا الرأي الذي يصدر ممن ليس أهلاً للاجتهاد، والرأي الذي لاتسند أصول الدين، وهذا الرأي أو القياس كان مثاراً للنزاع بين العلماء منذ العصر الأموي كما أبنا ذلك في فجر الاسلام حتي بين اصحابهم فمنهم من كان يتشدد فلا يفتي الا بما ورد فيه نص من كتاب أو حديث كعبد الله بن عمر، ومنهم من كان يبدي الرأي فيما يعرض من الحوادث التي لم يرد فيها نص، كعمر وعبد الله ابن مسعود وغيرهما، وروي في ذلك الشيء الكثير . واستمر النزاع بين النزعتين يقوي ويشدد الي العصر العباسي، وأصبحت رئاسة أهل الرأي لفقهاء الكوفة، وأهل الحديث لأهل المدينة، وفي الواقع لم يخل امام من الأئمة - سواء كلن من أهل الرأي أم الحديث - من القول بالرأي، وهو مضطر الي ذلك لأن التقدم في المدينة يخلق كل يوم حوادث جديدة تحتاج لفتوي الفقهاء، ولايعد فقيهاً حتي يفتي فيها ولكن الفقهاء اختلفوا درجات متفاوتة في مقدار الأخذ بالرأي والاعتماد عليه، فمنهم من ضيق أمره، ومنهم من توسع، ومنهم من توسط كما سيأتي بيانه، وكان هذا من أهم الأصول التي خالفت بين الأئمة في التشريع .

وبينما نرى الخلاف بين الأئمة في الرأي في هذا النحو، نرى مسألة أخرى تثار، لها اتصال كبير علي ما يظهر لي بمسألة الرأي والقياس، هي "مسألة التحسين والتقبيح العقلين"، وهي مسألة اثارها المعتزلة، ومدارها هو: هل في الافعال صفات من حسن أو قبيح جعلت الشارع يأمر بها، أو ينهي عنها؟ فلولاً ما في الصدق من صفة لها أمر به، ولولا ما في الكذب من صفة لها نهي عنه؟ أو أن الشارع يأمره بالصدق جعله حسناً، وينهيه عن الكذب جعله قبيحاً؟ ولو شاء لعكس، هذه مسألة عاصرت القياس والرأي، وفي نظري أنهما مسألتان متساندتان، فمن كان يرى أن في الأفعال صفات من أجلها أمر بها الشارع أو نهي، قال: أن هذه الصفات يمكن ادراكها بالعقل، ولذلك يكون الرأي في امكانه كشف هذه الصفات وتعرفها وامدار حكم فيها، وذلك يجعل له حرية كبيرة في التشريع. ومن قال بعدم الصفات اللاتية، وأن أمر الشارع هو الذي يحسن ويقبح، كان من الطبيعي أن يقف في اجتهاده علي النص، وكل ما يستطيع في الاجتهاد أن يلحق الشبيه بشبيهه، وطبعي أن يذهب الحنفية إلي الرأي الأول، وأن العقل يستطيع ادراك مافي الشئ من صفات حسن أو قبح، وأن الانسان لو لم تبلغه دعوة فلا عذر له في الجهل بخالقه لدلالة العقل عليه، وهو ملزم بفعل الحسنات وترك السيئات لأن العقل يرشد الي ذلك، واصبحت هذه المسألة من مسائل أصول الفقه.

واخذت المسألة دوراً كبيراً في الجدل بين أصحاب الرأيين فيقول - مثلاً أحد الفريقين، وهو المنكر للتحسين والتقبيح العقلين: أنا نرى الشريعة قد فرقت بين المتماثلين وجمعت بين المختلفين، ولو كان الأمر بالعقل لجمع بين المتماثلين وفرق بين المختلفين، فالشارع أوجب

قضاء السرم علي الحائض دون الصلاة، مع أن الصلاة أولى بالمنفعة. عليها، وحرم النظر الي العجوز الشوهاء القبيحة المنظر إذا كانت حرة، وجوزه الي الشابة البارة الجمال اذا كانت أمة وأكتفي في القتل بشاهدين دون الزنا، وحرم المطلقة ثلاثا علي الزوج المطلق ثم أباحها له اذا تزوجت بغيره، وحالها في الموضعين واحدة، وأباح للرجل أن يتزوج أربعاً، ولم يبيع للمرأة الا رجلاً واحداً، مع قوة الدواعي من الجانبين وقطع يد السارق لكونها آلة المعصية، فأذهب العضو الذي تعدي به علي الناس، ولم يقطع اللسان الذي يقذف به المحصنات، ولا العضو الذي يزني به، وأوجب الزكاة في خمس من الابل، وأسقطها عن عدة آلاف من الخيل الخ. الخ. فلو كان الأمر بالعقل لكان الحكم غير هذا، فكيف نترك الحكم للرأي، وكيف نقول بالحسن والقبح العقليين؟

وقد رد عليهم الآخرون ردوداً طويلة مجملة ومفصلة بأبديت فيها آراء مختلفة في عصور مختلفة، ومن هؤلاء من توسط فجعل للعقل سلطان ومقدرة علي المعرفة في غير العبادات، أما العبادات فلها لا دخل للعقل فيها.

علي كل حال لو رسمنا دوائر تمثل المذاهب في استعمال الرأي لكان أصغرها دائرة الظاهرية، ثم الحنابلة ثم المالكية، ثم الشافعية، ثم الحنفية وقد اتخذ بعض أنواع الرأي أسماء خاصة، كالأستحسان، والمصالح المرسلة. فالأستحسان قد عرفوه تعريفات مختلفة، أقربها إلي فهم أن يكون في المسألة شبه بمسألة أخرى ورد فيها نص، وكان من مقتضي ذلك أن يقيس الفقيه هذه المسألة علي المسألة التي ورد فيها النص، ولكنه لا يفعل ذلك ويترك هذا القياس الي تقدير المسألة

بـقتضي العدالة، فهو يبحث عن العدالة المطلقة في المسألة ويصدر
مراعاتها حكمها، وهذا - كما تري - أوغل في باب الرأي. وقد قال
بالاستحسان الحنفية، وأنكره الشافعية، وروي عن الشافعي في ذمة أنه
قال قال "من أستحسن فقد شرع".

وقريب من هذا ما يسمي "الاستصلاح" أو "المصالح المرسلة" وذلك
أن الشارع - كما قالوا - يدور في تشريعه علي حفظ أمور خمسة
وهي: الدين، والنفس، والعقل، والنسل والمال ولو استقرينا أوامر
الشرع ونواهيه لوجدنا علته كذلك، فإذا عرضت مسألة من المسائل لم
يرد فيها نص فيما يترتب علي الأمر من المصالح والمضار، وقدرنا ذلك
كله، وأمدرنا حكمنا بحله أو حرمة. وقد مثلوا لذلك بكفار تترسوا
بجماعة من أسري المسلمين، فلو كففنا عنهم لقاتلوا وغلبوا علي دار
السلام وقتلوا المسلمين، ولو رمينا الترس لقتلنا مسلماً معصوماً لم
يذنب ذنباً، فقالوا أن المصلحة تقتضي القتال ولو قتل الترس، لأن
مقصود الشرع تقليل القتل، أو منعه عند الامكان، وفي مقاتلته الكفار
تحقيق لهذا، لأنه اذا لم يفعل قتلوا المسلمين ثم قتلوا الأسري،
فالأسير مقتول علي كل حال، وأقرب الطرق الي تقليل القتلي هو
مقاتلة الأعداء ولو تترسوا بالمسلمين، فتري من هذا أنهم يعنون
بالاستصلاح أو بالمصالح المرسلة وزن مايعرض من المسائل يعيزان
المصلحة العامة، أو بأغراض الشارع العامة، أو بالقواعد الأساسية التي
جاءت من أجلها الشرائع، وهو ضرب من الرأي أو مراعاة العدالة يدعو
إلي نوع من الحرية في التشريع.

والآن نستعرض في ايجاز المسلك الذي سلكه أهل الحديث،
والمسلك الذي سلكه أدل الرأي.

توفي رسول الله [ص] وخلف كتاب الله، وأحاديث حدث بها،
وأفعالا فعلها، وقد شاهد ذلك كله أصحابه وسمعوا منه، ومن الصحابة
من سمع بعض قوله دون البعض، ومن رأي بعض أفعاله دون البعض،
ثم تفرقوا في الأمصار عند الفتح، فمنهم من نزل العراق، ومنهم من
نزل الشام، ومنهم من نزل مصر، وكان كل جمع من الصحابة ينزل
مصرًا يروي ماسمعه وما رأي من رسول الله، ولم يكن ذلك كله مدوناً،
أنما كانوا يقولونه شفاهة، وقليل منهم من يكتب. وظهر بعد ذلك
مصدراً آخر، وهو أن كبار الصحابة وعلماءهم كانت تعرض عليهم بعض
الاحداث ممن لم يعرفوا فيها نصاً من كتاب ولا حديث، فيجتهد برأيه
ويقول فيها قولاً، وكان هذا القول فيما بعد يعد مستنداً من
مستندات التشريع، لأنه صدر عن صحابي كبير، عاشر النبي زمناً
طويلاً، وعرف مناحي الشريعة ومجراها وأحياناً يتبين أن هذا الرأي قد
صدر فيه حكم النبي، ولكن هذا الصحابي لم يعمل كالكاذب روي أن عبد
الله بن مسعود سئل عن امرأة مات عنها زوجها، وكان لم يعين لها
مهرًا، فقال: لم أر رسول الله يقضي في ذلك، فألحوا عليه فاجتهد
رأيه وقضى بأن لها مهرًا كالذي يقرض لمثلها، لاوكس ولاشطط،
وعليها العدة ولها الميراث، فقام معقل بن يسار فشهد بأن رسول الله
قضى في مثل هذه المرأة بمثل هذا الرأي، ففرح ابن مسعود فرحة لم
يفرح مثلها بعد الاسلام. وأحياناً يظهر حديث يخالف رأي الصحابي
فيعدل عنه، كالذي روي أن أبهريرة كان يرى أن من أصبح جنباً فلا

صوم له، حتي أخبرته بعض نساء النبي بغير ذلك فعدل عن قوله.

علي كل حال زادت مراجع التشريع مرجعاً وهو فتاوي الصحابة، وليس ماخالفه الصحابة قاصراً علي مآذرت، بل هناك أمراً آخر وهو أن الحديث قد يكون قد ثبت عن الرسول، ولكن اختلفت أنظار الصحابة في توجيهه وتفسيره وتأويله، أو أن الحديث قد نسخ بحديث آخر بلغ بعضهم ولم يبلغ البعض، مثال الأول ما روي أن رسول الله أسرع في الطواف مرة، فذهب كثيراً إلي أن الرمل في الطواف سنة، وقال ابن عباس ليس بسنة، أنها فعله النبي لسبب عارض، وهو أنه قد بلغه قول المشركين حطمتهم حمي يشرب، فأراد أن يظهر لهم بالأسراع القوة والنشاط، وليس بسنة؟ ومثال الثاني أن النبي رخص في نكاح المتعة عام خبير وعام أوطاس، ثم نهى عنها، فاختلفت الصحابة في ذلك وفي نسخة، وقد يثبت الحديث أيضا ولكن يختلفون في علته، كالذي روي أن رسول الله قام للجنائز، فاختلوا في تعليل ذلك، فقال قوم: ذلك لتعظيم الملائكة تحف بالميت، أو لهول الموت، فيعم الوقوف للميت والكافر، وقال قوم: أنها كانت ليهودي، فكرة أن تعلقوا فوق رأسه، فالقيام يخص الكافر الخ.

فلما جاء عصر التابعين زادت المصادر مصدراً علي النحو الماضي، فكان من كبار التابعين من له فتاوي في حوادث لم تكن في عهد النبي ولا الصحابة وكان لكل كبير من كبارهم آراء في تفسير بعض الآيات القرآنية، وآراء في تأويل الحديث وآراء في فتاوي الصحابة، كما كان لهم آراء في تقدير الصحابة وتقويمهم من الناحية الفقهية، فمن التابعين من يفضل أقوال عبد الله بن مسعود علي غيره، ومنهم من

يفضل آراء علي وابن عباس، الي غير ذلك، ويغلب أن هذا الترجيح يرجع الي البلد الذي فيه الصحابي والتابعي وتابع التابعي . فهو يتتلمذ للصحابة الذين كانوا في بلده، ويأخذ بقولهم، يفضل روايتهم .

وجاء بعد التابعين طبقة أخرى تعمل عمل التابعين وهكذا، فعمر وعثمان وعبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس وزيد بن ثابت كانوا أئمة المدينة، وجاء بعدهم تلاميذهم، ومن أشهرهم سعيد بن المسيب، وسالم بن عبد الله بن عمر، ومن بعدهما الزهري، ويحيى بن سعيد، وربيعه الرأي ومن بعدهم مالك، لذلك كان مالك أعلم الناس بقضايا عمر وأقوال عبد الله بن عمر، وعائشة ومن ذكرنا، وكان عبد الله بن مسعود وعلي في الكوفة، ثم شريح والشعبي، ثم علقمة وإبراهيم النخعي، وتمت السلسلة الي ابي حنيفة . وتعصب كل قوم لسلسلتهم، فكان مالك ينهج منهج من ذكرنا من أعلم مدرسته، وأبو حنيفة كذلك، قال أبو حنيفة مرة لمناظره: " ابراهيم أفقه من سالم، ولولا فضل الصحبة لقلت علقمة أفضل من بن عمر" . وكما كان مالك أعلم الناس بأحاديث المدينة وقضايا علماء الصحابة المدنيين وتابعيهم وفتاويهم وآرائهم، وكان أبو حنيفة أعلم الناس بقضايا عبد الله ابن مسعود وعلي ابن أبي طالب، وغيرهما من صحابة العراق وفتاويهم وآراء التابعين من الكوفيين . ولما جاء دور التدوين في العصر العباسي رأينا مالكا يجمع هذا الذي ذكرنا في كتابه الموطأ، والعلماء العراقيين يجمعون فتاوي أئمتهم ومشايخهم في الكتب .

ووجد كثير من علماء المدينة كسعيد بن المسيب والزهري يكرهون الرأي والقول به، ويهابون الفتيا ويعدونها محنة، وساعدهم

علي تحقيق نزعتهم ما أشرنا اليه قبل من كثرة الحديث عندهم، وقلة الأحداث التي تعرض لهم. وحملتهم هذه النزعة ايضاً علي أن يرحلوا الي البلاد يجمعون الأحاديث التي لم يروها رجال المدينة، فمنهم من رحل الي العراق، ومنهم من رحل الي الشام ومصر، فإذا استقتوا رجعوا الي الكتاب، فان وجدوا فيه نصاً عملوا به، وإلا رجعوا إلي الحديث، فكذلك، وان رأوا أحاديث مختلفة فاضلوا بينها بالراوي من حيث العلم والصدق، فإذا لم يجدوا حديثاً رجعوا الي أقوال الصحابة والتابعين فأخذوا بقولهم، فان اختلف الصحابة والتابعون فاضلوا بين أقوالهم وخاصة أقوال أئمة بلادهم، فان لم يكن شئ من ذلك رجعوا الي أصول الكتاب والسنة، فنظروا الي اشارتها ومقتضياتها لعلم يجدون مشبهاً لما عرض، أوقع في نفسهم حكمة للأمر أو النهي أو الحل والحرمة تنطبق علي هذه المسألة.

بجانب هؤلاء كان قوم من أهل الرأي وخاصة في العراق، يتهيبون الحديث كما يتهيب الأولون الرأي، ويستعظمون "قال رسول" كما يستعظم الأولون "اجتهد رأيي" ولعل ذلك سببه أدراك مافي الأمر من صعوبة في اثبات نسبة الحديث الي رسول الله والاستيثاق من صحته. قال ابراهيم النخعي، وهو من علماء الكوفة أقول قال عبد الله [يعني بن مسعود] وقال علقمة أحب الينا من اجل ذلك قل الحديث عندهم، وكانوا أجراً علي الرأي، بل لم يقتصروا في الافتاء علي مايقع من أحداث، وما أكثرها في العراق، بل تعدوا الي فرض القروض لئلا قال رجل لامراته أنت طالق نصف طليقة أو ربع طليقة فماذا يكون الحكم؟ ولو قال أنت طالق واحدة بعدها واحدة فماذا يكون الحكم؟ ونحو ذلك كان الأمر أصبح مرناً عقلياً كمسائل الحساب والجبر

والهندسة، ومرتوا علي ذلك مرناً عجيباً وخاصة أبا حنيفة كما سيأتي. فكان لهم قدرة فائقة علي قياس الأمر بأشباهه، واستخراج العلل والأسباب، ووجوه الفروق والموافقات، وقد اشتراكوا مع المدرسة الأولى في العمل بالكتاب والسنة وأقوال الصحابة والتابعين، ولكنهم اختلفوا عنهم في أمور:

منها ذكرنا من قلة الحديث والمبالغة في اشتراط صحته، وعدم التحرج من الرأي كالذي أسلفنا، ومنها أن أهل العراق لهم مشايخهم وصحابتهم، ولأهل المدينة مشايخهم وصحابتهم، ومنها: أن أهل العراق فلسفوا الفقه بمسيرة المنطق، والتوسع في التعليل العقلي، والتوسع في الاستنباط، والدقة في استخراج وجوه الشبه ووجوه الفرق، وكان طريقتهم جمع ماروي عن جلة الصحابة والتابعين الذين نزلوا في العراق من الحديث والفتوي والاستنباط، ثم يحفظون ذلك فإذا عرضت لهم مسألة فإن ورد فيها شيء من الكتاب والسنة أفتوا به، وأن لم يكن فيها رأي من آراء مشيختهم نظروا فيه، وألا استنبطوا الحكم من علة لهذه الفتاوي أو إشارة أو إيحاء، أو بحثوا عن حكم الحكم ثم عمموا الحكمة في المسألة التي عرضت، أو ألفوا علتين أو حكمتين، استنبطوا الحكم منهما، أو جدوا في طلب شبه لهذه الحادثة وقاسوها عليه، فإن لم يكن شيء من ذلك رجعوا إلي ما يكتسبه المجتهد من طول المزاولة وادمان النظر، مما يصح أن نسميه "الدوق القانوني" يري به وجه الحكم، وأي الأحكام أقرب إلي العدل، وأكثر تحقيقاً للمصلحة وقد سموا هذه الطرق في استخراج الأحكام "تخريجاً".

وقد كان في كل مدرسة غلاة متطرفون، كما كان فيها معتدلون،

فمن مدرسة الحديث من غالا فمنع القياس والقول بالرأي، وتصر نفسه علي الفتوي فيها ورد فيه نص من كتاب أو سنة، وهرب من المسائل التي بهم يجد فيها نصاً، ومنهم من اعتدل فأجاز العمل بالرأي في حدود معينة . ومن مدرسة الرأي من غالا حتي لم ير العمل بالحديث، لأن الأحاديث يعتورها الشك، فليس يسلم راو من غلط أو نسيان أو خطأ في حديثه، ومنهم من اعتدل فعمل به في حدود معينة، فإذا لم يستوف الشروط لجأ الي الرأي . وقد رأينا قبل أن ابن المقفع نقد حال المشرعين في زمانه، وقال أن منهم من زعم أنه التزم السنة، وقد غالا فيها سماه سنة ومنهم من غالا في استعمال الرأي حتي بلغ الاعتداد به أن يقول في الأمر الجسيم قولاً لا يوافقه عليه أحد وتخلص من ذلك الي وجوب وضع قانون يضعه اولو الأمر يلزم به القضاة ويعمل به في الأمصار .

ونحن اذا اردنا أن نسجل التغيرات التي طرات علي التشريع في العهد العباسي استطعنا أن نسجل الطواهر الآتية :

١- أول ملاحظة أن الأمويين - اذا استثبنا عمر بن عبد العزيز - لم يكونوا يتصلون برجال التشريع ورجال الدين علي العموم اتصالاً وثيقاً، إلا في أحوال نادرة، كاتصال الزهري بهم، بل قصر الخلفاء انفسهم علي النواحي السياسية من قمع الثورات الداخلية والفتوحات الخارجية، وتنظيم شئون الدولة المالية وما إلي ذلك، وتركوا العلماء يدرسون ويفتون، وعينوا القضاء وتركوهم يقضون بما يرون، كان السياسة منفصلة عن الدين، وكان وظيفتهم سياسية بحتة، فلما ثارت الثورة علي الأمويين واستقر الامر في يد

العباسيين، كان من أثرها صبغ الدولة صبغة دينية، ورأينا النزعة الدينية، عند الخلفاء العباسيين الأولين واضحة جلية، ورأينا اتصال الخلفاء بالعلماء ورجال الدين أقوي وأبين، فأبو جعفر المنصور يقرب العلماء ويصلهم، والمهدي يشتد علي الزنادقة وينشئ "إدارة" للبحث عنهم وتعذيبهم، والرشيد وأبو يوسف متالزمان، والهاشمي يصدر "مرسوماً" بخلق القرآن الكريم، ويقضي شرطاً من خالفته في مناقشة العلماء في ذلك وتعذيب من أنكره، ويناقش في نكاح المتعة ويريد أن يصدر أمراً في شأنه، وهكذا مما لا نجد له مثيلاً في العهد الأموي. وعلي العنوم فقد أراد العباسيون ألا يكونوا سياسيين فحسب، بل سياسيين ودينيين معاً وكان من أثر ذلك أن جماعة من اعلام العلماء عذبهم العباسيين لأنهم أبوا أن يخضعوا لوجهة نظرهم، والخضوع لسلطانهم، كمالك وأبي حنيفة وسفيان الثوري، علي حين أنا نري الحسن البصري في العهد الأموي يجلس في المسجد الجامع ويتكلم في السياسة، ويستفتي في الخلفاء والأمراء فينقدهم في شدة، ثم لا يصيبه أذى. والذي يهمنا هنا هو الناحية التشريعية، فقد كان لاتجاه العباسيين هذا الاتجاه اثر بين في التشريع وهو صبغ أعمال الدولة كلها صبغة دينية. فنظام الري، ونظام الضرائب وحذر الترع وجباية الأموال، ونظام الدواوين، كلها مسائل دينية يؤلف فيها أبو يوسف القاضي كتابه الخراج، ويستفتي فيها الفقهاء، ويجتهدون فيها اجتهداً دينياً، وهكذا كل ما دق من الأمور وعظم مرجعه فتوي المفتين وقضاء رجال الدين، وهذا من غير شك - يجعل مهمة الفقهاء واسعة النطاق.

٢- ويتصل بهذا الأمر ان الفقه في العصر العباسي تضخم ونما
 نهوا كبيراً، وسبب هذا أمور ، منها: ما أشرنا اليه قبل من عمل
 العباسيين في ميخ الأمور كلها صبغة دينية، ومنها أن طبيعة النظام
 الذي جري عليه الفقهاء تجعل المأثور يتزايد مع الزمن، فبعد أن كان
 في عهد الصحابة المأثور هو حديث رسول الله، أصبح في عهد
 التابعين المأثور أقوال الرسول وكبار الصحابة، وفي عهد تابعي
 التابعين المأثور هذا وقول التابعين وهكذا . فكلما جاء جيل ورث عن
 قبل آراء المجتهدين، وفتوي المفتين، وقضاء القضاة، وسبب ثالث
 وهو أن مدرسة الرأي لم تكتف بما يحدث من أحداث بل كأنها فرحت
 بما لديها من وسائل الاجتهاد وأدوات القياس، والقدرة علي "التخريج"
 فأباحت اشارة المسائل الفرضية، وتبدي فيها رأيها، وتستعمل قياسها
 حتي فرضوا المستحيل والبعيد الوقوع، وأكثروا الفروض في أبواب
 الرقيق والطلاق والايمان والذر وكثرة لاحد لها، وبدأ بذلك
 العراقيون . ثم تبعهم فيها بعد الشافعية والمالكية ومن اسباب
 التضخم أن المملكة الاسلامية أصبحت في صدر الدولة العباسية بعيدة
 الأطراف، تضم بين جوانبها أمما مختلفة لكل أمة عادات اجتماعية،
 وعادات قانونية، وطرق في المعاملات، ولكل أمة دين له تقاليده، فلما
 دخلت هذه الامم في الاسلام واستقرت الأمور في العهد العباسي،
 وصبغت الأمور كلها صبغة دينية، وتفرق الائمة في الامصار عرضت
 هذه العادات والتقاليد علي الائمة، فعرضت أمور العراق علي ابي
 حنيفة وأمثاله، وفيها العادات الفارسية والعادات النبطية وغيرها،

وفيهما نظم القضاء الروماني، وماكان يجري في المعاملات وطريقة التقاضي، وعرضت أمور مصر علي الليث بن سعد والشافعي وأقرانهما، وفيها العادات المصرية والرومانية كذلك، ونحو هذا، فكان من عمل هؤلاء الأئمة "تسليم" هذه العوائد والتقاليد، أعني النظر اليها بالقواعد العامة للإسلام وأقرار بعضها وإنكار بعضها وتعديل بعضها، وهذا، وبلا شك باب واسع من الأبواب التي تضخم التشريع وتغديه، وهذا أيضا قد جعل كل مصر يغذي التشريع غداء خاصاً، قد لا يكون في غيره. وقديماً كانت مكة تغذي الفقهاء بهناسك الحج وبشلون التجارة كما كانت المدينة تغذي الفقهاء أكثر من مكة في شلون الزراعة، وبأعمال رسول الله في المدينة. فلما فتحت الأمصار ظل الأمر علي هذا الحال، فدجلة والفرات ونظامهما قد غدياًبا يوسف في آرائه في كتاب العراج، ومعاملة العراقيين في المزارعة والمساقاة والاستصناع غدت لغة العراق، ونظام النيل وعوائد المصريين غدت الشافعي في مذهبه الجديد - كما سيأتي - وعلي الجملة فكانت هناك عوائد عربية في جزيرة العرب، وعوائد فارسية في العراق، وعوائد رومانية في الشام، وعوائد رومانية واغريقية ومصرية في مصر، كلها عرضت علي الأئمة و"سلمت".

فلما كثرت الرحلات بين العلماء - كما أشرنا قبل - وأصبح من واجبات طالب العلم الأولية ان يرحل الي الامصار المختلفة ويأخذ عن علمائها، زالت الحدود والفواصل التي تميز كل طائفة من المشرعين في مصر، فاستفاد العالم العراقي من الحجازي، والمصري منهما، وكل منهم نقصه، واستفاد فيما هو مقتصر فيه، والماد فيما هو غني به.

وهكذا عملت الرحلات في تطعيم كل شجرة من أشجار العلم، كما عملت في تقريب الوانها وطعومها، ومن ذلك التشريع، فنري ربيعة الرأي المهدي يرحل الي العراق ثم يعود إلي المدينة، ومحمد بن الحسن العراقي صاحب أبي حنيفة يرحل الي المدينة ويقرا موطأ مالك ويعود الي العراق، والشافعي يرحل الي المدينة والي العراق والي مصر وهكذا، ومن أجل هذا أصبحنا نري الفروق علي توالي الأزمان تقل بين مدرسة الحديث ومدرسة الرأي بما يأخذ الأولون من رأي الآخرين، وما يأخذ الآخرون من حديث الأولين وأصبحنا نري كتب المذاهب تتشابه، والفروض في كل المذاهب تكثر - وعلي الجملة يتأثر كل ما أمتاز به كل.

٣- من مميزات هذا العصر كذلك كثرة إختلاف الفقهاء ونشاطهم في الجدل والمناظرة، فقد اختلفوا وتعددت أسباب اختلافهم، من ذلك اختلافهم في قوله تعالى: "والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء"، هل القراء الطهر أو الحيض؟ فذهب الحجازيون من الفقهاء إلي أنه الطهر، وذهب العراقيون الي انه الحيض، وكان اختلاف الحجازيين والعراقيين تبعاً لاختلاف الصحابة في هذا أيضاً، فقد روي عن عمر وعثمان وعائشة وزيد بن ثابت أنهم قالوا الاقراء الاطهار، كما روي عن عبد الله بن مسعود أنها الحيض، وفي هذا مايدل علي ماسبق من انحياز العراقيين لابن مسعود، والحجازيين الي علماء الصحابة في المدينة، وقد يكون الاختلاف سببه تركيب الكلام وتأليف الجمل، وقد يكون سببه حمل الكلام علي الحقيقة او المجاز، وقد يكون سببه ماورد من جملة آيات أو احاديث اذا ألف بعضها مع

بعض اختلاف المدارك فيما يستلج منها وما لا يستلج، وقد يكون سببه اختلاف الاحاديث الواردة في الموضوع، وان كل مجتهد ودل اليه بعض دون بعض، اوضح عنده بعض دون بعض، كالذي روي عن عبد الوارث ابن سعيد أنه قال: "قدمت مكة فالتقيت بها ابا حنيفة، فقلت: ما تقول في رجل باع بيعاً . وشرط شرطاً؟ فقال البيع باطل والشرط باطل، فأخيت أبي ابن ليلى فسألته عن ذلك فقال: البيع جائز والشرط باطل، فأخيت ابن شبرمة فسألته عن تلك فقال: البيع جائز والشرط جائز فقلت في نفسي سبحان الله، ثلاثة من فقهاء العراق لا يتفقون علي مسألة، فعدت الي أبي حنيفة، فأخبرته بما قال صاحبه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده قال: نفي رسول الله صلى الله عليه وسلم عن بيع وشرط. فعدت الي ابن أبي ليلى فأخبرته بما قال صاحبه، فقال: ما أدري ما قال لك، حدثني هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة قالت: أمرني رسول الله ان اشتري بربرة فاعتقها، فاشتريت أهلها الولاء لانفسهم، فقال رسول الله، ما كان من شرط ليس في كتاب الله فهو باطل، البيع جائز والشرط باطل قال فعدت الي ابي شبرمة فأخبرته بما قال صاحبه، فقال : ما أدري ما قال لك، حدثني مسعر بن كدام عن محارب بن دثار عن جابر " قال : بعث النبي بغيراً وشرط لي حملاته الي المدينة والبيع جائز والشرط جائز ، وقد يكون سبب الخلاف ماورد في الحديث يصح عند قوم، ولا يصح عند آخرين . ويشترط قوم لصحة الحديث شروطاً كثيرة ان لم تتحقق فضل عليه القياس، ولا يشترط قوم هذه الشروط ويفضلون الحديث - ولو لم يستوفها - علي القياس، وقد يكون الخلاف سبب اختلاف مقدرة

الفتهاء علي القياس والاستنباط، أو اختلافهم في المقدرة اللغوية والعلم بأساليب العرب ودلالة الكلام، وقد يكون سببه الاختلاف في وجهات النظر، وتاثر كل أمام بها يحيط به من بيئة طبيعية واجتماعية والنخ.

علي كل حال كان الاختلاف بين الفقهاء كثيراً وقديماً، كان هذا الاختلاف بين الصحابة، فقد اختلف ابو بكر وعمر في قتلي مانعي الزكاة، واختلف عثمان وزيد بن ثابت وعلي في عبد تزوج حرة هل يعتبر حال الزوج فيكون اقصي طلاقها طلقتين، وبهذا قال الأولان، أو يعتبر حال الزوجة، فيكون اقصي طلاقها ثلاثاً، بذلك قال علي، وكاختلفا لهم في توريث الاخوة مع الجد، الي كثير من امثال ذلك وكانت كلما أتت طبقة زاد الخلاف لكثرة المسائل المعروضة ولكثرة المقتنين، وحتى اذا تبلورت مدرسة الحديث وتركزت في مالك واصحابه في الحجاز، وتبلورت مدرسة الرأي وتركزت في ابي حنيفة واصحابه في العراق، زاد الخلاف وكثر الجدل، واستمر النزاع، وكان اكبر الفضل في شدة المناظرة راجعاً الي مدرسة ابي حنيفة فان كثرة مسائلهم التي فرعوها، وعدم تخرجهم في ابداء الرأي فيما لم يصح فيه نص عندهم، جعل فقهاء الحديث يردون عليهم في شدة بأنهم أهملوا الحديث الي الرأي فأخطأوا، كما أن استعمال العراقيين للقياس وهو ضرب من المنطق سمح للمنطق أن يتسرب للفقه، وجعل الجدل يتشكل بالشكل المنطقي، وفي هذا تكثير للجدل والمناظرة، وفي رأيي أن هذا الجدل هو الذي الجاكبار الانمة كالشافعي الي وضع أصول الفقه: فان

المنافرة كانت تدور حول الكلمات وتحديد معانيها، والجمل وتأليفها، وموقف السنة من الكتاب، والكتاب من السنة، وعمل الصحابة وهل هو حجة أولاً، والقياس ومدي استعماله ومتي يصح ومتي لا يصح، فجرد الشافعي وامثاله هذه المسائل التي يكثر فيها الخلاف، واجتهدوا ان يرجعوا المسائل الجزئية التي يتجادلون فيها الي اصول فكان من ذلك أصول الفقه.

علي كل حال كان الخلاف كثيراً، وكان أكثر مايكون في العصر العباسي حيث تركزت مدرسة الرأي ومدرسة الحديث، فرأيدهم يتناظرون في المساجد وفي حلقات الدرس، وفي المنازل، وحين اجتماعهم للحج، ويرحلون فيتناظرون، ويلتقون اتفاقاً فيتجادلون، وملئت الكتب بهذه المناظرات والمجادلات. وللمثل لك بشئ منها، فقد رؤى الفخر الزازي: "أن محمد بن الحسن [صاحب ابي حنيفة] قال للشافعي يوماً: بلغني أنك تخالفنا في مسائل الغضب، قال الشافعي: أصلحك الله، انما هو شئ أتكلم به في المناظرة، قال فناظرني . . . قال محمد: ماتقول في رجل غصب ساحة وبني عليها جداراً وأنفق عليها ألف دينار، فجاء صاحب الساحة وأقام شاهدين علي أنها ملكه، فقال الشافعي: أقول لصاحب الساحة ترضي أن تأخذ قيمتها؟ فان رضي والا قلعت البناء ودفعت ساحته اليه، قال محمد ابن الحسن: فما تقول في رجل غصب لوحاً من خشب فأدخله في سفينة ووصلت السفينة الي لجة البحر، فأتى صاحب اللوح بشهدين عدلين، أكنت تنزع اللوح من السفينة؟ قال لا، قال، الله اكبر، تركت قولك، ثم قال: ماتقول في

رجل غصب خيطاً من ابريسم، فمزق بطنه، فخاط بذلك الا بريسم تلك الجراحة، فجاء صاحب الخيط بشاهدين عدلين ان هذا الخيط مقصوب، اكلت تنزع الخيط من بطنه؟ قال لا، قال: الله اكبر، تركت قولك، وقال اصحابه أيضاً: تركت قولك. قال الشافعي فقلت: لاتعجلوا، أرايت لو كان اللوح لوح نفسه، ثم اراد ان ينزع ذلك اللوح من السفينة حال كونها في لجة البحر، امباح له ذلك ام يحرم عليه؟ قال يحرم عليه، قلت أرايت لو كان الخيط خيط نفسه وأراد أن ينزعه من بطنه ويقتل نفسه، امباح له ذلك ام محرم؟ قال: بل محرم: قلت أرايت لو جاء مالك الساحة، واراد أن يهدم البناء، ايحرم عليه ذلك ام يباح؟ قال: بل يباح، قال الشافعي فكيف تقيس مباحاً علي محرم؟ فقال محمد: فكيف تصنع بصاحب السفينة؟ قلت أمره ان يسيرها الي أقرب السواحل، ثم أقول له انزع اللوح وادفعه اليه، فقال محمد بن الحسن: قال النبي صلى الله عليه وسلم: لا ضرر ولا ضرار في الاسلام" فقال الشافعي: من ضرره؟ هو ضر نفسه، ثم قال الشافعي: ماتقول في رجل من الأشراف غصب جارية لرجل من الزنج في غاية الرذالة، ثم أولدها عشرة كلهم قضاة سادة أشراف خطباء، فاتي صاحب الجارية بشاهدين عدلين أن هذه الجارية التي هي أم هؤلاء الأولاد مملوكة لي، ماذا تعمل؟ قال محمد: أحكم بأن أولئك الأولاد ممالكك لذلك الرجل، قال الشافعي: أنشدك الله أي هذين أعظم ضرراً: أن تقتل الساحة وتردها الي مالكها، أو تحكم برق هؤلاء الأولاد، فانقطع محمد بن الحسن". وأمثال هذه المناظرة كثيرة بين الحنفية والمالكية والشافعية وغيرهم.

هذه المناظرات - وان حكاها كل جماعة بها يتلف وعصبته

المذهبية - وسعت دائرة الحركة الفقهية، وكونت آراء قانونية لها قيمتها، وحملت الكثير من الفقهاء علي ان يتسلحوا بأسلحة مناظريهم، فالقياسيون يتسلحون بالحديث، والمحدثون يتسلحون بالرأي، وقربت كثيراً من أوجه النظر المتباعدة، وربما كان أقرب مثال لذلك الشافعي ومحمد بن الحسن الحنفي، فكلاهما اطلع علي الناحيتين وتسلح بالسلحين.

ولم يقتصر الأمر علي المناظرة الشفوية، بل تعدى ذلك الي المناظرة بالمكاتبة، فنري الليث بن سعد يكتب من مصر الي مالك في المدينة يجادل في حجية اجماع المدينة، ويرد عليه مالك.

وقد أثرت هذه المناظرات أيضاً في الكتب المؤلفة في ذلك العصر ومابعد أشرأ كبيراً، فلو قارنت بين كتاب الأم الشافعي، وكتاب النحو لسبويه رأيت فرقاً كبيراً بين التأليفين فالأم يغلب عليه الحوار، قال كذا فقلت: رأيت ان زعم كذا؟ فان قال قائل كذا رددت عليه بكذا، قال لي بعضهم كذا فقلت له، الي نحو ذلك مما يغلب عليه الجدل والمناظرة والحوار، وكثيراً مايعرض لآراء المخالفين ويذكر حجته ثم يفتد بها بحججه، ويذكر فصلاً يعنونه " كتاب الرد علي محمد بن الحسن " وفصلاً يعنونه "كتاب اختلاف العراقيين" الخ. وهكذا الحنفية في التأليف، ولاتري هذا واضحاً جلياً في كتاب سيبويه، فهو أميل إلي تقرير القواعد وتفريعها والاستشهاد عليها. وسبب ذلك الثورة الكبيرة التي كانت في هذا العصر في الآراء الفقهية. والحرية التي أبادها الحنفية في استعمال الرأي، وجدنا مناظريهم في اقطابهم، ونحو

ذلك مما لا يقاس به الخلاف النحوي والمناظرات النحوية، لأن الأمر فيه أغلب ما يكون علي النقل والسمع واستخراج القاعدة العامة من الجزئيات.

٤- ومن مميزات العصر العباسي في التشريع "التدوين" فقد ظهرت حركة التدوين في هذا العصر في كل فروع العلم ومنها الفقه، نعم كان في العصر الأموي نواة التدوين، ولكنها نمت واتسعت في العصر العباسي، وكانت كل مدرسة تتبع منهاها، فقد كان فقهاء المدينة يجمعون فتاوي عبد الله بن عمر وعائشة وابن عباس ومن جاء بعدهم من كبار التابعين في المدينة، وينظرون فيها ويستنبطون منها ويفرغون عليها، كما كان العراقيون يجمعون فتاوي عبد الله بن مسعود وقضايا علي وفتاواه، وقضايا شريح وغيره من قضايا الكوفة، ثم يستخرجون منها ويستنبطون، وقد بدأ الفقه في العصر الأموي الحديث، لأنه يعد مادة الفقه، وخاصة عند مدرسة الحديث، ثم بدأ يبوبون الحديث ابوابا حسب الفقه، فأحاديث الوضوء، ثم أحاديث الصلاة، ثم أحاديث الزكاة وهكذا. ثم بدأوا يفرغون المسائل من الحديث، فيروي اللهبي أن عبد الله بن المبارك "دون العلم في الأبواب والفقه" ويقول في أبي ثور: "انه صنّف الكتب وفروع السنن" يريد أنه جمع الأحاديث المتعلقة بموضوع واحد في باب واحد، وأوسع ماورد إلينا في هذا الباب كتاب الموطأ للإمام مالك، وقد خطا فيه خطوة جديدة في تقنين الحديث.

أبو حنيفة ومدرسته

أبو حنيفة هو النعمان بن ثابت بن زوطي فارسي الأصل، وقد ولد جده زوطي بكابل، واختلف في ولاده أبيه فقيل بالانبار، وقيل ينسا، وولد أبو حنيفة بالكوفة، وكان ثابت مملوكاً لرجل من ربيعة من بني تميم الله بن ثعلبة من فخذ يقال لهم بنو قفل، فكان أبو حنيفة مولى لبني تميم الله لذلك يقال أبو حنيفة التيمي - يعنون أنه تيمي بالولاء - وقد شعر بعض الحنفية بغضاضة هذا الولاء، فرووا أنه من أحرار فارس ولم يجر عليه رق قط، ومادروا أن أمراً العلم والدين ببعيد عن الاعتزاز بالنسب والمعرفة والولاء وما إليه، وأن العلم لا يقوم أحد بقبيلته ولا ماله ولا وجاهة، إنما يقومه بقيمته الذاتية ومزايه العقلية، وقيل أبي حنيفة كان كثير من سادة الفقهاء من الموالى ابن عمر، وعطاء بن أبي رباح فقيه مكة، وطاوس بن كيسان فقيه اليمن، والحسن البصري وابن سيرين فقيهي العراق وغيرهم. كما أن العصبية المذهبية حملت بعض الاتباع لكل مذهب أن يضعوا الأخبار لأعلاء شأن أممهم، ومن هذا الباب مارووا من الأحاديث بتبشير النبي صلى الله عليه وسلم لكل امام، من مثل ماروي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في أهل العراق: "أن الله وضع خزائن علمه فيهم" ومثل: "يكون في امتي رجل يقال له النعمان بن ثابت، ويكنى بأبي حنيفة يحيي الله علي يديه

سنتي في الاسلام" الخ، حتي لقد زعموا أن أبا حنيفة بشرت به التوراه، وكذلك فعل بعض الشافعية في الشافعي، والمالكية في مالك، وما كان اعناهم عن ذلك. ومن أجل هذا صعب علي الباحث معرفة التاريخ الصحيح لكل امام، فقد كان كلما اتى جيل تزيد في فضائل امامه، كان الفضل لا يقوم إلا بالمبالغة فيه، ولذلك نرى أن ترجمة الأئمة كلما قاربت عصرهم كانت اقرب الي الصدق وأبعد عن الغلو.

أغلب المؤرخين علي أن ابا حنيفة ولد بالكوفة سنة ٦٠هـ ومات ببغداد سنة ١٥٠هـ فيكون قد عاش نحو سبعين سنة، منها ٥٢ سنة في العصر الأموي ونحو ١٨ في العصر العباسي، إذن فقد ولد في عهد عبد الملك بن مروان ولما مات عبد الملك كان ابو حنيفة في السادسة من عمره ونشأ في ولاية الحجاج علي العراق، فقد مات الحجاج وعمر ابي حنيفة خمسة عشر عاماً، فرأى قسوة الحجاج ومعاملته للثأرين، وحروبه وسطوته وسلطانه في العراق، وكان شاباً أيام عمر بن عبد العزيز، سمع بعدله وشاهد آثاره، ورأى تدهور الأمويين، وشاهد بدء الدعوة العباسية، وسأيرها حتي تمت للعباسيين، والعراق وما اليه كان مهداً لهذه الدعوة، وكان مساهماً في حرب الأمويين. وشاهد الحجاج بن يزيد بن المهلب أميراً علي العراق يحكم الناس حكماً عريماً عصبياً، كما

شاهد اماره خالد بن عبيد الله القسري، ونصر بي سيار، وما كان فيهما من محن، ورأي انتقال الخلافة من الأمويين الي العباسيين علي يد قومة من الفرس ورأي خروج محمد بن عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب علي المنصور، وقالوا انه عطف علي محمد، وكان ميله معه، واخيرا رأي استقرار الأمر في يد العباسيين، وبناء المنصور لبغداد، وتحول أبهة الدنيا وحضارتها وجمالها اليها، ثم مات في خلافة المنصور، كل هذه الاحداث مرت علي أبي حنيفة وأعمل فيه فكره، وأثرت في نفسه آثارها المختلفة، وساهم في بعضها وكان خريجها والناشئ في احضانها، والمتكون من ذراتها، والناضج علي نيرانها .

نشأ ابو حنيفة في الكوفة، وكان في زمانه بعض الصحابة وكبار التابعين، ولم نعلم كثيراً عن نشأته الأولى وكيفيه تعلمه، وقد رووا أنه في السادسة عشرة من عمره حج مع أبيه، وشهد عبد الله بن الحارث أحد الصحابة يحدث بما سمع عن رسول الله. وقد اجتمع عليه الناس في المسجد الحرام، فسمع ابو حنيفة منه حديثاً، كما رووا أنه سمع انس بن مالك وأربعة غيرها من الصحابة، وبعض العلماء يشك في ذلك .

ثم رأيناه بعد نشأته الأولى في التعليم يجلس في حلقة

المتكلمين بمسجد الكوفة، وكانت لهم حلقة بل حلقات - بجانب حلقات الفقه وحلقات الشعر وحلقات النحو - يتكلمون فيها في القضاء والقدر، والكفر والإيمان، ويستعرضون أعمال الصحابة في الحروب وغيرها، الي غير ذلك من مسائل علم الكلام فلما بلغ في ذلك مبلغاً كبيراً تحول الي الفقه، وروي زفر بن الهذيل قال: "سمعت ابا حنيفة يقول: كنت أنظر في الكلام حتي بلغت فيه مبلغاً يشار الي فيه بالاصابع وكنا نجلس بالقرب من حلقة حماد بن أبي سليمان، فجاءتني امرأة يوماً فقالت رجل له امرأة يريد أن يطلقها للسنة كم يطلقها؟ فأمرتها أن تسأل حماداً ثم ترجع لتخبرني . . فرجعت فأخبرتني، فقلت: لأحاجة لي في الكلام، وأخذت نعلي فجلست الي حماد .

ويروي عنه أنه قال: "كنت رجلاً أعطيت جدلاً في الكلام فمضي دهر فيه اتردد وبه اخاصم، وعنه أناضل، وكان أصحاب الخصومات والجدل أكثرها بالبصرة، فدخلت البصرة نيفاً وعشرين مرة، منها ما أقيم سنة وأقل وأكثر وكنت قد تنازعت طبقات الخوارج من الالباضية والصفرية وغيره . . وكنت اعد الكلام افضل العلوم، ثم علمت انه لو كان فيه خير لتعامله السلف الصالح فهجر .

وعلم الكلام قد طعم بالفلسفة قبل أي علم آخر، وتأثر بها

كما تأثر بأراء الأديان الأخرى للاحتكاك بها في المناظرة والدعوة
 إلى الدين - وقد أبنا ذلك قبل - فكان عمرو بن عبيد وواصل بن
 عطاء وغيرهما في البصرة يدعون إلى الإسلام، ويردون طعن
 الطاعنين، ويبحثون في صفات الله، وفي العاصي الكافر أم مؤمن؟
 الخ، ويطلعون على أقوال أهل الديانات ويفتدونها بمثل حججهم
 الفلسفية، فالظاهر أن أبا حنيفة بدراسته لبرنامج الكلام، وبلوغه
 فيه مبلغاً يشار إليه بالأصابع، أكسبه قوة في المناظرة، وقدرة في
 المنطق، ومراداً على الأسلوب العقلي في التفكير غير أسلوب
 المحدثين، فإن كان المحدثون يكتفون في الحديث ببحث الرواة،
 فالمتكلمون يتجاوزون ذلك أيضاً إلى النقد الخارجي، وهو موافقة
 الحديث لمبادئ الإسلام العامة وأصوله، ونحو ذلك كما رأيت. وقد
 عرف عن المعتزلة رؤساء المتكلمين نقد بعض الصحابة في جراءة، لم
 يقدم عليها غيرهم، ونقد بعض ما روي من الحديث في صراحة، ونجد
 لذلك كله أثراً في أبي حنيفة كما سيأتي.

كذلك كان ابو حنيفة بجانب حياته العلمية يحترف التجارة،
فكان خزازا

هؤلاء أشهر رجال مدرسة العراق، وكان لكل منهم يد في
تلويدها وتشكيلها، فابن مسعود فقيه جليل يتأثر عمر بن الخطاب
في دقة نظرة وحرية وعلي بن أبي طالب خلف مجموعة من القضايا
والفتاوي لأهل العراق حفظت عنه وعدت دستوراً وعلامة كان غير
تلميذ ابن مسعود وحامل علمه وفقهه ومسروق خلف لأهل العراق
فتاوي كثيرة كان يستفتي فيها، وشريح مارس القضاء نحو ستين
عاماً في العصر الأموي، فلابس الحياة العملية، وقد دعم مذهب
الرأي بدعائم قوية - وكان له أكبر الأثر في تلويته وتميزه،
والشعبي - علي العكس من ذلك - كان يغذي العراقيين بالحديث
والأثر فكانه هو وشريح تعاوناً علي تدعيم المذهب بعنصريه، كان
الشعبي ينقبض للفتوي وينتهي شأن صاحب الآثار، وكان النخعي
يتهلل لها وينبسط شأن صاحب الرأي، وكان ذلك علي خلاف حياتهما
العملية، فقد كان الشعبي طريفاً منبسطاً فكها، فاذا جاءت الفتوي
وانقبض، وكان النخعي منقبضاً جاداً، فاذا جاء الرأي انشرح ثم جاء
حماد بن ابي سليمان فجمع ذلك كله في صدره وأسلمه لابي حنيفة
لصاغة مذهباً . ولعلك لاحظت مغني كثرة النخعيين في هذه

المدرسة، فعلمة نخعي والأسود نخعي، وإبراهيم نخعي، ثم مسروق بن الأجدع همداني، ثم عامر الشعبي نسبة إلى شعب وهو بطن من همدان، والنخع وحمدان قبيلتان يمينتان، وشريح كندي، وكندة من اليمن، وحماد بن أبي سليمان أشعري بالولاء وأشعر قبيلة من اليمن ونحن نعلم أن معاذ بن جبل أرسله النبي صلى الله عليه وسلم قاضياً على الجند باليمن يعلم الناس القرآن وشرائع الإسلام ويقضي بينهم وجعل إليه قبض الصدقات من العمال الذين باليمن، كان معاذ من أعلم الصحابة بالحلل والحرام وهو صاحب الحديث المشهور الذي هو دعامة أهل الرأي وهو أن رسول الله «ص» قال لمعاذ بن جبل حين وجهه إلى اليمن بهم تقضي؟ قال: بما في كتاب الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: بما في سنة رسول الله، قال: فإن لم تجد؟ قال: اجتهد رأيي. فلعل هؤلاء اليمينيين كانوا متأثرين ببدا معاذ وتعاليمه وفقهه - وبالفعل نجد بعض أعلام هذه المدرسة كما لأسود بن يزيد النخعي من تلاميذ معاذ بن جبل.

أخذ أبو حنيفة الفقه عن كثير: فسمع من عطاء بن أبي رباح، وهشام بن عروة، ونافع مولي ابن عمر، ولكن استأذه الذي أخذ عنه أكثر علمه حماد بن أبي سليمان الأشعري - وقد كان حماد واسع العلم فقيهاً، قال فيه النسائي أنه "ثقة مرجي" وكان غنياً سرحاً

كريمًا، مات سنة ١٢٠، كانت له حلقة كبيرة في مسجد الكوفة .
يجلس اليه فيها المتعلمون يعلمهم ويسألونه، ويأتي اليه اصحاب
الحاجات في المسائل التي تعرض لهم فيستفتونه وقد لزمه ابو
حذيفة نحو ثمانية عشر عاما لما رأي من علمه، فقد كان يقول
"حماد أعلم من رأيت" . جالسه اولا نحو عشر سنوات، ثم حدثته
نفسه أن يستقل ويكون لنفسه حلقة خاصة، ثم خجل من شيخه،
وأحيحت له فرصة ذهاب حماد الي البصرة فجلس مكانه يعلم ويفتي،
وعرضت عليه نحو ستين مسألة جديدة لم يسمع فيها رأي شيخه،
فلما عاد سألها فيها فأقره علي اربعين منها، وخالفه في عشرين فلزمه
حتى مات . واذ قد علمنا ان حماداً مات سنة ١٢٠ فيكون ابو
حذيفة قد لازمه الي أن بلغ سنه نحو الاربعين وقد كان يجادل
شيخه ويناقشه ويلزمه حتي روي عنه انه قال: "لزم حماداً لزوما
ما أعلم أحد لزم أحد مثل ما لزمته، كنت أكثر السؤال فربما تبرم
مني ويقول: يا أبا حذيفة قد انتفخ جنبي وضاق صدري، وحتى
روي أنه قال له يوم: "الزفتني" - أي اخدت كل ما عندي، وهي
عبارة قيلت قبل من سعيد بن المسيب لقتاده . ولما مات حماد نظراً
اصحابه فيمن يجلس مجلسه، ويتراس حلقاته، فاختراروا ابنه اسماعيل
بن حماد، ولكنه كان اميل الي الأدب من شعر ومعرفة بأيام العرب،
فتنحي عن الحلقة فترأسها موسي بن أبي كثير، ولم يكن بارعاً في

الفقه ولكنه لقي المشايخ والكبار وجالسهم ثم خرج حاجا فجلس مكانه ابوحنيفة وملا مكان حماد، واستمر في هذه الحلقة يعلم الناس ويفتي نحو ثلاثين سنة الي ان مات سنة ١٥٠.

كل الاخبار تدل علي انه كان في سعة من العيش، ولعل ذلك كان من تجارته، فقد علمنا انه "كان يزاا" وله دكان في دار عمرو بن حريث، وكان طويلا تعلوه سمرة، لباسا، حسن الهيئة وكثير النعطر، يعرف بريح الطيب اذا اقبل واذا خرج من منزله قيل ان تراه.

وقد روي انه أريد علي القضاء مرتين فامتنع، احدهما في العهد الاموي اراده ابن هبيرة . عامل مروان بن محمد آخر بني امية علي العراق - فأبي فضربه بالسوط، وفي رواية انه اراده ليكون علي بيت المال فأبي فضربه، والاخري في العهد العباسي، اشخصه ابو جعفر من الكوفة الي بغداد، ثم اراده علي القضاء فأبي فحبسه فمات في الحبس. والروايات في هذه الحادثة مختلفة فبعضهم يرويها علي هذا الوجه، وآخرون يروون أن المنصور هدده بالضرب فقبل القضاء علي كره، ثم مات بعد ايام، وغيرهم يروي ان المنصور انها استقدمه من الكوفة لأنه اتهم بالتشيع لابراهيم

العلوي، فعاش خمسة عشر يوماً ثم سمه فمات فالروايات مجمعة علي استدعاء المنصور له، ومجمعة علي انه مات بعد استدعائه بقليل، وانه مات في بغداد وقبره الي الآن في بغداد شاهد علي ذلك، ونحن نستبعد سم المنصور له، فقد كان للمنصور من القوة ما يخول له القتل علناً ان شاء، وقد سبق ان قتل ابا مسلم الخراساني، وهو ما هو في قوته وتعلق الجند به، كما قتل غير ابي مسلم من ذوي الوجة والعزة، ونرجع الرواية الاولى من ارادته علي القضاء وامنتاعه وسجنه وتعذيبه، ويظهر ان هذا التعذيب والسجن ليس عقوبة علي اياه القضاء، لان امام المنصور كثيراً من العلماء يرغبون في هذا المنصب وقد اراد الليث بن سعد علي القضاء فأبي فتركه من غير ان يعذبه كما مر، ولكنه استدل من ابا ابي حنيفة علي صحة ما اتهم به من التشيع وعدم رضائه عن دولتهم. وقد روي عن ابي حنيفة اشياء من ذلك فقد روي زفر بن الهذيل ان ابا حنيفة كان يجهر بالكلام «يعني ضد المنصور» ايام ابراهيم «يعني اخا النفس الزكية» وكان قد خرج علي المنصور [جهاراً شديداً، فقلت له: والله ما انت بمنته حتي توضع الحبال في اعناقنا. كما روي ان المنصور كتب كتابين فلامش وابي حنيفة علي لسان ابراهيم بن عبد الله ابي حسن، وبعث بهما مع من يثق به، فقرأ الكتاب الاعمش واطعمه الشاه،

وأما ابو حنيفة فقبل الكتاب واجاب عنه فلم يري في نفس ابي جعفر منه شئ حتي فعل به ما فعل .

فالعالم ان أبا حنيفة كان أميل - في الفتنة التي قامت بين العلويين والعباسيين - الي محمد بن عبد الله النفس الزكية واخيه ابراهيم . وكان يروي أن محمداً اُحق بالخلافة، وكان ناقماً علي العباسيين سطوتهم وشدتهم وكثيراً من العلماء في هذا العصر كانوا علي هذا الرأي، كان امتحان العباسيين لهم ولميولهم مظهره عرض الوظائف عليهم، والاستدلال بابائهم أو قبولهم علي ميولهم، كما لا ننكر انه كانت هناك نزعة عند بعض العلماء تري ان في تولي الوظائف السلطانية تعريض الدين للخطر، حتي ان كثيراً من المحدثين لا يروون حديث من تقرب الي السلطان، وان كثيراً عابوا ابا يوسف من اجل توليه القضاء، والحكايات من هذا القبيل كثيرة، قال محمد بن جرير الطبري "انه قد تحامي حديث ابي يوسف قوم من اهل الحديث، من أجل غلبة الرأي عليه وتفريعه الفروع والاحكام، مع محبة السلطان وتقلده القضاء." .

ولعل السببين معاً كانا هما الباعثين لابي حنيفة علي امتناعه عن تولي القضاء في العهد الأموي، ويرى الدولة قاسية شديدة

مضطربة وقومه الفرس يخرجون عليها ويبثون الدعوي ضدها، وفي الدولة العباسية ظلم وعسف واغتصاب الخلافة من العلويين، هذا الي مافي القضاء من تعرض لغضب السلطان ان ارضي الله، وغضب الله ان ارضي السلطان، وفي بعض الروايات انه قال للمنصور: "لوهددتني ان تعرفني في الفرات أو أن الي الحكم لاخترت ان اغرق فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك فلا اصلح لذلك".

وقد روي بعضهم أن ابا حنيفة تولي للمنصور عد اللبن في بناء بغداد ويقول الخطيب ان العامة هي التي تدعي ذلك.

منحاه في الاجتهاد - مسلك ابي حنيفة في القرآن الكريم
مسلك كل الائمة ان اختلفوا في شئ فيه فاختلاف في فهم مدلوله واشارته وطرق الاستنباط منه اما في الحديث فكان له مسلك خاص، وهو التشدد في قبول الحديث والتحري عنه وعن رجاله وحتى يصح وكان لا يقبل الخبر عن رسول الله «ص» الا اذا رواه جماعة عن جماعة، او كما يعبرون هم اذا كان خبر عامة عن عامة، أو كان خبراً اتفق فقهاء الامصار علي العمل به، أو روي واحد من الصحابة الحديث عن رسول الله في جمع منهم، فلم يخله احد، لان هذا يدل علي اقرارهم له ولو كانوا يخافونه لردوا عليه، فكان هذا

بمباشرة الحديث . يرويه جماعة ، قال ابو يوسف فعليك من الحديث بما تعرف العامة ، واياك والشاذ منه ، فانه حدثنا ابن ابي كريمة عن ابي جعفر أن رسول الله دعا اليهود فحدثوه حتي كذبوا علي عيسي ، فصعد النبي «ص» المنبر فخطب الناس فقال: أن الحديث سيفشو علي فما اتاكم عني وافق القرآن فهو مني ، وما اتاكم عني يخالف القرآن فليس مني " وكان عمر فيما بلغنا لايقبل الحديث عن رسول الله «ص» الا يشاهدين وكان علي بن ابي طالب لايقبل الحديث عن رسول الله ، والرواية تزداد كثرة ويخرج منها ما لا يعرف ولا يعرفه اهل الفقه ، ولايوافق الكتاب والسنة ، فاياك وشاذ الحديث ، وعليك بما عليه الجماعة من الحديث وما يعرفه الفقهاء فقس الاشياء علي ذلك ، فما خالف القرآن فليس . عن رسول الله «ص» وان جاءت به الرواية . . فاجعل القرآن والسنة المعروفة لك اماماً وقائداً ، واتبع ذلك وقس عليه ما يرد عليك مما لم يوضح لك في القرآن والعنة .

فأبو يوسف رسم في هذا القول الخطأ التي كان يسير عليها هو وشيخه ابو حنيفة نحو الحديث ، وخلصتها تضييق دائرة مايعمل به من الحديث والاقتصار منه علي المعروف المشهور الذي عرفه عامة الفقهاء ، وعدم الأخذ بالأحاديث التي لم تستوف هذه

الشروط، وروي عن يحيى بن نصر أنه قال: "سمعت أبا حنيفة يقول: عندي مناديق من الحديث ما أخرجت منها إلا اليسير الذي ينتفع به".

وروي عن أبي يوسف أنه قال: "كان أبو حنيفة لا يري أن يروي من الحديث إلا ما حفظه عن الذي سمعه منه" وقال: «ردي» علي كل رجل يحدث عن النبي «ص» خلاف القرآن ليس رداً علي النبي «ص» ولا تكليفاً له ولكنه رداً علي من يحدث عنه الباطل والتهمة دخلت عليه ليس علي نبي الله، وكل شيء تكلم به النبي «ص» فعلي الرأس والعين قد آمننا به، وشهدنا أنه كما قال، ونشهد أيضاً أنه لم يأمر بشيء يخالف أمر الله، ولم يبتدع، ولم يتقول غير ما قال الله، ولا كان من المتكلمين. وعلي الجملة فقد كان يشدد في الأخذ بالحديث وهذا - من غير شك - يضطره الي التوسع في القياس والاستحسان فيما لم يكن فيه اثر كتاب والا اثر صحيح، فليس فيه أمام المجتهد إلا القياس والاستحسان.

كذلك كان من مبدئه اعمال عقله فيما اذا روي في المسألة قولان أو أكثر للصحابة فيختار منها أعدلها أو أقربها إلي الأصول العامة، وعدم الاعتداد بأقوال التابعين إلا ان يوافق اجتهاده، فقد

روي عنه أنه قال "اني أخذ بكتاب الله اذا وجدته فما لم أجده
اخذت بسنة رسول الله «ص» والأثار الصحاح عنه التي فشت في
ايدي الثقات فاذا لم اجد في كتاب الله ولا سنة رسول الله «ص»
اخذت بقول اصحابه من شئت وادع قول من شئت، ثم لا أخرج من
قولهم الي قول غيرهم، فاذا انتهى الامر الي ابراهيم والشعبي
والحسن وابن سيرين وسعيد ابن المسيب، فلي أن اجتهد كما
اجتهدوا "وهذا المنهج يسلم الي عدم التزام العمل المأثور عن
التابعين، ثم يسلم بعد الي القياس والاستحسان.

فهنا التشدد في قبول الحديث، وهذه الحرية في وزن اقوال
الصحابة والتابعين مضافا اليهما ما ذكرنا قبل من أسباب، جعلت
القياس أساساً كبيراً من أسس التشريع في فقه ابي حنيفة.

وفي الواقع كان ابو حنيفة قياساً، سلك في القياس مسلكاً
فاق فيه كل من سبقه واعانته علي ذلك ملكاته الخلقية فكان دقيق
النظر، سريع الخاطر في ادراك ما بين الأشياء من فروقات وموافقات،
قوي الحجة كان - كما قالوا لو اراد ان يقيم الحجة علي أن هذه
السارية ذهب للفعل - وزاده ظهوراً في ذلك انه لم يكن يتخرج من
الفتيات تخرج اهل الحديث، فليس يهمه أوقع الامر ام لم يقع،

وكان حقيقياً أم فرضياً، بل يقول كما قال لقناده: "أن العلماء يستعدون للبلاد ويتحرزون منه قبل نزوله". وذكر عنده مرة قول من قال: لا ادري نصف العلم، قال ابو حنيفة: فليقل "لا ادري" مرتين ليستكمل العلم. ولذلك كان كثيراً مسائل وكثيراً ما اجاب، حتي روي أنه قال ستين الف مسألة، وقال بعضهم ثلاثة وثمانين الفا، وثمانية وثلاثين الفا في العبادات، وخمسة واربعين الفا في المعاملات، ومهما كان العدد مبالغاً فيه فانه يدلنا علي كثرة مسائل وما اجاب وما فرغ وما علم، وهذا لايتأتى مع الصحة والضبط ودقة النظر الا من عقل قانوني كبير مرز، حتي كأن اصول الفقه الاربعة هي قواعد الحساب الاربعة، تعرض فيها المسائل فيطبقها علي هذه القواعد، ويحلها في سهولة في مقتضاها، ثم هو يجادل ويعارض فيما يفتي فيقيم الحجج القوية علي ما رأي وما افتي، وقد حكي عنه من هذا الشئ الكثير في كتب المناقب ان بولخ في بعضه فالاصل صحيح وقد نازله فقهاء عصره ونازلهم فانصف منهم في الاغلب ونسوق لك امثلة قليلة مما روي سنن عن رجلين اشتركا في ثلاثة دراهم دفع احدهم درهمين والاخر واحداً واختلطت الدراهم ثم ضاع درهمان من الثلاثة، فقال ابو حنيفة: الدرهم الباقي بينهما اثلاثا ثلث لذي الدرهم، والثلثان لذي الدرهمين، وسئل فيها ابن شبرمة. فقال: أن الدرهم الباقي بينهما نصفاً، لكل نصف حجة ابن شبرمة

ان درهما من الدرهمين الضاعين هو من مال دافع الدرهمين بيلين،
والدرهم الثاني من الدرهمين الضاعين مشكوك فيه فيكون منهما،
فيكون الدرهم الثاني مناصفة، وحجة. ابي حنيفة ان الدراهم الثلاث
لها خلطت اصبحت كل درهم مشتركاً لصاحب الدرهم ثلثه ولصاحب
الدرهمين ثلثاه، فاي درهم ذهب فهذا حكمه والدرهم الباقي هذا
حكمه ايضا ثلثه لدي الدرهم او ثلثها لدي الدرهمين وفي هذا
مثل من أمثلة الرأي الذي كان يستعمل وسلل ماقولك: في الشرب
في قدح أو كأس في بعض جوانبهما قضة؟ فقال: لأبأس به، فقليل
له أليس قد ورد النهي عن الشرب في اناء الفضة والذهب؟ فقال
ابو حنيفة: ما تقول في رجل مر علي نهر، وقد اصابه عطش،
وليس معه اناء فاعترف الماء من النهر فشربه يكفه وفي اصبغه
خاتم؟ فقال مناظره: لأبأس بذلك، قال ابو حنيفة فهذا كذلك.

وجاء جماعة من اهل المدينة ليناطره في القراءة خلف الامام
«وابو حنيفة يقول بعدم القراءة» فقال لهم لا يمكنني مناظرة الجميع
فولوا الكلام اعلمكم فاشاروا الي واحد، فقال: هذا اعلمكم؟
والمناظرة معه كالمناظرة معكم؟ قالوا: نعم، قال: والحجة عليه
كالهجة عليكم؟ قالوا: نعم، قال: أن ناظرته لزمتمكم الحجة لانكم
اخرتموه فجعلتم كلامه كلامكم، وكنا نحن اخترنا الامام فقراءته
قراءتنا.

ومثل هذا مئات من المسائل استعمل فيها الرأي أو القياس أو الاستحسان ذكرت في كتب الفقه وكتب المناقب، يطول بنا القول لو كثرت منها، حتي ذكروا انه كان مولعاً بالقياس ايضاً في حياته العادية ، فقد روي انه أمر حجامه أن يلقط الشعر الأبيض من رأسه أو لحيته، قال: أن لقطتها كثرت، قال اذن القط السود حتي تكثر وتنادروا عليه في استعمال القياس بانه كان في مبدأ امره يشتغل بالنحو، ويريد ان يجري القياس فيه، فجمع كلباً علي كلوب قياس علي قلب وقلوب.

وروي الجاحظ عن حماد بن سلمة قال: كان رجل في الجاهلية معه محجن يتناول به متاع الحاج سرقة، فاذا قيل له سرقت، قال لم أسرق إنما سرق محجني، فقال حماد: لو كان هذا اليوم حياً لكان من أصحاب ابي حنيفة .

وعلي الجملة فقد مهر في القياس، وطبقه تطبيقاً واسعاً اثر في الفقه اثراً كبيراً من كثرة الفروع وتحديد وجود المشابهات وتسلح المجتهد سلاحاً قوياً في الافتاء . وقد لاندرك كبير فرق

فيما لدينا من كتب الفقه في المذاهب المختلفة، كمذهب الشافعي ومالك وأبي حنيفة، ومن أجل هذا قال بعض المستشرقين أن الفروق بين المذاهب قليلة، ولكن في رأيي أن هذه القلة إنما كانت في كتب تلاميذ الأئمة، لأن تلاميذ أبي حنيفة أخذوا ما احتاجوا إليه من الحديث، وتلاميذ مالك توسعوا في اقتباس ما هم في حاجة إليه من القياس فتقاربت المذاهب، أما في عصر أبي حنيفة ومالك أنفسهما فالفرق كان كبيراً.

كذلك عرف أبو حنيفة بالمهارة في فقه الحديث، اعني أنه كان يسمع الحديث ويصح عنده، فيستطيع أن يفرع منه الفروع، ويستخرج منه الأحكام الفقهية في مهارة. سأله الأعمش [وهو من كبار المحدثين] عن مسائل فافتاه، فقال له الأعمش بكنا، فقال الأعمش، معشر القضاء انتم الأطباء ونحن الصيادلة.

ومن أجل هذا فرقوا بين المحدث والفقيه فقد يكون الرجل محدثاً لأفقيهاً وقد يكون قليل الحديث وهو فقيه.

ومن الأمور الظاهرة في فقه أبي حنيفة الحيل الشرعية وقد أصبحت فيما بعد باباً واسعاً من أبواب الفقه في مذهب أبي حنيفة

وغيره من المذاهب وان كانت في مذهب الحنفية اظهر والفت فيهما الكتب الخاصة، حتي لقد وضعت فيملا بعد حيل للهروب من كل التزام فحيل لاسقاط الشفعة وحيل لتخصيص بعض الورقة بالوصية، وحيل في اسقاط حد للسرقة وهكذا وقد خصص ابن القيم، جزءاً كبيراً من كتابه اعلام الموقعين في الكلام في الحيل وفي قيمتها والتشجيع علي من توسع فيها وقد قال ان تجويز الحيل يضر بالشرائع لان الشارع يسد الطريق الي المفسد بكل ممكن، والمحتمل يفتح الطريق اليها بحيلة وقال: ان المتأخرين احدثوا حيلاً لم يصح القول بها عن أحد الائمة ونسبوا الي الائمة وهم مخطئون في نسبتها اليهم. ومن عرف سيرة الشافعي وفضله ومكانه من الاسلام، علم انه لم يكن معروفاً بفعل الحيلة ولا بالدلالة عليها، ولا كان يشير علي مسلم بها، واكثر الحيل التي ذكرها المتأخرون المنتسبون الي مذهبه من تصرفاتهم تلقوها عن المشرقيين وادخلوها في مذهبه" وقد اطلال في اقسام الحيل وما يجوز منها وما لايجوز، فما كان من الحيل لاخذ أموال الناس وظلمهم في نفوسهم وسفك دماهم، وابطال حقوقهم والفساد ذات بينهم، فهي محرمة . . ولايختلف المسلمون ان تعلم هذه الحيل حرام والافتاء بها حرام، والشهادة علي مضمونها حرام، والحكم بها مع العلم بحالها حرام وهناك حيل للتوصل الي الحق او لدفع الظلم بطريق مباحة

وهذا جائز الى اخر ما قال . وقد ضرب امثلة كثيرة لذلك .

وقد رويت عن أبي هريرة مسائل في هذا الباب، أكثرها من باب الايمان والطلاق، منها ما يظهر أن سكان العراق تفننوا في الايمان والطلاق تفننا عجيبا، وكانوا يستفتون الائمة في هذه الايمان العجيبة التي يوقعونها فيحلف «الاعمش» بطلاق امرأته أن أخبرته بفناء الدقيق أو كتبت به، أو أرسلته، أو ذكرت لأحد ليذكره له، أو أومات في ذلك، فتسأل امرأته أبا حنيفة فيحتال لمخرج لها، فيقول لها: إذا انتهى الدقيق فشدني جراب الدقيق علي أزاره أو خوبه وهو نائم، فإذا أصبح أو قام من الليل علم غلاء الجراب وفناء الدقيق . ويحلف آخر ليقربن امرأته نهارة في رمضان، فيفتيه أبو حنيفة أن يسافر بها فيقربها نهارة في رمضان، ويحلف رجل وقد رأى امرأته علي السلم فيقول: انت طالق ثلاثا أن معدت وطالق ثلاثا أن نزلت، فيفتيه أبو حنيفة أن تنقب المرأة علي السلم ولا تصعد ولا تنزل، ويحتال جماعة يحملون السلم بالمرأة فيضعونها علي الأرض . ويسأله رجل فيقول: لي ولد وليس لي غيره فان زوجته طلق، وان سريته اعتق وقد عصوت عن هذا فهل من حيلة؟ فقال له أبو حنيفة: اتشتر الجارية - التي يرضاها هو - لنفسك، ثم زوجها منه فان طلق رجعت مملوكتك

- ٢٦١ -

اليه وان اعتق عتق مالايملك، الي امثال آخري ذلك من مجموع هذا
ان الحيل التي افتي بها ابو حنيفة ليست من نوع التحايل علي
ابطال الحق أو أكل الاموال بالباطل ونحو ذلك، انها هو استخراج
فقهي للخروج من مأزق، مع عدم التعدي علي أحد في ماله ونفسه .

ويظهر ان هذا الباب استغل بعد من ناحيتين:

١- فبعد ان وقعت حوادث قليلة من هذا القبيل توسع فيها
من طريق الفرض وسبح الخيال يستخرج فروضاً عديدة، خصوصاً في
الايمان والطلاق ولم تحدث ولن تحدث، ولكن الخيال يتوهمها،
والفقيه الفرضي يتمرن علي حلها .

الأمر الثاني ما اشار اليه ابن القيم من أن المتأخرين ارتكبوا
علي هذه المسائل القليلة والواردة عن الأئمة . وتوسعوا فيها حتي
جعلوها في كل باب من أبواب الفقه، ولم يقفوا عند الحدود التي
وقف فيها الأئمة ، بل جعلوا منها ما يحتال به علي اضاءة الحقوق
وافساد الالتزامات .

مما لاشك فيه أن ابا حنيفة خرج علي الناس بمذهب جديد، فيه

حرية للعقل بكثرة استعمال الرأي والقياس، وبما استتبع ذلك من كثرة الفروع ورجوعها الي اصول، وبمقدرة فائقة في الاستنباط، وبشجاعة في مواجهة المسائل في الحدود التي ذكرناها، وبتقريب الفقه الي الالذهان، وحتى قال الجاحظ: وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن، يجالس الفقهاء خمسين عاماً، وهو لا يعد فقيهاً ويجعل قاضياً، فما هو مقدار سنة أو سنتين، حتي تمر ببابة فتظن انه من بعض العمال والبحري لا يمر عليه من الأيام الا اليسير حتي يصير حاكماً علي مصر من الأمصار او بلد من البلدان".

وطبيعي ان تحدث هذه المبادئ ثورة فكرية عنيفة، وتنقسم الناس الي قسمين: مؤيد لها وناصر، وهاج لها وقادح، وكذلك كان. فقد وقف العراق في امر ابي حنيفة معسكرين يتنازعان، ووقف المؤيدين لمذهب ابي حنيفة من العراقيين امام المدينين كذلك يتنازعون ويترامون بالاقوال، هؤلاء ينصرون أبا حنيفة ويبينون فضله ومزاياه، ووجوه تفضيل مذهبه علي غيره، وهؤلاء يضعون من شأنه ويروون انه خطر علي الدين، وان طريقته تخالف طريقة المتقدمين وخلف لنا كل معسكر تراثا من آرائه واقواله، وقد عقد الغطيب البغدادى فصلاً طويلاً نقل فيه اكثر ما قاله الفريقان، وكذلك -

فعل ابن عبد البر في كتابه الانتقاء .

وكان اكثر الذين عادوا من أصحاب الحديث، وطبيعي أن يكون ذلك لأن منهجه غير منهجهم، فهم يرون الحديث ويكتفون في تصحيحه بان الراوي غير مجرح، وهو يتشدد في روايته علي النحو الذي ذكرناه، فاذا رد آثارا ولم يعمل بها هاجوا عليه وقدموا فيه، كذلك عاداه الفقهاء، من مدرسة الحديث لأنه كان يستعمل القياس مع وجود الحديث في نظرهم، مع أن الحديث لم يصح عنده فتركه الي القياس، فاذا رد الحديث ونطق بما يفيد أنه لم يثبت عنده شنعوا عليه بأن أكذب الحديث: فقد سأله رجل عن شيء، فأجاب فيه، فقال له الرجل: أنه يروي فيه عن النبي صلي الله عليه وسلم وكنا فقال أبو حنيفة: دعنا من هذا، وحدثه ابو اسحاق القزاري حديثاً، فقال ابو حنيفة: هذا حديث خرافة، وحدثه احدهم حديث: البيعان بالخيار ما لم يتفرقا "فقال ابو حنيفة: أرايت ان كان في سفينة؟ أرايت ان كانا في سجن؟ أرايت ان كان في سفر؟ .

ويروي له ان يهوديا وضع راس جارية بين حجرين، فوضع النبي «ص» رأسه بين حجرين، فقال ابوحنيفة: هذا هليان- روا هذا وأمثاله انما هو منها ان ابا حنيفة كان ينكر هذه الاحاديث لأنها لم

تحص عنه، فتشنع المحدثون عليه، وقالوا: أنه ينكر قول الرسول
ويقدم عليه رأيه. ويقولون مارأينا أجرا علي الله من ابي حنيفة،
كان يضرب الأمثال لحديث رسول الله واحصوا عليه أنه اغتني بنحو
مائتي مسألة فخالف فيها الحديث، قال رسول الله "للفرس سهمان
والرجل سهم" فقال ابو حنيفة: أنا لا اجعل سهم بهيمة اكثر من
سهم المؤمن. وقال صلي الله عليه وسلم: "البيعان بالخيل ما لم
يتفرقا" قال ابو حنيفة: اذا وجب البيع فلا خيار. وكان النبي
«ص» يقرع بين نسائه اذا اراد أن يخرج في سفر، فقال ابو حنيفة
القرعة قمار. الخ وواضح في هذا كله ان الشروط الدقيقة التي
اشتراطها في الاخذ بالحديث خالفت بين انظاره وانظارهم، وجعلت
الحديث يصح عندهم ولايصح عنده فاذا استعمل القياس لان الحديث
لم يصح عنده اتهموه بانه يقدم رأيه علي الحديث وقالوا: أنه
استقبل الآثار واستعبرها برأيه، والي كثير من امثال هذا التشنيع
وما من احد من الائمة الا كان له مثل هذا الموقف حين لايصح
عنده حديث صح عند غيره فلا يأخذ به، وان كان ابو حنيفة في
ذلك أكثر، للأسباب التي ابناها.

نقم عليه المحدثون والفقهاء المحدثون كثرة استعماله للرأي
والقياس وشنعوا عليه بان ذلك من قبيل اتباع الهوى. وفرق كبير

بين اتباع الهوي واستعمال الراي بعد بذل الجهد . فاتباع الهوي دليل الي الراي لتحصيل مصلحة خاصة من مال أو جاه . اما الراي بمعني بذل الجهد ثم الوصول بعد ذلك الي مايعتقده من الحق فليس من الهوي في شيء . وقدروي عن كثير من هؤلاء اقوال في تحريج ابي حنيفة، كمالك بن انس والأوزاعي وسفيان الثوري ومن الغربيان ينقل الينا عن بعضهم كسفيان الثوري وسفيان بن عيينه وعبد الله بن المبارك اقوال متناقضة بعضها في مدحه والاعتراف بفقهه وفضله، وبعضها في نقده من هذه النواحي ايضا . فاما ان يكون لهم راي به قد عدلوا عنه الي غيره، واما ان يكون الاقوال في احدي الناحيتين موضوعة مختلفة، والوقوف علي اصحابها عسير . ويقول ابن عبد البر: ان من جرح ابا حنيفة ابا عبد الله محمد بن اسماعيل البخاري وعده في الضعفاء والمتروكين . ولم يرو عنه ولاحديث واحد في صحيح البخاري ومسلم، ولكن روي له النسائي والترمذي، كما تعصب له آخرون من العلماء مثل شعبة بن الحجاج وابن جريح ويحيى بن معين وغيرهم .

كذلك نقده بعضهم في مسألة الحيل التي الممنا بها قبل، وعقد لذلك البخاري باباً في كتابه الجامع الصحيح وعناه بقوله: "وقال بعض الناس ان احكام الله شرعت لجلب ماصالح اليها او دفع

مضار، ومن امحل المحال ان يشرع من الحيل مايسقط شيئاً اوجبه او يحل شيئاً حرمه الخ" . وقد رأيت ان ابا حنيفة نفسه لم يتوسع في الحيل توسع من بعده، ولم يستجز الا ضرورياً محدودة منها ونقدوه كذلك لقوله بالارجاء وسععرض لذلك بعد .

نري من كل هذا كيف كان أبو حنيفة وفقهه مبعثا لحركة فكرية عذيفة اقامها حوله رجال الحديث حيناً، واقامها من ليسوا علي مذهبه في منهج التشريع واقامها اعداء له وخصوم، كابن ابي ليلى، وكان قاضي الكوفيين الأمويين والعباسيين وكان معاصراً لابي حنيفة وكان ابو حنيفة يفتي أحياناً بغير رأيه ويجهله في بعض قضاياهم ويبين خطأه، فاستعدي عليه الولاة . وغير ما قيل في هذا الباب ما قاله ابن عبد البر: "ان كثيراً من أهل الحديث استجازوا الطعن علي ابي حنيفة لرده كثيراً من اخبار الاحاد العدول . لأنه كان يذهب في ذلك الي عرضها علي ما اجتمع عليه من الاحاديث ومعاني القرآن، فما شد عن ذلك رد وسماه شاذاً، وكان مع ذلك ايضا بقول: الطاعات من الصلاة وغيرها لاتسمي ايماناً داي لأن الايمان اعتقاد بالقلب وكل من قال من أهل السنة الايمان قول وعمل ينكرون قوله، ويدعونه بذلك وكان مع ذلك محسوداً اللهم وفطنته" . وتدخل الشعراء في النزاع، روي ابن قتيبة عن شفيق

البلخي انه أطري ابا حنيفة بمرؤ فقال له علي بن اسحاق لا تطره
بمرؤ فانهم لا يحتملون ذلك فقال شفيق: قدمحه مسطور الشاعر
فقال:

انا ما لناس يوما قايسونا بأبده من الفتيا كريفه
أتيناهم بمقياس طعيع تلاء من طراز أبي حنيفة
إذا سمع الفقيه بها دعاها وأثبتها بحير في طحيفة

فقال له قد أجابه بعض اصحابنا

انا نو الرأي خاتم في قياس وجا، ببعة ونة سخيقة
أتيناهم بقول الله فيها وأثار ميرزة شريفقة
فكم من خرج محطن عفيف اذل حرامه بأبي حنيفة

وفضل شاعر أهل الكوفة^١ إلى أهل المدينة في الفقه فقال:

وليس يعرف هذا الدين تعلمه إلا حنينية كوفية السدور
لاتسألن مديناً فتخرجنه إلا عن اليم والمثناة والزيور

فاجابه رجل من أهل المدينة:

لقد عجبت لعلو ساقه قدر وكل امرا انا ماحم مقبور
قال المدينة ارض لا يكون بها إلا الغناء والا اليم والزيور
لقد كذبت لعمر الله ان بها قبر الرسول وخير الناس مقبور

ومهما قيل فان هذه الحركة القوية وهذا النزاع الشديد بين اصحاب
الرأي والحديث، رقىا الفقه في هذا العصر رقىاً عظيماً وفتقا
الاذهان واستخرجوا منها احكاماً ونظريات هي خير نتاج العصور
الاسلامية .

لم يصل إلينا أي كتاب في الفقه لأبي حنيفة، ويظهر انه لم
يؤلف في ذلك وكل ما رواه ابن النديم عن كتبه هي كتاب الفقه
الأكبر، رسالته إلى البستي، وكتاب العالم والمتعلم وكتاب الرد

علي القدرية ، فيظهر انه لم يدون في الفقه ولكن تلاميذه كانوا يحفظون اقواله ويكتبونها عنه، فنقلوا اليها اقواله في كل باب من ابواب الفقه .

أما كتابه في الفقه الأكبر الذي ذكره ابن السليم فيختلفون فيه، ذلك أنه وصل اليها كتاب صغير في العقائد اسمه الفقه الأكبر في ورقات، روي بروايات مختلفة، وطبع في الهند مع شروحه، وبعض هذه الروايات غير صحيح، لأنه يحتج علي الأشعرية ولهم والأشعري كان بعد أبي حنيفة بنحو قرنين، وبعضهم يروي ان الفقه الأكبر ليس ما بين أيدينا، وإنما هو كتاب في الفقه كبير حوي نحو ستين ألف مسألة . والأرجح عندي انه لم يدون في الفقه . لأن حركة التدوين في العصر العباسي ادركته وهو متقدم في السن، وان الفقه الأكبر كان في العقيدة، ولا يعد هذا تدويناً لأنه رسالة كالرسائل التي يرسلها العلماء بعضهم الي بعض، ولأن الفقه الأكبر الذي كان بين أيدينا اساسه صحيح النسبة لأبي حنيفة وان زيد عليه بعد، كما سنبحث ذلك عند الكلام في العقائد ومنها الأرجاء ان شاء الله .

اتي بعد أبي حنيفة تلاميذه فجدوا في المحافظة علي مذهبه

بتدوينهم ولاستدلال له، وترتيب مسائله وتوسيعها، كما ايتح لبعضهم فرصة رئاسة القضاء فتقوي مذهبه وبثه وايدوه، وكان من أشهر هؤلاء التلاميذ ابو يوسف ومحمد وزفر، ويطول بنا القول لو استقصينا اخبارهم وآراهم فنكتفي في ذلك بلمحة يسيرة

ابو يوسف - عربي الأصل، جده سعد بن حبثة احد الصحابة من الانصار واخذ الفقه فيمن اخذ علي ابي حنيفة وكان من اقرب تلاميذه اليه، ولد سنة ١١٣ وتوفي سنة ١٨٢. ونشأ فقيراً وكان ابو حنيفة يمهده بالمال ثم تولي القضاء لثلاثة من الخلفاء. المهدي ثم الهادي، ثم هارون الرشيد، وكان في ايام الرشيد قاضي القضاة. وكان عنه الرشيد حظياً وكان موقفه هنا دقيقاً محرجاً، فحول الخلفاء اذا ذاك قادة ورؤساء يحتاجون الي مداراة وهم الذين قال فيهم ابو حنيفة للمنصور: "فلك حاشية يحتاجون الي من يكرمهم لك" فبقاء ابي يوسف في هذا المنصب هذا العهد الطويل يدل علي لباقة ومرونة فائقتين خصوصاً اذا اراد ان يجمع بين الدين والمنتصب والجاه. ولعل مايمثل ابا يوسف خير تمثيل قوله: "رؤوس النعم ثلاثة: أولهما نعمة الاسلام التي لا تتم النعمة الا بها، ونعمة العافية التي لاتطيب الحياة الا بها، ونعمة الغني التي يتم العيش بها". فقد اراد ان يجمع بين الاسلام والعافية والغني،

وما ادق ذلك واشفه، لذلك نراه في خطبه كتاب الخراج يقف موقفاً من أحسن المواقف واشرقها، يعطى الخليفة هارون الرشيد في قوة وحزم وبجانب ذلك تروي عنه الأخبار الكثيرة في ابتداء الحيل للخروج من المأزق يقع فيها الخلفاء والقواد ان بولغ في بعضها الأساس صحيح، والجمع بين ذلك كله لا يستطيع الا امثال ابي يوسف ان استطاعوا .

أفاد ابو يوسف لفته ابي حنيفة من وجوده:

١- انه تولي القضاء عهداً طويلاً، ولبي هذا فائدة للفتة كبيرة، ففي القضاء امتحان للنظريات العلمية ومهر لها في بوتقة العلم، ومواجهة لمشاكل عملية لا يدركها من اقتصر على النظر، ومقتلة الصعاب في طرق المرافعات ممن له البينة، ومن عليه اليمين ونحو ذلك، لا يفكر فيها كثيراً من يستفتي او يؤلف الكتب .
للهذا كان ابو يوسف منظماً لمذهب ابو حنيفة ومغنياً له بالطرق العلمية، ومن أجل هذا قال الحنفية: انه يعمل بقول ابي يوسف في باب القضاء، اصف الي هذا ان ابا يوسف في مثل مركزه يستطيع ان يعرف من شئون الدولة ومناحيها في التفكير والعمل، وما يعرض لها من مشاكل وكيف تحل ما لا يعرفه غيره، وكل هذا

يكسبه نظراً جديداً ورأياً في مسائل لايراهها من يقيس أو يستحسن
بين جدران اربعة أو في حلقة المسجد .

٢- تولي قضاء بغداد وكان من يتولاه يكون قاضي القضاة،
فله نوع اشراف علي سائر القضاة وفي هذا تمكين لمذهب ابي
حنيفة ونشر له ولمبادئه .

٣- كان ابو يوسف اوسع اتصالاً بالمحدثين، أكثر رواية
للحديث عنهم- قال ابن جرير الطبري: "كان ابو يوسف يعقوب بن
ابراهيم القاضي فقيهاً عالماً حافظاً، ذكر انه كان يعرف يحفظ
الحديث، وانه كان يحضر المحدث فيحفظ خمسين او ستين حديثاً،
ثم يقوم ويمليها علي الناس، وكان كثير الحديث، وكان قد جالس
محمد بن عبد الرحمن بن ابي ليل، ثم جالس ابا حنيفة، وكان
الغالب عليه مذهب ابي حنيفة، وكان ربما خالفه احيانا في المسألة
بعد المسألة" . وقد رحل الي المدينة ولقي مالكا وناظره واحد
علمه وجع عن بعض آرائه الي قول مالك واقوال الحجازيين، ومع
هذا فقد رضي عنه بعض المحدثين كابن معين وابن حنبل، ولم
يرضي عنه كثيرهم فلم يروعه شيئاً واحداً من اصحاب كتب الحديث
الستة، قال ابن عبد البر: "كان ابن معين يثني عليه ويوثقه، أما

سائر اهل الحديث فهم أعداء لأبي حنيفة واصحابه . علي كل حال
يسهل اتصاله بالمحدثين سبيل تقوية مذهب أبي حنيفة بالحديث
ايضا وتطعيم المذهب ببعض آراء الحجازيين وبمخالفة أبي حنيفة
الي ماصح عنده من حديث احياناً .

٤- بما الف في الفقه، فقد روي ابن النديم انه الف كتاب
الصلاه كتاب الزكاة - كتاب الصيام - كتاب الفرائض - كتاب
البيوع - كتاب الحدود - كتاب الوكالة - كتاب الوصايا - كتاب
الصيد والذبائح - كتاب الغصب والاستبراء - كتاب اختلاف
الامصار - كتاب الرد علي مالك بن أنس - كتاب رسالة في الخراج
الي الرشيد - كتاب الجوامع، الفه ليحيى بن خالد «البرمكي»
يحتوي علي اربعين كتاباً، ذكر فيه اختلاف الناس والرأي المأخوذ
به ، امال املاها، رواها بشر بن الوليد القاضي، يحتوي علي ستة
وثلاثين كتاباً مما فرعه ابو يوسف .

والذي بقي لنا من ذلك كله كتاب الخراج، واقول نقلها عنه
الفهاء من بعده وابواب نقلها عنه الشافعي في الأم .

كتاب الخراج - اسمه الخراج ولكنه يبحث في الواقع في اهم

ابواب مالية الدولة ويقول في اوله "أن أمير المؤمنين 'يد، الله تعالى سألتني ان اضع كتاباً جامعاً يعمل به في جباية الخراج العشور والصدقات والجوالي". وغير ذلك مما يجب عليه النظر فيه والعمل به". ويعني بالخراج ضريبة الأرض، فقد تركت الأرض المفتوحة علي ملك اصحابها، وفرض عليهم دفع ضريبة هي الخراج ويعني بالعشور ما يحصل من الاراضي التي أسلم أهلها كأرض المدينة واليمن ويعني بالصدقات الزكاة المفروضة علي المسلمين في مالهم، وبالجوالي الجزية علي رؤوس اليميين وامثالهم، لذلك هو يتعرض لضرائب الأرض وضرائب الرؤوس، ويضطره ذلك الي البحث في الاراضي الاسلامية ايهما فتح عنوة وايهما فتح صلحاً، ويتوسع في هذا الباب في قسمة الغنائم التي يحرزها جيش المسلمين، وفي الأرض الموتى، وفيما يخرج من البحر، وفي شئون الري وما يعرض له وفي معاملته اهل الامة من حيث الضرائب، وبناء الكنائس والبيع والصلبان. الخ.

ونجد في كتاب الخراج مصداق كل ما ذكرناه عن ابي يوسف، هو يتعرض لأمور من أهم شئون الدولة المالية، لا يستطيع الالمام بها والوقوف علي دقائقها يبيع الغز ويجلس في السوق، ويسمونه النعمان بن ثابت الخزاز، قال الاعمش وقد سئل عن مسألة: "انما

يحسن الجواب في هنا ومثله النعمان بن ثابت الغزالي، أراه يورك له في علمه، وقد اكسبه هذا أيضا فائدة كبرى إذ جعله يتصل بالحياة المالية العملية، فتعرف حقيقة مايجري في الاسواق ومعاملات الناس في البيع والشراء، والنقد والصرف والسلم والدين وما الي ذلك فاذا تكلم عن علم وخبرة ونظر وممارسة ومران.

الا من كان في مثل منصبه واتصاله بالخلفاء ومهام الدولة وهو واسع الاطلاع في الحديث، كثير الاخذ في الشيوخ في مختلف الامصار ومختلف الاتجاهات فهو يروي عن «بعض اشياخنا الكوفيين» و «عن بعض اشياخنا من أهل المدينة» وعن ابي حنيفة وعن مالك بن أنس، وعن الليث بن سعد، وعن عشرات غيرهم، وهو واسع الاطلاع علي اقوال الصحابة واعمالهم، ويتجلي في كتاب الخراج وقوله الدقيق علي تصرفات عمر بن الخطاب لأنه كان العينة في هذا الباب إذ ان عمر واجه هذه المشاكل المالية عند فتحه لبلاد الفرس والروم، وسنن لمن بعده ما يحتلونه وقد ورد اسمه في كتاب الخراج نحو ١٢٣ مرة.

ويظهر في الكتاب اثر النقل والعقل معاً فهو كثير النقل عن النبي «ص» والصحابة والتابعين وغيرهم، وهو مع هذا يخالف عمر

بن الخطاب فيما قدر علي الاراضي ويرد علي اعتراض علي ذلك فيقول "لم لم ترد الناس الي ما كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه وضعه علي ارضهم وتخلهم وشجرهم، وقد كانوا بذلك راضين، وله محتملين، قال ابو يوسف: أن عمر رأي الارض في ذلك الوقت محتملة لما وضع عليها، ولم يقل حين وضع عليها ماوضع من الخراج ان هذا الخراج لازم لاهل الخراج، وحتم عليهم ولايجوز لي ولعن بعدي من الخلفاء ان ينقص منه ولايزيد فيه، بل كان فيما قال لحليفه وعثمان حين اتياه بخبر ماكان استعمالهما عليه من أرض العراق: "لعلكما حملتما الأرض مالا تطبيق دليل علي انهما لو اخبراه انهما لاتطبيق ذلك الذي حملته من أهلها لنقص مما كان جعله عليهم من الخراج فلما رأينا ماكان جعله «عمر» علي ارضهم من الخراج يصعب عليهم، ورأينا اخذهم بذلك داعياً الي جلائهم عن ارضهم وتركهم لها، لم نحملهم ما يطيقون ولم نأخذهم من الخراج الا بما تحتمله ارضهم".

ونراه يفاضل بين الاحاديث ويختار اشهرها واعمها، فيقول: "وابتعنا الاحاديث التي جاءت عن رسول الله «ص» في مساقاة خبير لانها اوثق عندنا واكثره واعم ماجاء في خلائها". يخالف ابا حنيفة في بعض أقواله، ويرجع الي الاثر فيقول: "وسالت يا أمير

المؤمنين عما يخرج من البحر من حلية وعنبر... وقد كان ابو حنيفة وابن ابي ليل رحمها الله يقولان : ليس في شيء من ذلك شيء لانه بمنزلة السمك، واما أنا فاني أرى في ذلك الخمس، واربعة اخماسه لمن اخرجته لأقد رويانا فيه حديثاً عن عمر رضي الله عنه، ووافقه عليه عبد الله بن عباس فاتبعنا الأثر ولم نرخلفه".
الخ... الخ.

محمد بن الحسن الشيباني - قال بعضهم ان أصلة من قرية في ضاحية دمشق تسمى "حريستا" وقال بعضهم ان صلة من الجزيرة "شمال العراق" وان اياه كان في جند الشام، وانفقوا علي انه من الموالي ونسبته الي شيبان- بالولاء، وانه ولد بواسط ونشأ بالكوفة ولد سنة ١٣٢ وأخذ العلم عن ابي حنيفة ولكن الظاهر انه لم يصاحبه طويلاً فقد مات ابو حنيفة وعمر محمد نحو ثمان عشر سنة وتتلذذ ايضا لأبي يوسف، ورحل الي المدينة، وسمع من مالك وسمع من الأوزاعي وغيرهما، فهو كأبي يوسف تفقه بفقه اهل الرأي في الكوفة، وبفقه اهل الحديث في المدينة وغيرها، وقد جمع في دراسته أيضاً - كأبي يوسف - بين دراسة ادبية من نحو ولغة وشعر ودراسة دينية من قرآن وحديث وفقه. وقد أقام بالمدينة ثلاث سنين وبعض سنة يأخذ من مالك وشيوخ المدينة،

ومن اجل هذا كان جيد اللغة، واسع الاطلاع في نواحي التشريع المختلفة، ويظهر انه نشأ في سعة من العيش لا كأبي يوسف، فقد روي انه اتفق علي تعلمه التنقيح والشعر والحديث والفقه ثلاثين الف درهم، وكما روي أنه اعان الشافعي بماله وقد كان جميل المنظر حسن الملبس، فصيح القول جيد الفقه، قال فيه الشافعي "كان محمد بن الحسن يملأ العين والقلب". وقد ولي القضاء ولاء قضاء الرقة، ورويت عنه اخبار تدل علي أنه لم يكن يندري ويجامل كما كان ابو يوسف روي الخطيب البغدادي ان الرشيد اقبل يوماً، فقام الناس كلهم الا محمد بن الحسن فانه لم يقم، فخرج الاذن ونادي محمد بن الحسن، فجزع اصحابه له فلما خرج سئل عما كان قال: سألتني مالك لم تقم مع الناس؟ قلت كرهت ان اخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها، أنك اهلتني للعلم، فكرهت ان اخرج الي طبقة الغلبة الخ كما روي الرشيد سأل في أمان واعطاه لاحد الطالبين، واراد الرشيد ان يتحلل منه فقال محمد: هذا امان صحيح ودمه حرام، وقد تقدم الخبر بذلك وقد عزله الرشيد عن قضاء الرقة ثم استدعاه وقد مات محمد مع الرشيد في خروجه الي الري سنة ١٨٩ وقد كانت بيته وبين شقيقة ابي يوسف وحشة استمرت بينهما الي الوفاة ولعل السبب اختلاف النزعتين.

وقد افاد محمد فقه ابي حنيفة من ناحيتين: ناحية اشترك فيها مع ابي يوسف من سماع المحدثين وسماع فقه المدينة وتطعيم فقه ابي حنيفة بذلك وناحية أخرى هامة جداً وهي تفريغ المسائل من الأصول وقد عرف محمد بذلك وبمهارته في الحساب بما تحتاج اليه المواريث ونحوها، ثم تدوين الفقه في كتب كثيرة وهي عماد من أتى بعد في فقه ابي حنيفة، فمن أشهر كتبه الكتب الستة: المبسوط والزيادات، والجامع الصغير، والسير الصغير، والجامع الكبير، والسير الكبير ويسمى الحنفية هذه الكتب كتب ظاهر الرواية لأنها رويت عن محمد برواية الثقات وقد جمع الحاكم الشهيد هذه الكتب الستة في كتاب سماه الكافي، وشرحه جماعة منهم السرخسي في كتابه المشهور «المبسوط» وقد وصل إلينا وطبع في ثلاثين مجلداً، كما وصل إلينا كتاب الجامع الصغير لمحمد، يذكر في صدر كل باب "تمحمد عن يعقوب «ابي يوسف» عن ابي حنيفة" علي الجملة فقد كان محمد حلقة اتصال بين فقهاء الحديث وفقهاء الرأي، كما كان حلقة اتصال بين مذهب ابي حنيفة والشافعي، وكما كان له اكبر الفضل في تدوين مذهب ابي حنيفة وحفظه في الكتب، واغراف الناس منه بعد، وتأثر المؤلفين به ويكتبه.

زفر - وأما زفر العربي من تميم كان من أشهر أصحاب أبي حنيفة وكان أمهرهم في القياس وأكثرهم لمسلكه التزاما في الرأي، كان أبوه هذيل واليا علي البصرة، وكانت أمه أمه فارسية، فورث وجهة من وجهة أمه ولسانه من أبيه وكان قوي الحجة مقدما عند اصحاب أبي حنيفة قياساً، ولد سنة ١١٠ توفي ١٥٨.

ويعجبني في المقارنة بين الثلاثة ما روي عن المزني صاحب الشافعي انه جاءه رجل فسال عن اهل العراق، قال: ماتقول في أبي حنيفة؟ قال: سيدهم قال " فأبي يوسف؟ قال: ابتعهم للحديث، قال: فمحمد بن الحسن؟ قال أكثرهم تفريعاً قال: فزفر؟ قال: احدهم قياساً.

وعلي الجملة فقد انتشر فقه أبي حنيفة في العراق، وكان طبيعياً ان يسود في العراق، فقيه نشأ ومذهب البلد أدري بما يعرض من المسائل واقدر علي حلها، وهو باعتماده علي الرأي والقياس - حيث لانصر يصح - أكثر اسعالا للفتوي فيما يجد من أحداث تتطلب سرعة في البت، ثم قدر لأبي يوسف ان يكون في منصب رئيس يستطيع ان يخدم فيه هلا الفقه بسلطاته، كما حظي بمحمد يدونه ويسجله، ويذكر ابن النديم انه رزق كذلك بمحمد بن

شجاع الثلجي المتوفي سنة ٢٥٦ - وكان معتزليا ففتق فقه ابي حنيفة واحتج له وأظهر علله ونواه بالحديث وحلله في الصدور .
 كما يصح ان نستنتج ان فقه ابي حنيفة تغير بعض الشيء علي يد ابي يوسف ومحمد والثلجي واضرابهم عما كان عليه في زمن ابي حنيفة نفسه، فرجعوا عي آراء له إلي الحديث الذي صح عندهم وضيّقوا حدود الرأي والقياس عما كانت عليه زمن الامام، باتصالهم بأهل الحديث وفقهاء الحديث، وبالحمالات الشديدة التي شنع بها هؤلاء علي اهل العراق، وتلاقت هذه النزعة بنزعة اخري تشبهها، وهي نزعة بعض فقهاء الحديث الي الاستفادة من اصحاب الرأي، وتجلت هذه النزعة في الشافعي كما سيأتي - وبذلك قلت مسافة الخلف التي كان يراها الرأي بين ابي حنيفة ومالك .

ب - مالك ومدرسته

هو مالك بن أس الأصبحي المدني، والأصبحي نسبة الي ذي أصبح نسب عربي صحيح، وبذلك قال الواقدي، ولكن محمد بن اسحاق خالفه في ذلك، وزعم أن مالكا وجده واعمامه موالى لبني تميم بن مرة، وهذا هو السبب في تكذيب مالك لمحمد بن اسحاق والطعن عليه. ولد سنة ٩٣ أو ٩٧. وتوفي سنة ١٧٩، وعاش حياته بالمدينة، ولم أعرف أنه رحل عنها الا الي مكة حاجا.

وقد تزيد بعضهم في أخباره، كما فعل الحنفية وغيرهم، فزعموا أن أمه حملت به ثلاث سنين «ولا أدري قيمة هذا في فضل الرجل»، ورووا أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "يخرج الناس من المشرق والمغرب فلا يجدون عالماً أعلم من أهل المدينة" الخ.

ولسنا نعرف كثيراً عن نشأته الأولى، ودراسته العلمية في صباه، وقد ذكروا أنه أخذ عن نافع ابن نعيم، وسمع الحديث من كثير من شيوخ المدينة أشهرهم ابن شهاب الزهري، وناقع مولي ابن عمر، فابن شهاب الزهري أحد الفقهاء والمحدثين وكان من أعلم الناس في زمنه بالسنة، وقد روي عنه مالك في الموطأ [في بعض

نسخ الموطأ] مائة واثنين وثلاثين حديثاً، ونافع مولي عبد الله بن عمر اصله من الديلم، أصابه عبد الله بن عمر في غزوة غزاها فأسلم وأخذ عن ابن عمر حديثه، وكان من أشهر علماء المدينة، وقد روي عنه مالك في الموطأ ثمانين حديثاً كما أخذ عن هشام بن عروة بن الزبير، وقد روي عنه في الموطأ ستة وخمسين حديثاً، وهكذا لقي شيوخاً كثيرين وخاصة شيوخ المدينة، وأخذ عنهم.

ومن أشهر ما حدث له محنته أيام المنصور حين خرج محمد بن عبد الله بن الحسن وأخوه إبراهيم علي المنصور، وقد رويت في هذه الحادثة روايتان: أحدهما أن مالكا كان يفتي الناس بأنه لا يقع طلاق المكره، ويحدث الناس بحديث "ليس علي مستكره طلاق" ولم تكن هذه الفتوى تعجب العباسيين، لأن هذا يستتبع أن من بايع العباسيين مكرهاً فله أن يتحلل من بيعته، وله أن يبايع محمد بن عبد الله بن الحسن بالمدينة، فرووا أن المنصور نهى مالكا عن التحديث بهذا الحديث، ثم دس إليه من يسأله، فحدث به علي رؤوس الناس فضربه بالسياط، والرواية الأخرى أن مالكا لما علا شأنه بالمدينة سعي حساده، ألي والي المدينة جعفر بن سليمان، وقالوا أنه لايري ايمان بيعتكم هذه - بشئ، وهو بحديث ثابت بن الأحنف . بي طلاق المكره انه لايجوز، فغضب جعفر ثم جرد ومد

فضربه بالسياط، ومدت يده حتي ادخلت كتفه، قالوا: فما زال مالك بعد هذا الضرب في رفعه من الناس وعلوا من أمره حتي كانما كانت تلك السياط حليا حلي بها.

كما روي عنه أنه سئل عن البغاه «يعني العصاة الخارجيين علي الخلقاء» أيجوز قتالهم؟ فقال: ان خرجوا علي مثل عمر بن عبد العزيز، فليل، فان لم يكن مثلهم فقال: دعهم ينتقم الله من ظالم بظالم، ثم ينتقم من كليهما، فكانت هذه الكلمة من أسباب محنته.

علي كل حال تتفق الروايتان في ضربه، وفي اصل السبب، وتختلف في التفاصيل. وقد روينا قبل عن أبي حنيفة مثل هذا الموقف، وزيد عليه طلبه القضاء وإبائه فلعل رأي أبي حنيفة ومالك كان متفقاً، وسياسة المنصور في الحالتين واحدة.

تركزت مدرسة المدينة في مالك كما تركزت مدرسة الكوفة في أبي حنيفة، فان أردنا تصوير مدرسة المدينة كما فعلنا بمدرسة الكوفة فليكن هكذا:

علي ابن أبي طالب (في الكوفة)

عبد الله بن مسعود (في الكوفة)

الاسود بن يزييد النخعي

مسروق، بن الاعدع الهمداني

(مات سنة ٩٥) (مات سنة ٩٣) (مات سنة ٩٣) (مات سنة ٧٨)

شرح بن الحارث السكندري

عامر بن شراحيل الشعبي

ابو اهم النخعي

(مات سنة ١٠٤)

(مات سنة ٩٥)

مات سنة ١٢٠

حماد بن أبي سليمان

مات سنة ١٥٠

ابو حنيفة

زفسر

محمد بن الحسن

ابو يوسف

واكثر رجال هذه المدرسة عرفوا بالحديث والفقہ فيه فبعد عصر الصحابة كان رأس المدرسة من التابعين سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد بن المسيب، وقد كان يعد وارث عمر في علمه في المدينة، وتصدر سعيد للفتوى، وكان لا يهابها، فأثر عنه كثير من الفتاوى والآراء، وكان يقول "ما قضي رسول الله ﷺ ولا أبو بكر ولا عمر ولا عثمان ولا علي قضاء الا وقد علمته". وجاء في الطبقة التي بعد، الزهري ونافع فكانا أعلم أهل المدينة حديثاً وفقهاً. كل هؤلاء كانوا يحفظون الحديث عن رسول الله، وطبيعي أن تكون المدينة أغني من أي عصر آخر في هذا، فالنبي كان فيها أكثر أيام التشريع، كما كان بها من الخلفاء الراشدين أبو بكر وعمر وعثمان، وكانت حاضرة الخلافة في أيامهم، ومنها تصدر الآراء في المسائل الدينية والسياسية، كما كان المديون أقدر علي مشاهدة التشريع العملي، فهم أعرف بما كان النبي يفعل في وضوئه وصلاته وزكاته، وما كان يفعله كبار الصحابة فكما كان كل جيل من العلماء يتلقي الأحاديث المروية عن قبله كذلك كان يتلقي الأعمال وهيئاتها من الجيل الذي قبله، فكان طبيعياً أن تكون المدينة مقر مدرسة الحديث ولكن الذي قد يلفت النظر أن يكون بين كبار رجال المدينة ربيعة الرأي، وهو كما يدل عليه اسمه من أهل الرأي، ومن شيوخ مالك، وقد روي عنه في الموطأ اثني عشر حديثاً وهو فارسي

الاصل، وقد روي عنه انه جادل سعيد بن المسيب في دية الأصابع، وسعيد يتمسك بالسنة، وربيعه يعترض بالرأي، فقال له سعيد: أعراقي أنت؟ قال: لا بل عالم متثبت او جاهل متعلم، قال سعيد: هي السنة، وقد روي في ترجمته أنه كان في العراق أيام السفاح وأنه قربته واستعمله، فهل أخذ الرأي عن العراقيين ليأمن كان بينهم؟ ظن بعضهم ذلك، ولكن يظهر أنه غير صحيح، فقد رأينا هذه النزعة عنده قبل أن يكون في العراق، لأنه بهذه النزعة جادل سعيد بن المسيب المتوفي سنة ٩٣ قبل ولاية السفاح بزمان طويل، ولأنه قد روي الرواه ان ربيعته كان يكره العراق وأهله، واستعفى ابا العباس من أجل ذلك وعاد الي المدينة، فقليل له كيف رأيت العراق وأهلها؟ "رأيت قوماً حلالاً حرامهم، وحراماً حلالهم، وتركنا بها أكثر من أربعين ألفاً يكيدون هنا الدين" فالظاهر ان نزعة الرأي عنده وليدة المدينة نفسها، فالصاحبة الذين كانوا بالمدينة منهم من كان يعمل العقل حيث لائن كما تقدم في سيره عمر بن الخطاب، ومنهم من لا يميل الي ذلك كابنه عبد الله بن عمر، ولاشك ان النزعتين يقيتا، وتأثر بهذه قوم، وهذه آخرون، ولكن كان لون الحديث ابيض وواضح، وكان وجود ربيعته الرأي بينهم علما علي اللون الآخر، وسنري اثر ذلك حتي في فقه مالك.

وكان طبيعياً كذلك ان تكون المسائل التي تعرض لفقهاء المدينة أقل عدداً لتخرج المدنيين من الفتوى اذا قيسوا بالعراقيين، ولأن المشاكل القانونية والمسائل الفقهية تدور مع المدينة، ولأن المدينة كانت أقرب الي بساطة العيش وأبعد عن تعقيدات الحضارة، وكان مآثر عندهم من حديث كثير كافياً في أغلب الاحيان كل مايعرض من اشكال.

متحي مالك في الاجتهاد - كان مالك لايشترط في الحديث ما اشترطه ابو حنيفة من الشهرة وغيرها، بل يعمل بخبر الواحد اذا صح أو حسن، وهذا المبدأ يجعل الاحاديث التي يتبني عليها مذهبه اكثر عدداً، فلا يتطلب في الحديث شهرة، وانما يتطلب صحة السند ونحوها، ولا يفهم من هذا تساهله في قبول الحديث من غير تحر أو تدقيق، بل هو شديد التحري ولكن لايشترط شهرة الحديث وعمومه، روي عنه أنه قال: "لقد أدركت سبعين ممن يقول قال رسول الله ﷺ عند هذه الاساطين، واشار الي مسجد رسول الله ﷺ فما أخذت عنهم شيئاً، وان أحدهم لو أؤمن علي بيت مال لكان أميناً، الا أنهم لم يكونوا من أهل هذا الشأن" وكان يقول: لا يؤخذ العلم من أربعة، ويؤخذ ممن سواهم، لا يؤخذ من سفيه، ولا يؤخذ من صاحب هوى يدعو الي بدعته، ولا من كذاب يكذب في

أحاديث الناس وإن كان لا يهتم علي حديث رسول الله ﷺ ولا من شيخ له فضل وملاح وعبادة إذا كان لا يعرف ما يحمل وما يحدث .

وقد جمع الموطأ وظل ستين يحرره، ويحذف منه الحديث الذي يتبين له عدم صحته، ولكن مع هذا كله كانت دائرة الصحة عنده أوسع من دائره أبي حنيفة .

ومسألة أخرى هي عنده أساس للتشريع، وهي عمل أهل المدينة . كان مالك يدل بعمل أهل المدينة، ويرى أنهم أدري بالسنة وبالناسخ والمنسوخ ويقول في كتابه لليث بن سعد: " أن الناس تبع لأهل المدينة إذا اتفقوا علي عمل مسألة واتفق مع العمل علمائها فهذا العمل حجة يقدم علي القياس، بل ويقدم علي الحديث الصحيح، أما إذا لمي كن عملاً اجماعياً، بل عمله أكثرهم، فهذا العمل أيضاً حجة يقدم علي خبر الواحد لأن العمل بمنزلة الراوية، فعمل الأكثر بمنزلة رواية الأكثر، فإذا جاء خبر واحد يخالفهم كان الراجع أنه منسوخ، علي أن ينبغي التفرقة بين اجماعهم علي العمل النقلي والاجتهادي فالنقلي كنقلهم تعيين محل منبر النبي ﷺ وقبره ومحل وقوفه للصلاة، وكتعيينهم مقدار المد والصاع والأوقية في عهد رسول الله ﷺ، ونقلهم كيفية الأذان

والاقامة هل كانت مثنى أو فرادي، والاجتهادي كأجتهاد المدنيين في بطلان خيار المجلس ونحوه، فالأول لأخلاف في حجته عند مفسري مذهب مالك، والثاني مختلف فيه عندهم، وهذه التفرقة معقولة، فالأعمال التي يجمع عليها أهل المدينة كتحديد المكاييل والموازين، وأشكال الأعمال التي عملها الرسول [ص] الأرجح فيها أن الجيل التالي من سكان المدينة نقلها عن الجيل الأول كما هي فإن ضاقت دائرة الحديث واتسعت دائرة الرأي عند الأولين كان الأمر علي العكس عند الآخرين، أما عدد الدوائر نفسها فتكاد تكون واحدة .

أكبر آثار مالك التي نقلت إلينا "الموطأ" و"المدونة"

الموطأ - فأما الموطأ فكتاب الفقه مالك، فيه مظهر للحديث ومظهر للفقه، فمظهر الحديث أن أغلب ما فيه حديث عن رسول الله [ص] أو الصحابة أو التابعين، أخذ هذه الأحاديث عن رجال عديدين بلغوا نحو خمسة وتسعين رجلاً، كلهم مدنيون إلا ستة: اثنان بصريان . ومكي واحد، وخرساني وجزري وشامي . والأحاديث التي يرويها عن

هؤلاء الستة قليلة جداً، فمنهم من يروي له الحديث ومنهم من يروي له الحديثين، وقد لقيهم مالك أما في المدينة أو في مكة . أما من عدا هؤلاء الستة فمدينون يروي عنهم مالك، بعضهم يروي له كثيراً كابن شهاب الزهري، ونافع، ويحيى بن سعيد، وبعضهم يروي له الحديث الواحد أو الاثنين أو الثلاثة، وحتى الصحابة التي يروي لهم أكثرهم ممن أقام بالمدينة طويلاً - حتي روي أن الرشيد قال لمالك لم لم تر في كتابك ذكراً لعلي وابن عباس، فقال: لم يكونا ببليدي، ولم ألق رجالهما وهذا العبر مشكوك فيه، ولكن مما لاشك فيه أن روايته عنهما في الموطأ مسندة وبعضها مرسلة، ومتملة ومنقطعة، وبعضها مما يسمى بلاغات، وهو مايقول فيها مالك بلغني أو نحوه من غير أن يعين من روي عنه فيقول: بلغني عن سعيد بن يسار عن سعيد بن يسار عن أبي هريرة أن رسول الله خصوصاً إذا قرب العهد كما رجحوا عند الخلاف أعمال المكين في مناسك الحج لأنهم بها ادري، أما المسائل الاجتهادية فالأمر فيها سواء بين مجتهدي الصحابة والتابعين من المدينين والكوفيين والشاميين والمصريين . وقد نقل مالك اجماع أهل المدينة في موطئه علي نيف وأربعين مسألة، وقد خالف مالكا في حجه عمل أهل المدينة الليث بن سعد في رسالته الي مالك والشافعي في الأم وناقشاه مناقشة قيمة ممتعة .

ومن مسلك مالك في التشريع، العمل بقول الصحابي أن صح
نسبته إليه وكان من اعلام الصحابة - كالخلفاء الراشدين، ومعاذ بن
جبل، وابن عمر وكان لم يرد في المسألة عينها حديث عن النبي
صحيح. وقد رد عليه في ذلك بأن الصحابة ليسوا محل العصمة،
ويجوز عليهم الغلط، وبأن قول الصحابة لو كان حجة لزم التناقض،
لأن كثيراً ماصح في المسألة الواحدة آراء مختلفة للصحابة وقد
رأينا قبل مسلك أبي حنيفة في أقوال الصحابة الخ.

ومن هذا نرى أن هذين الاملين، اعني عمل أهل المدينة وقول
الصحابي قد غنيا فقه مالك بأثار كثيرة كان من شأنها تضيق دائرة
الرأي، ومع هذا فلم ينكر مالك الرأي بتاتا، فمن أصول مذهبه
القول بالمصالح المرسلة او الاستصلاح، وقد تقدم الكلام فيه، ومن
هذا القبيل مقاله من الضرب عند التهمة للاعتراف بالسرقه، ورويت
عنه اقوال دليلها الاستحسان، كتضمنين الصانع وثبوت الشفعة في بيع
الثمار فمن هذا نرى ان مسالك الائمة من أصحاب الرأي وأصحاب
الحديث تكاد تكون واحدة في العدد، ولكن الاختلاف انها هو سعة
الدوائر وضيقها صلى الله عليه وسلم قال: الخ.

أو يقول عن نفسه. عندي عن عمر بن شعيب الخ. وقد جمع مالك احاديث كثيرة، ثم كان يختار منها عليهما السنين، فقد روى ان مالكا "جمع في الموطأ اربعة الاف حديث أو اكثر، ومات وهي الف ونيف يخلصها عاما عاما بقدر مايري انه اصلح للمسلمين وأمثلة في الدين". وقد روى انه شغل به نحو اربعين عاما واما ناحية الفقه فيه فانه رتبته ترتيب الفقه، فكتاب الطهارة، ثم كتاب الصلاة ثم كتاب الزكاة، ثم الصيام وهكذا، وفي كل كتاب من هذه فصول، كل فصل يجمع المسائل المتشابهة كصلاة الجماعة، وصلاة المسافرين الخ.

وايضاً يزيد علي الحديث احياناً استنتاجه الفقهي منه. وطريقته في التأليف أن يذكر الاحاديث المتعلقة بالموضوع الواحد، وقد يعقب الحديث بتفسير كلمة لغوية فيه، وأحياناً يعقبه بأنه سئل في كذا فاجاب بكذا استنادا الي أية أو حديث أو قياس، سئل مالك عن الحائض تطهر فلا تجد ماء هل تتييم؟ قال: نعم، لتتييم فان مثلها الجنب اذا لم يجد ماء تتييم". وأحياناً يعقبه بتفريع مسائل وذكر حكمها، كأن يقول بعد احاديث السرقة " وليس علي الاجير ولاعلي الرجل يكونان مع القوم [السارقين] قطع. لان حالهما ليست بحال السارق، وانما حالهما حال العائن، وليس علي

العائن قطع "والامر عندنا في السارق يوجد في البيت قد جمع المتاع ولم يخرج به انه ليس عليه قطع وانما مثل ذلك كمثله رجل وضع بين يديه خمرأ ليشربها فلم يفعل فليس عليه حد" . الخ واحيانا لا يبدأ بالحديث، بل يذكر المسألة ويذكر حكمها ودليله علي هذا الحكم، واحياناً يذكر في المسألة حكم علماء المدينة، فيقول "الامر الذي لا اختلاف فيه عندنا كلها" ، الخ، الخ .

فهو لهذا كله كتاب حديث وفقه معاً . وقد روي الموطأ روايات مختلفة تختلف في ترتيب الأبواب، وتختلف في عدد الأحاديث حتي عدها بعضهم عشرين نسخة وبعضهم ثلاثين، واختلافها رواياتها عن مالك، وسبب الاختلاف علي ما يظهر - ان مالكا لم ينته من نسخة يؤلفها ويقف عندها، بل قد كان دائم التغيير فيها لما رويها قبل من أنه كان دائم المراجعة للأحاديث وحذف ما لم تثبت صحته، منها، فالذين سمعوا الموطأ سمعوه من مالك في أزمان مختلفة فكان من ذلك الاختلاف في النسخ . وقد بقي من هذه النسخ بين أيدينا رواية يحيى بن يحيى الليثي، وهي التي شرحها الزرقاني، ورواية محمد بن الحسن الشيباني صاحب أبي حنيفة، وفيها أشياء كثيرة ليست في رواية يحيى، وهو يمزج ما روي عن مالك بأرائه، فكثيراً ما يقول: "قال محمد" .

وقد روي أن عبد العزيز بن عبد الله بن أبي سامة الماجشون سبق مالكاً فعمل كتاباً ذكر فيه ما اجتمع عليه أهل المدينة، [ويعني آراءهم وفقههم] عمل ذلك من غير حديث، وراه مالك فقال: "ما أحسن ما عمل، ولو كنت أنا الذي عملت ابتدأت بالآثار، ثم سددت ذلك بالكلام". ويظهر أنه أنقذ فكرته بعد خالف الموطأ علي هذا المنهج رسمه: بدء بالحديث غالباً، ثم تشييه بعمل أهل المدينة أو تفريع الفروع واستنتاج حكمها.

وعلي كل حال فكتاب الموطأ يعد من أوائل الكتب التي الفت في الحديث والفقه وقد نشره الآخرون عن مالك في الأمصار، فمحمد بن الحسن في العراق ويحيى بن يحيى الليثي في الأندلس، وعبد الله بن وهب وعبد الرحمن بن القاسم وعبد الله بن عبد الحكم وأشهب في مصر، وأسد بن الفرات في القيروان. الخ وكان له أثر كبير في الحركة العلمية الدينية علي اختلاف العصور.

المدونة - أما المدونة فهي مجموعة رسائل تبلغ نحو ستة وثلاثين ألف مسألة، جمعها أسد بن الفرات النيسابوري الأصل التونسي الدار، وكان تلميذاً لمالك سمع منه الموطأ ثم رحل الي

العراق، وفعل في العراق كما فعل محمد بن الحسن في المدينة
كلاهما مزج الفقهين، وقهّب بين المدرستين، فقد لقي أسد بن
الفرات صاحب أبي حنيفة أبا يوسف ومحمدا، وسمع منهما الفروع
علي الطريقة العراقية، ثم ذهب إلى مصر ولقي أصحاب مالك بها،
ولاسيما ابن القاسم، وعرض عليهم هذه الفروع ونحوها، وسمع منهم
حكمها علي مذهب مالك، أما حسب ما سمعوا من مالك، وأما اجتهد
علي أصوله ومنحاه، وجمع أسد بن الفرّات ذلك كله في كتاب سمي
المدونة، ثم رحل بها أسد إلى القيروان فأغداها عنه سحنون الفقيه
المغربي، وعاد بها إلى مصر سنة ١٨٨ فعرضها علي ابن القاسم
وأصلح فيها مسائل، وكانت لما جمعها أسد بن الفرّات غير مرتبة
ولا مبوبة فرتبها سحنون وبوبها، واحتج لبعض مسائلها بالآثار،
وعاد بها القيروان وانتشرت منها إلى الأندلس، وكان لها الفضل في
نشر مذهب مالك في قطري المغرب والأندلس.

فالمدونة كما تری متأثرة بالعراقيين في تفريغ المسائل
وتوليدها، وبالحجازيين في تطبيق مذهب مالك عليها، ومن هذا تری
كيف كان الزمن والرجال والرحلات تعمل علي استفادة كل مذهب بما
لآخر، فالمدونة ليست اذن من تأليف مالك، وإنما هي جمع لفتاوي
مالك في مسائل، واجتهاد من تلاميذه وتلاميذ تلاميذه في وضع

احكام لمسائل علي قواعد ومبادئه.

وقد كان لمالك اصحاب اكثر عظمائهم مصريون كعبد الله بن وهب وابن القاسم وأشهب وعبد الله بن عبد الحكم، ومن عظمائهم اندلسي كبير، وهو يحيى بن يحيى الليثي.

فالأربعة الأولون كانوا عماد المدرسة الدينية في مصر لعهدهم، وكانوا مع أخذهم عن مالك يجتهدون ويخالفون أحياناً، كما خالف أبو يوسف ومحمد أبا حنيفة، وكما خالف المزني والبطي الشافعي. وأما يحيى بن يحيى الليثي فأصله من قبيلة بريرة يقال لها مصمودة، ونسب إلى بني ليث بالولاء، رحل إلى المدينة وسمع من مالك، ورحل إلى مكة وسمع بمصر من الليث بن سعد وابن القاسم، ورجع إلى الأندلس بعد ماكمل علمه، فكان عالم الأندلس وعظيمها ووجيهها، وإلى الفضل في نشر مذهب مالك في الأندلس، فقد كان - كما قال ابن حزم - : "مكيناً عند السلطان مقبول القول في القضاء، فكان لأيلي قاض في أقطار بلاد الأندلس إلا بمشورته واختياره. ولا يشير إلا بأصحابه ومن كان علي مذهبه، والناس سراع إلى الدنيا، فأقبلوا علي ما يرجون بلوغ أغراضهم به، علي أن يعيى ابن يحيى لم يل قضاء قط ولا أجاب إليه، وكان ذلك

زائدا في جلالتة عندهم، وداعيا الي قبول رأيه لديهم"، وهو صاحب الفتوى المشهورة لأمير الأندلس عبد الرحمن بن الحكم، فقد وقع علي جارية له في رمضان، فأفتي ان يكفر بصوم شهرين متتابعين . وسئل لم لم تفتة بمذهب مالك، فعنده أنه مخير بين عتق رقبة وأطعام ستين مسكينا وصوم شهرين؟ فقال: لو فتحنا له هذا الباب لسهل عليه هذا العمل، ويعتق فيه رقبة، ولكن حملته علي اصعب الأمور لئلا يعود - وتعد روايته للموطأ أصح رواية، وهي التي بين أيدينا وقد خالف مالكا في مسائل ذهب فيها الي مذهب الليث بن سعد، فلم ير القضاء بالشاهد مع اليمين كما رأي مالك، وقال لابد من شاهدين رجلين أو رجل وأمرأتين أتباعا لليث، وكان يري جواز كراء الأرض بجزء مما يخرج منها كما يري الليث".

وعلي الجملة فان كانت مدرسة ابي حنيفة قد وسعت الفقه بكثرة الفروع، وبما يستلزمه ذلك من رأي وقياس واستحسان، ومواجهة المشاكل المعقدة التي قدمتها لها المدينة الضخمة، والتي قدمتها لها بقايا الأمم الممدة في العراق من آشوريين وكلدانيين

وفرس وغيرهم، فإن مدرسة مالك قد اشرت في الفقه بما نقلت من
أحاديث كانت وافرة فيها بحكم قيام الرسالة فيها . وكثرة الصحابة
بها . وبما قدمت من أشكال وأوضاع تداولها سكان المدينة جيلاً عن
جيل، وأهل المدينة في ذلك أوثق، فقد شهد الأولون منهم النبي
يتوضأ علي نحو خاص ويصلي علي نحو خاص، وعرفوا مقدار
المكاييل والموازين التي كانت تستعمل لعهد . فنقلوا ذلك كله الي
من بعدهم من طريق الأخبار أحياناً، ومن طريق التورث أحياناً
أخري، وتسلسل ذلك الي مالك ومدرسته، ثم كان من أصحاب
المذهبين من ينتفع بمزايا كل، فيرحل محمد بن الحسن الحنفي الي
المدينة يمكث فيها ثلاث سنين ويروي الموطأ ويعود الي العراق
مزوداً بالأثار، ويذهب اسد بن الفرات ويمكث في العراق طويلاً،
ويعود الي مصر والقيروان مزوداً بكثرة الفروع، وبذلك وأمثاله
تأثرت المدرستان، وتقارب المذهبان .

ج - الشافعي ومدرسته

الشافعي هو محمد بن ادریس، قرشي من جهة الأب، يلتقي مع النبي «ص» في عبد مناف، وقد روي الجرجاني «وهو من الحنفية» عن أصحاب مالك أن شافعاً جد الشافعي والذي ينسب إليه لم يكن قرشي الأصل، وإنما كان مولی لأبي لهب وعلي ذلك يكون الشافعي مولی، ولكن قوله هذا لم يقره عليه علماء الأنساب، والظاهر أنه حملة علي ذلك العصبية المذهبية فالمصحيح أنه قرشي، والراجح أن أمه ازدية، والأزد من اليمن، وكان أبوه خرج في حاجة إلي الشام فولدت له الشافعي بغزة أو عسقلان سنة ١٥٠ ، ثم مات أبوه فحملته أمه إلي مكة وهو ابن لستين، وقد نشأ فقيراً كما حدث هو عن نفسه. وروي عنه أنه قال كنت يتيماً في حجر أمي ولم يكن لها مال، وكان المعلم يرضي من أمي أن أخلفه إذا أم، فلما جمعت القرآن دخلت المسجد، فكنت أجالس العلماء فأحفظ الحديث أو المسألة، وكانت دارنا في شعب الخيف، فكنت أكتب في العظم فإذا كثر طرحت في جرة عظيمة "وفي رواية" لم يكن لي مال فكنت أطلب العلم في الحدائق، فاذهب إلي الديوان فاستوهب منهم الظهور فاكتب فيها".

قال " وخرجت من مكة فلزمت هذيل بالبادية اتعلم كلامها
واخذ اللغة وكانت افصح العرب " وقد افادته الاقامة في البادية
مع قرشيته معرفة واسعة باللغة والشعر، واعانته علي تفهم معاني
القرآن والسنة، فراه يستشهد علي أن السعي معناه العمل في قوله
تعالى: ﴿اذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسعوا الي ذكر الله﴾
بقول زهير: سعي بعدهم قوم- لكي يدركوهم- فلم يفعلوا ولم
يليموا ولم يألوا وبأن السر معناه الجماع في قوله: " ولكن لاتواعد
هوهم سرا " بآيات لأمراء القيس وجريز الخ. كما أفادته قوة
التعبير وعربية رصينة في الاسلوب وذوقا دقيقا، حتي لقد قرأ
عليه رجل فلحن، فقال له الشافعي : " اضرستني " وقد روي ان
الاممعي اخذ عنه شعر الهذليين وشعر الشنقيط- ثم اتجه الي
الحديث والفقه، فأخذ في مكة عن سفيان بن عيينة ومسلم بن خالد
الزنجي، وحفظ الموطأ ثم رحل الي مالک في المدينة وسمع منه
الموطأ، وأخذ عنه فقه، ولأزمه الي ان مات مالک سنة ١٧٩ ثم
وخرج الي اليمن، وقد كر في رحلته اليها اسباب كثيرة أقر بها
أن والي اليمن جاء مكة فكلمه بعض القرشيين أن يأخذ الشافعي
ويولية بعض الأعمال، ففعل وولاه بعض الأعمال، ثم اتهم بالتشيع
وامتحن، والروايات كذلك مختلفة: هل اتهم هذه التهمة وهو
باليمن أو بعد أن عاد الي الحجاز فان ابن عبد البر يروي انه اتهم

بالتشيع والميل الي مبايعة علوي وهو بالحجاز وابن حجر يروي روايات مختلفة كلها متفقة علي أنه اتهم بذلك وهو في اليمن، والكل متفقون علي النتيجة وهي انه حمل في هذه التهمة الي هارون الرشيد، فنفي الشافعي التهمة وعفا عنه الرشيد وكان ذلك نحو سنة ١٨٤، وسن الشافعي نحو اربع وثلاثين سنة ثم قدم بغداد سنة ١٩٥ واقام بها سنتين ثم رجع الي مكة ثم قدم بغداد سنة ١٩٨ فأقام فيها اشهرًا، ثم خرج منها الي مصر سنة ١٩٩ وظل بها الي أن مات سنة ٢٠٤ وفي اثناء اقامته بالعراق اتصل بمحمد بن الحسن صاحب ابي حنيفة وأخذ عنه فقه العراقيين، وقال ابن حجر: "انتهت رئاسة الفقه بالمدينة الي مالك بن انس حل اليه «الشافعي» ولأزمه وأخذ عنه، وانتهت رئاسة الفقه بالعراق الي ابي حنيفة فأخذ «الشافعي» عن صاحبه محمد بن الحسن جملاً ليس فيها شئ الا وقد سمعه عليه فاجتمع له علم اهل الرأي وعلم اهل الحديث فتصرف في ذلك حتي اصل الأصول، وقعد القواعد وأذعن له الموافق والمخالف واشتهر امره وعلا ذكره وارفع قدره حتي صار منه ما صار".

وقد خلف لنا الشافعي في كتاب الام وصيته التي أوصي بها قبل ان يموت فتاريخها صفر سنة ٢٠٣ يقول فيها: "هنا كتاب

كتبه محمد بن ادريس ابن العباسي الشافعي في حجة منه وجواز من أمره، ان الله رزق ابا الحسن «ابن الشافعي» مالا فآخذ منه بن ادريس من مال ابنه أربعمئة دينار جيادا صحاحا مثاقيل وضمنها. محمد بن ادريس لابنه " وفي هذه الوصية تصدق علي ابنه بثلاثة أعبد كان يملكها الشافعي وصيف اشقر خصي يقال له صالح ، ووصيف نوبي خباز يقال له بلال وعبد فراني، وتصدق عليه بأمه شتراء كانت له - وفي هذه الوصية ايضا تصدق بحلية وقد عددها في الوصية - وتصدق بمنزلين له في مكة وقفهما علي ابنه، ثم من بعده لأولاد ابنه الذكور والاناث الخ.

وله وصية أخرى في شعبان من هذه السنة، أوصي فيها بماله وقسمه أسهما وبين مايفعل بعبده وجواريه، ومايعطون من ماله، ومايعطي لفقراء آل شافع.

وهذه الوصايا تدل عل ان حالته المالية في مصر كانت لأباس بهاوان لم تبلغ درجة الغني.

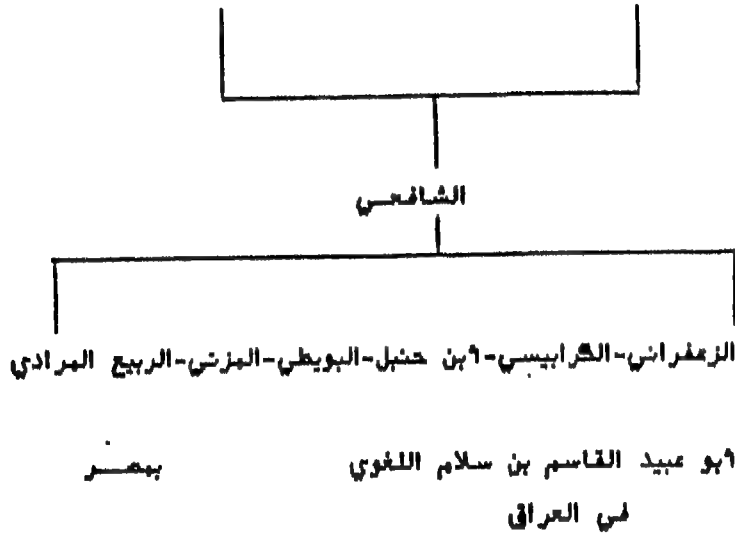
وأما صفاته العقلية واللسانية فيكاد المؤرخون يجمعون علي علوبة منطقة وحسن بيانه وذكائه وقدرته اللافقة علي الجدل وقوته

في التفكير ومهارته في الاستنباط.

اذن ثقافته ثقافة في اللغة والأدب واسعة، وثقافة في الحديث وحل في طلبه الي بلاد كثيرة، وثقافة في الفقه علي نمط مدرسة الحجاز وثقافة في الرأي علي نمط مدرسة العراق، وثقافة اجتماعية في مشاهدته لحياة البدو في البادية والحضارة الاولى في الحجاز واليمن، والحضارة المعقدة المركبة في العراق ومصر وحياة الفقراء من البدو والزهاد من المحدثين، ومن أغلوا بحظهم من الدنيا كمحمد بن الحسن الشيباني في العراق، وابن عبد الحكم في مصر، ورؤية لأنماط من الحياة الاجتماعية والاقتصادية مختلفة، تتطلب أنواعاً من التشريع مختلفة فالمصريون يتعاملون أنواعاً من المعاملات لاي تعاملها اهل العراق والمصريون والعراقيون يشتركون احياناً فيما لا يشترك معهم فيه الحجازيون ونظام الري للنيل في مصر غير نظام دجلة والفرات في العراق، وذلك سيتتبع اختلافاً في العراق وما اليه كلاهما يختلف في ذلك عن بلاد لا تعرف أنهاراً كالحجاز، كل هذا وأمثاله كان له اثر كبير في تكوين المذهب الشافعي، فان نحن أردنا ان نخطط رسماً بيانياً لمدرسته كما فعلنا من قبل كان هذا يسيراً سهلاً.

مدرسة مالك (السابقة) مدرسة أبي حنيفة (السابقة)

مدرسة مالك (السابقة) مدرسة أبي حنيفة (السابقة)



وكان الشافعي في أول أمره يعد تلميذا لمالك، ومتبعاً لمذهبه
وتعاليمه وأحد رجال مدرسته، وما زال كذلك الى سنة ١٩٥. حيث
قدم بغداد قدمته الثانية فهناك بلغ مبلغ مؤسس مذهب يدعو اليه
والظاهر ان أقوى ما أثر فيه اتصاله في قدمته الاولى باصحاب أبي
حنيفة واستفادته من كتب محمد وعلمه بطريقة اهل العراق فقد

رأي من غير شك ان طريقتهم لا يحسن اخذها كلها، ولا تركها كلها فعندهم القياس وهو منهج صحيح، لكنه في نظره ليس علي اطلاته بل لابد أن يتأخر عن الأحاديث الصحيحة، حتي ما كان منها خبر آحاد، وعندهم طريقة التفريع وتوليد المسائل الكثيرة من أصولها وهي طريقة جيدة وعندهم الجدل والاستدلال بالعدالة والمصلحة، والحق الشبيه بالشبيه وما بين الأشياء من فروق وموافقات والمناظرة في ذلك وتأليف الحجج وقد رأي ذلك حسنا، ورأي نفسه في استعداد جيد للدخول في هذا الباب والتفوق فيه، فاقتبس من ذلك أحسنه، واطافه الي ثروته العجائز من اللغة والأدب أولا، والحديث واجماع اهل المدينة وطريقة العجائزين في الاستنباط ثانيا.

هاتان الناحيتان قد استفاد منهما الشافعي، والى بينهما بشخصيته فاخرج مذهبا جيدا دعا اليه في العراق سنة ١٩٥ وتبعه عليه بعض اصحابه البغداديين مثل ابي علي الحسين بن علي الكرايسي. وكان من مشاهير علماء العراق وله مصنفات كثيرة مات سنة ٢٥٦ ومثل ابي ثور الكلبي وقد صحب الشافعي في بغداد وأخذ عنه، والى في مسائل الاختلاف بين مالك والشافعي، وكان أميل الي الشافعي في كتبه، وكأني علي الزعفراني كان يقرأ كتب

الشافعي التي ألفها قبل قدومه مصر- ولكن يظهر ان الشافعي لم يجد لمذهبه في العراق نجاحاً كبيراً لمزاحمة الحنفية له ولما له من جاه وسلطان وقوة، فتحول الي مصر، قال الزعفراني: لما أراد الشافعي الخروج الي مصر أنشد لنفسه:

أخي أري نفسي تتوق إلي مصر ومن دونها أرض المهامة والقفر
فو الله ما أري للفوز والغني أساق إليها أم أساق إلي قبري

قال الزعفراني: فو الله لقد سبق اليهما جميعا وسأل الشافعي الربيع عن اهل مصر قبل ان يرحل اليهم فقال له الربيع: هم فرقتان: فرقة مالت الي قول مالك وناضت عنه وفرقة مالت الي قول ابي حنيفة وناضت عنه، فقال الشافعي ارجو أن أقدم مصر ان شاء الله فاتيهم بشئ اشغلهم به عن القولين جميعاً فقال الربيع: لفعل ذلك والله حين دخل مصر وقد اقام بمصر نحو أربع سنوات أملي فيها كثيراً من كتبه.

منحاه في الاجتهاد - لعل خيراً ما يلخص مسلكه مذكره هو اذ قال: "الأصل قرآن وسنة فان لم يكن فقياس عليهما، وإذا اتصل الحديث عن رسول الله «ص» وصح الاسناد منه فهو سنة،

والاجماع اكبر من الخبر المفرد والحديث علي ظاهرة، واذا احتمل معاني فما أشبه منهما ظاهرة اولاهها به واذا تكاثرات الاحاديث فاصحها اسنادا اولاهها وليس المنقطع بشئ ماعدا منقطع ابن المسيب ولا يقاس اصل علي اصل ولا يقال للأصل لم وكيف وانما يقال للفرع لم فاذا صح قياسه علي الأصل وقامت به الحجة .

أظهر مزايا الشافعي انه علي اثر مارأي من صور مختلفة للتشريع، وتباين بين نمط الحجازيين والعراقيين، وماكان له من جدل ومناظرات بين هؤلاء وهؤلاء عمد الي ان يحدد موقفه تحديدا دقيقا امام هؤلاء وهؤلاء رأي موقف الحجازيين ازاء الحديث غير موقف العراقيين، فسأل نفسه، وماموقفه؟ ورأي موقف الحجازيين ازاء القياس والاستحسان غير موقف العراقيين، فاراد ان يتعرف موقفه من ذلك، ورأي مثل هذا في اجماع اهل المدينة واجماع العلماء عامة فحاول ان يضيبط ذلك كل هذا نقله من الفروع الي الأصول، وهذه من غير شك خطوة جديدة في التفكير فاذا فرغ من وضع خطة في اصل هاجم مخالفها ولافرق عنده بين ان يكون مخالفه حجازيا أو عراقيا . ولافرق بين ان يكون استاذة الذي أخذ عنه العلم، أو انسانا لايعرفه .

ولنسق لذلك بعض الأمثلة، فقد فكر في الحديث وراي نفسه امام جماعة ينكرون الأخذ بالحديث بتاتا وجماعة يميلون به بشروط طويلة وجماعة يعملون به في سهوله فوضع لهم خطة خلاصتها: انه اذا حدث ثقة عن ثقة عن رسول الله ولم يكن هناك حديث يخالفه عمل به فاذا كانت هناك احاديث مختلفة نظروا هل فيها ناسخ ومنسوخ كان يتأخر احدها في الزمن، ويثبت بدليل ان الحديث الاخير نسخ ما قبله فيعمل بالناسخ، فان لم يكن ناسخ ولا منسوخ نظر في اوثق الروايات وامعنها في الصحة فعمل بها فان تكافأت عرضها علي أصول القرآن والسنة الثابتة وعمل بما كان من الحديث اقرب الي ذلك، واذا ثبت الحديث عن رسول الله لا يترك هذا الحديث لاي قياس ولا لاي أي ولا لاي أثر يروي عن صحابي كالنا من كان وتابعي كالنا من كان.

فلما وصل الي هذا الاصل استعرض موقف الحجازيين والعراقيين لرأي في كليهما مخالفة له فهاجمها . هاجم مالكا وانتقده لانه ترك احيانا حديثاً صحيحاً لقول واحد من الصحابة او التابعين او لرأي نفسه . وكان اشد نقد موجه له لمالك انه ترك قول ابن العباس في مسألة الي قول عكرمة مع ان مالكا يسنّ القول في عكرمة ولايري لاحد ان يقبل حديثه . قال الشافعي: "والعجب ان يقول في عكرمة

مايقول ثم يحتاج الي شئ من علمه يوافق قوله فيسميه مرة ويسكت عنه أخرى.

وهاجم بهذا المبدأ ايضا العراقيين، لانهم يشترطون في الحديث أن يكون مشهوراً، ويقدمون القياس علي خبر الآحاد وان صح سنده، وأنكر عليهم تركهم لبعض السنن لأنها غير مشهورة، وعملهم بأحاديث لم تصح عند علماء الحديث بدعوي أنها مشهورة، ومن أمثلة ذلك ايضا انه وقف في القياس موقفاً بسيطاً لم يتشدد فيه تشدد مالك ولم يتوسع فيه توسع أبي حنيفة فهو يقول: "أن جهة العلم الكتاب والسنة والاجماع والآثار، ثم القياس عليها . . ولا يقيس الا من جمع الآلة التي له القياس بها- وهي العلم بأحكام كتاب الله عز وجل فرضه وأديه وناسخه ومنسوخه وعامة وخاصة . . ولا يجوز لأحد أن يقيس حتي يكون عالماً بما مضى قبله من السنن وأقاويل السلف واجماع الناس واختلافهم، ولسان العرب، ولا يكون له ان يقيس حتي يكون صحيح العقل، وحتى يفرق بين المشتبه ولا يعجل بالقول به دون التثبت ولا يمتنع من الاستماع ممن خالفه، لأنه قد ينتبه بالاستماع بترك الغفلة، ويزداد به تثبناً فيما اعتقد من الصواب، وعليه في ذلك بلوغ غاية جهده والانصاف من نفسه حتي يعرف من أين قال مايقول وترك مايتترك".

وهو علي هذا الاساس قد أنكر الاستحسان وهاجم القائلين به
ويظهر من مجموع قوله انه يعني بالاستحسان مجرد الرأي من غير
أن يكون مستنداً الي أصل شرعي، وشبه المستحسن في اثناء كلامه
بالتاجر يقدر للشئ ثمناً من غير ان يدخل السوق ويعرف أسعار
اليوم، فتقديره لا يبني علي اساس كذلك الفقيه يستحسن من غير أن
يرجع في استحسانه الي اصول الشريعة ولذلك هاجم مالكا في قوله
بالمصالح المرسلة، وهاجم الحنفية في قولهم بالاستحسان.

وهكذا سار الشافعي علي هذا المنوال، حدد موقفه بقواعد،
وهو عمل فيما نعلم لم يسبق اليه، وقد كان لرحلته الي المدينة
ومكة واليمن والعراق مرارا ومصر أثر في ثروته اتساع ثروته في
الحديث، فلم يقتصر علي الحديث الشائع في الحجاز كما فعل مالك،
بل ضم اليه كثيرا من الحديث الشائع في هذه البلدان الاخرى، وهذه
الرحلات كذلك جعلته لا يتعصب لاهل المدينة، ولا يعترف بالحجة
التي جعلها مالك أصلا من اصول مذهبه، وهي اجماع اهل المدينة
علي حين انه نفسه يروي أحاديث ضد الاجماع، فيقول مالك: "ان
الناس أجمعوا علي أن لا سجده في سورة الحج الا مرة واحدة، مع
انه يروي عن عمر وأبن عمر انهما سجدا في سورة الحج مرتين

الخ.

ولم يسلم الشافعي من تهجم بعض العلماء عليه في حديثه كابن معين فقد أكثر فيه القول وقال فيه ابن عبد الحكم: انه كان يروي عن الكنايين والبدعيين فروي عن ابراهيم بن يحيى مع انه كان قديراً، وروي عن اسماعيل بن عليه مع انه طعن فيه، وقالوا: ان البخاري ومسلما لم يرويا عنه شيئاً في صحيحهما، ولولا انه كان ضعيفاً في الرواية لرويا عنه، وان مذهبه ان المراسيل ليست بحجة وقد ملا كتبه من قوله اخبرنا الثقة، أخبرني من لا اتهمه الخ. وقد دافع أصحاب الشافعي عن هذه الأقوال دفاعاً شديداً، ومع هذا كله فقد كان الشافعي اقرب الي المحدثين وهم اليه اميل. ولئن فاقه بعضهم في معرفة الحديث وأسانيده ورجاله فقد فاقهم بفقته في الحديث حتي روي عنه انه قال لأحمد بن حنبل: انتم أعلم بالأخبار الصحاح منها، فاذا كان غير صحيح فأعلمني حتي أذهب اليه. كان المحدثون أميل الي الشافعي لانه توسع في استعمال الحديث والاستدلال به أكثر مما فعل مالك وأبو حنيفة وحد من الرأي والقياس وضيق سلطتها ولذلك كان من أنصاره أحمد بن حنبل. واسحاق بن راهوية وغيرهما من كبار المحدثين، كما انه كان اقرب الي نفوس الحنفية من المحدثين وفقهاءهم، لانه لم ينكر القياس

جملة بل قال به وقعد القواعد حتي لقد عدل بعض فقهاء العراق عن مذهب ابي حنيفة الي مذهبه، ولعل هذا الموقف - وهو تقريبه وجه النظر بين المدرستين: مدرسة الحجاز ومدرسة العراق، وانتخابه مارأي الحق في كليتهما هو اوضح ظاهرة في مدرسة الشافعي:

قال الرازي: "ان الناس قبل الشافعي كانوا فريقين: أصحاب الحديث وأصحاب الرأي، اما أصحاب الحديث فكانوا عاجزين عن المناظرة والمجادلة، عاجزين عن تزيف طريق أصحاب الرأي، فما كان يحصل بسببهم قوة في الدين ونصرة في الكتاب والسنة، واما أصحاب الرأي فكان سعيهم وجهدهم مصروفين الي تقرير ما استنبطوه برأيهم ورتبوه بفكرهم... [فجاء الشافعي] وكان عارفا بالنصوص من القرآن والأخبار، وكان عارفا بأصول الفقه وشروط الاستدلال... وكان قويا في المناظرة والجدل... فرجع عن قول أصحاب الرأي اكثر انصارهم واتباعهم."

اثار الشافعي - من أهم ماوصل الينا من عمل الشافعي رسالته في اصول الفقه، رواها عنه تلميذه المصري الربيع بن سليمان المرادي، وقد تكلم فيها فيما يحتاج اليه المجتهد وازاء القرآن من

العام والخاص، والناسخ والمنسوخ وتكلم في موقف المجتهد، وناسخه ومنسوخه، وما كان فيه من اختلاف وما يقبل منه ولأي قبل، ثم تكلم في الاجماع. وان "من قاتل بما تقول به جماعة المسلمين فقد لزم جماعتهم، ومن خالف ما تقول به جماعة المسلمين فقد خالف جماعتهم" ثم تكلم في اثبات القياس والاجتهاد، وحيث يجب القياس وحيث لا يجب، ومن له أن يقيس، ومن ليس له ونقد الاستحسان ورد علي القائلين به، وهو بهذا اول من وضع خطة في البحث في اصول الفقه جري عليه كل من اتى بعده من علماء المذاهب الاخرى، قال الرازي "واعلم ان نسبة الشافعي الي علم الاصول كنسبة ارسططاليس الي علم المنطق وكنسبة الخليل بن أحمد الي علم العروض وذلك لان الناس كانوا قبل ارسططاليس يستدلون ويعترضون بمجرد طباعهم السليمة لكن [ما] كان عندهم قانون مخلص في كيفية ترتيب الحدود والبراهين، فلأجزم كانت كلياتهم مشوشة ومضطربة فان مجرد الطبع اذا لم يستعن بالقانون الكلي قلما افلح، فلما رأي ارسططاليس ذلك اعتزل عن الناس مدة مديدة واستخرج -علم المنطق، وضع للخلق بسببه قانونا كلياً يرجع اليه في معرفة ترتيب الحدود والبراهين، وكذلك الشعراء كانوا قبل الخليل بن أحمد ينظمون اشعاراً، وكان اعتمادهم علي مجرد الطبع فاستخرج الخليل علم العروض فكان ذلك قانوناً كلياً في معرفة مصالح الشعر ومفاسده

وكذلك هاهنا - الناس كانوا قبل الامام الشافعي يتكلمون في مسائل اصول الفقه ويستدلون ويعترضون ولكن ماكان لهم قانون كلي مرجوع اليه في معرفة دلائل الشريعة ووضع للخلق قانونا كليا يرجع اليه في معرفة مراتب أدلة الشرع، فثبت ان نسبة الشافعي الي علم الشرع كنسبة ارسططاليس الي علم العقل . . واعلم ان الشافعي صنف كتاب الرسالة ببغداد، ولما رجع الي مصر اعاد تصنيف كتاب الرسالة وفي كل واحد منهما علم الكثير، والناس وان اطنبوا ذلك في علم اصول الفقه الا ان كلهم عيال الشافعي فيه، لأنه هو الذي فتح هذا الباب، والسبق لمن سبق -

نعم دوي ابن اللديم ان محمد بن الحسن الف كتابا في اصول الفقه ولكن لم يصل الينا هذا الكتاب حتي نستطيع ان نقارن بينه وبين رسالة الشافعي ونعلم ماذا استفاد الشافعي من اصول محمد وماذا اخترع من نفسه، وقد كان هناك طريقتان امام مخترع اصول الفقه: الاول ان يضع القواعد التي تعين المجتهد علي استنباط الأحكام من مصادر التريخ، وهي الكتاب والسنة والأجماع والقياس والثاني استخراج القواعد العامة الفقيه لكل باب من أبواب الفقه ومناقشتها وتطبيق الفروع عليها، فيستنتج - مثلا - قواعد البيع العامة او قواعد الأيجار ويحددها ويبين مسلك التطبيق عليها،

وكلا الطريقتين يصح ان يسمى أصول الفقه، وقد سلك الثاني الفرنج علي النحو الذي تراه في اصول الشرائع لبنتام ومن حدا حدوه، وقد اختار الشافعي الطريق الأول، وألهمه ذلك ماكان من الجدل القوي بين المحدثين والفقهاء من جانب، وفقهاء العراق وفقهاء الحجاز من جانب آخر. فاضطره هذا الخلاف ان يضع القواعد التي رأي انها تحسمه، اضاف الي ذلك ان الطريق الثاني اكثر ماينمو في التشريع الوضعي الذي يعتمد علي النظريات العقلية الطليقة وتعديلها وفق مايجد من نظريات فلسفية وارااء مدنية. علي ان هذا الضرب قد اتجه الي بعض المسلمين. بعد كما تري في الاستباه والنظائر لابن نجيم وان لم يسر طويلا.

وليس تعرضه لاصول الفقه مقتصرا علي رسالته في الاصول، بل تعرض له ايضا في مواقع كثيرة من كتاب الام، فتعرض - مثلا - لمناقشة الفرقة التي تنكر العمل بالاحاديث بتاتا، وكتب فصلا في ابطال الاستحسان فيظهر ان كثيرا من المسائل الفرعية كانت تعرض له فتثير في ذهنه اصولا متفرقة يفكر فيها ويطيل التفكير، ثم يضع لها القواعد، ثم جرد هذه القواعد واكملها ورتبها واخرجها في كتابه الرسائل وله الفضل خاصة في تنظيم الاجماع والعمل به ومايصلح منه ومالايصلح، وتنظيم القياس الذي

جري عليه الحنفية، ووضع قواعد له وتقسيمه اقساماً وتوضيح علله
وبيان مايجوز منه وما لايجوز.

وقد خطا بكتابه خطوات في الفقه من حيث وضع القواعد
للمجتهد والزامه الاخذ بها أو بنظائرها، وحتى لاياتي اجتهاده
منتاقصاً، يوماً يستدل بالعام ويوما يقول ان دلالة طنية، ويوما
يستدل بالخاص ويوما يحتمل انه خصومية الخ ولا يخفي مايترب علي
وضع هذه المبادئ من انتظام سير الفقه وتوحيد مجاريه وعدم
الاضطراب في التفرع.

الأم - وهو أكبر أثر للشافعي بين ايدينا وقد ثار الخلاف
حديثاً في مصر هل الام كتاب الله الشافعي أو الله البويطي؟
وأظن انه لوحدد موضع النزاع في دقة لكان الأمر سهلاً حلاً، فليس
يستطيع احد أن يقول ان ما بين دفتي الكتاب الذي بين ايدينا هو
من تأليف الشافعي، وانه عكف علي كتابه وتأليفه في هذا الوضع
النهائي: وأهم دليل علي ذلك ان مطلع كثير من الفصول العبارة
الآتية " اخبرنا الربيع قال قال الشافعي " وهي عبارة لايمكن ان
يكتبها الشافعي وهو يؤلف الكتاب، وفي ثنايا الكتاب نجد اخباراً
يعدول الشافعي عن هذا الرأي كان يجئ في سير الكلام: قال الربيع

قد رجح الشافعي عن خيار الرؤية وقال لايجوز خيار الرؤية "ومحال ان تصدر من الشافعي هذه العبارة وأمثالها، كما لايستطيع احد ان ينكر ان في الأم مذهب الشافعي بقوله وعبارته فالظاهر انها أملاها الشافعي في حلقة كتبها عنه تلاميذه وادخلوا عليها تعليقات من عندهم واختلفت روايتهم بعض الاختلاف، والذي بين أيدينا منها رواية الربيع المرادي عن الشافعي.

علي كل حال بين أيدينا مجموعة في سبعة اجزاء أغلبها من كلام الشافعي رواها عنه تلميذه وادخل فيها بعض تعليقات أفردها وبينها حتي لايتلبس بكلام الشافعي ومجموع ذلك هو الذي اطلق عليه "كتاب الأم" وقد بوب علي أبواب الفقه كما فعل مالك في الموطأ، ولكن فيه فصول في أصول الفقه اشرنا الي ذلك من قبل.

وقد املت هذه الأبواب في مصر، والعلماء يقسمون فقه الشافعي الي مذهبين: قديم وجديد. فاما القديم فهو ماكتبه وقال به في العراق، واما الجديد فهو كتبه وقال به في مصر، وذلك انه لما جاء مصر عدل عن بعض أقوال له كان قالها من قبل وسببه انه خالط علماء مصر وسمع ماصح عندهم من حديث وسمع تلاميذ الليث بن سعد ينقلون عنه اراءه وفقهاءه، وراي بعض حالات اجتماعية

تخالف تلك التي رآها في الحجاز والعراق، فغير ذلك من فقه الشافعي في بعض اقواله، واطلق عليه المذهب الجديد.

وفي "الأم" مصداق لجميع ما ذكرنا عن الشافعي، فهو فيه فصيح العبارة قوي الأداء، تشوب عبارته بلاغة الابدية وفصاحتها، وقوة القرشية وإيجازها أخذ عليه بعض المتعقبين له أشياء عدوها غلطا كقوله: ماء عذب وماء مالح بدل ملح، وقوله: الطهور هو المطهر، ومع أن الطهور هو الطاهر علي سبيل المبالغة، وقوله: وليست الاذن من الوجه فيعسلان بدلا فيفسلا، الي امثال ذلك، وهي في الحقيقة ليست اخطاء بل اجازها اللغويون والنحويون وعلي كل حال فليس يستطيع ان ينكر أحد ما في عبارة الشافعي من دقة وقوة وبلاغه.

وفي الكتاب تظهر قوة الشافعي في الجدل، فاسلوب الكتابة كله تقريبا اسلوب جدلي، حتي لنفترض مجادلا يجادله فيرد عليه، ثم يعترض فيجب فان قال قائل كنا ردنا عليه بكنا " قال المتبايعان بالغيار ما لم يتفرقا في الكلام قلت : فالذي ذهبت اليه محال، ولا يجوز في اللسان. قال وما حالته وكيف يحتمله اللسان؟ قلت الن " وهكذا يسير في كثير من المواضع علي هذا الحوار

السقراطي مماكن متأثرا فيه بنمط العراقي وحججهم واكثرهم من
 "أرايت ثم هو في الكتاب محدث يكتر من الاستدلالات بالحديث،
 وهو قياس كثير من استعمالات القياس. فيقول: "وبهذا نأخذ هو
 قول الأكثر من أهل الحجاز والأكثر من أهل الآثار بالبلدان
 "ويقول " وقلنا في الكلب ما أمر به رسول الله [ص] وكان
 الغزير ان لم يكن في شر من حالة لم يكن في خير منها فقلنا به
 قياسا عليه " الي كثير من أمثال ذلك.

ثم هو متأثر بالمصرية احيانا فاذا أراد أن يمثل بصيغة
 لوقفية مثل لذلك بوقف بيت في السطاط من مصر ويتكلم في
 الطين الذي يعرف بالطين الارمني والطين الذي يقال له طين البحيرة
 وهما مما يدخلان في الادوية ويقان بين الطين الارمني وطين راه
 في الحجاز ويتكلم في القراطيس [وهي مصرية] ويبين متي يجوز
 ان تسلف ومتي لايجوز ويتكلم في شهادة الشعراء في مصر الي
 امثال ذلك.

وعلي الجملة فالكتاب ثروة كبيرة من حيث دلالة علي مناهي
 الشافعي في الاجتهاد، وعلي فقهه وعلي مماكن من اثر مصر في
 القول بالملذهب الجديد الخ.

وكان للشافعي اصحاب اخذوا عنه وتعلموا له، وحفظوا مذهبه ونشروه بعضهم في العراق وبعضهم في مصر، ومن اشهرهم في مصر البويطي والمزني والربيع المرادي فالبويطي هو يوسف بن يحيى، والبويطي نسبة الي بويط قرية من قري صعيد مصر، وكان اكبر اصحاب الشافعي واعلمهم وقد خلف الشافعي في رئاسة حلقة، وكان في حياته يفتي علي مذهبه، وتعلم له كثيرون نشروا مذهب الشافعي، والف كتابه المختصر اختصر فيه كلام الشافعي. قال ابن عبد البر: " وكان ابن ابي الليث الحنفي قاضي مصر يحسنه ويعاديه فأخرجه في وقت المحنة في القرآن فيمن اخرج من اهل مصر الي بغداد، ولم يخرج من اصحاب الشافعي غيره، وحمل الي بغداد وحبس فلم يجب الي مادعي اليه في القرآن، وقال هو كلام الله غير مخلوق، وحبس ومات في السجن يوم الجمعة قبل الصلاة سنة ٢٣١هـ.

واما المزني فهو اسماعيل بن يحيى، كان اقرب اصحاب الشافعي علي المناظرة والجدل والغوص علي المعاني الدقيقة، وقد كان يخالف

الشافعي في بعض اقواله فيقول بعد أن يحكي كلام الشافعي في مسألة: "ليس هذا عندي بشئ". ويظهر أنه امتحن في مسألة خلق القرآن فقال كلاماً نجاهه من الاضطهاد فشنع عليه أعداؤه من المصريين حتي قل الناس في حلقته، ثم مازال في نفوسهم منه وعظمت حلقته حتي اخلت أكثر الجامع، وهو أكثر من دون لغة الشافعي والى فيه الكتب الكثيرة، منها المختصر المطبوع على هامش الأم وانتشرت كتبه ومختصراته في الأقطار فخدمت مذهب الشافعي ومات سنة ٢٦٤هـ .

وأما الربيع المرادي مولى قبيلة مراد، فكان مؤلفاً بمسجد عمرو بالفسطاط وربما كان أبطاً تلميذ الشافعي فهما، وقيل كانت فيه سلامة صدر وغفلة ولكنه ثقة صادق فيما يرويه، وحتى لو تعارضت روايته مع رواية المزني، فاصحاب الشافعي يقدمون روايته. وقد حمل عن الشافعي الكثير من علمه، والنسخة المطبوعة من الأم وروايته، مات سنة ٢٧٠هـ .

وعلي الجملة فقد كان البويطي ثقة والمزني الفصح وأمه وأذكي والمرادي أزهوي، ولكل فضل.

وما يلاحظ ان اصحاب الشافعي لم يكونوا يخالفونه كثيراً، ولما كان اصحاب ابي حنيفة يخالفونه. فالمسائل التي خالفت فيها اصحاب الشافعي امامهم تكاد تكون معدومة وكثير منها تخريج علي اصول، وهذا بخلاف اصحاب ابي حنيفة فقد خالفه ابو يوسف ومحمد وزفر، في الاصول والفروع. وهذا يرجع - فيما أرى - الي سببين : الأول ان مذهب ابي حنيفة لم يقيد به ابو حنيفة، وانما قيده ورتبه اصحابه، وله العذر في ذلك فقد ازهر ابو حنيفة قبيل عصر التدوين، وكان السابق والمبكر في صبغ الفقه صبغته الجديدة، وترك لتلاميذه تدوينه، وهذا يجعل اصحابه في حل من المخالفة عند مقارنة المسائل بعضها ببعض، وتطبيقها علي الاصول والسبب الثاني ان مذهب ابي حنيفة - كما غلبنا - أميل الي الرأي من مذهب الشافعي، والرأي يمنح اصحابه حرية لاتكون لاصحاب الحديث ومن نحا منحاهم ومن قرب منهم.

ويطول بنا القول علي هذا النمط في ترجمة اصحاب المذاهب الثلاثة عشر الذين عدناهم قبل، ويحتاج ذلك الي كتاب مستقل، فنكتفي بهؤلاء الذين ذكرنا اذ كانوا يمثلون المناحي المختلفة في التشريع، ولكن لا بأس من ان نلم المأخذ خفيفا ببعض من كان لهم

اثر كبير او لون في مختلف في الفقه فمهم

أحمد بن حنبل - وهو احمد بن محمد بن حنبل، عربي الاصل من شيبان واصله من مرو، ولد ونشأ ببغداد سنة ١٦٤ ورحل الي الكوفة والبصرة ومكة والمدينة والشام واليمن والجزيرة في جمع الحديث وقد صحب الشافعي واخذ عنه، والشافعية يعدونه شافعيًا، ولكنه في الواقع مستقل عنه. وقد امتحن في مسألة خلق القرآن فحُرم وحبس، وظل علي قوله بان القرآن غير مخلوق وصبر علي ما لحقه من اذي، فكان ذلك مما زاد رفعه في نظر الناس، وكان ضربه وحبسه سنة ٢٢٠ في خلافة الواثق فلما جاء المتوكل افرج عنه ولما انفي القول بخلق القرآن كما سيحيي الكلام في هذه المسألة بمصيلا ان شاء الله، وتوفي ببغداد سنة ٢٤١ هـ .

ولا خلاف في عدة من كبار المحدثين، ولكن الخلاف في عدة من الفقهاء فابن جرير الطبري لم يعد مذهبه في الخلاف بين الفقهاء، وكان يقول انها هو رجل حديث لأرجل فقه، وثار عليه الحنابلة من اجل ذلك، ولم يذكره ابن قتيبة في كتابه المعارف بين الفقهاء، وذكره المقدسي في المحدثين لا في الفقهاء واقتصر ابن عبد البر في كتابه الانتقاء علي الائمة الثلاثة، ابي حنيفة ومالك

والشافعي وخالفهم في ذلك غيرهم وخاصة المتأخرين.

والواقع ان فقهه اكثر ما يبنى علي الحديث، فاذا وجد حديثا صحيحا لم يلتفت الي غيره، واذا وجد فتوي من الصحابة عمل بها، واذا وجد فتاوي لهم تخير أقر بها الي الكتاب والسنة، واحيانا يختلف الصحابة في المسألة علي قولين فيروي علي ابن حنبل في المسألة روايتان، واذا وجد حديثا مرسلا او ضعيفا رجحه علي القياس ولا يستعمل القياس الا عند الضرورة القصوي، ويكره الفتوي في مسألة ليس فيها اثر ولم يضع ابن حنبل كتبها في الفقه علي نمط خاص به وكل ما روي له في الفقه مسائل سئل عنها فأفتي فيها، وانما رتب المذهب وبوبه ودونه واجتبعه.

فان نحن نظرننا من ناحية النظريات القانونية ونظمها ورقيا وجدنا ابن حنبل اكبر اثرا في الحديث منه في الفقه.

وممن له لون خاص في التشريع داود بن علي الاصبهاني، المعروف بناود الظاهري، ولد بالكوفة نحو سنة ٢٠٠، ونشأ ببغداد وتوفي بها سنة ٢٧٠ درس مذهب الشافعي وتعصب له والف في مناقبه، ثم استقل مذهب يعرف بمذهب الظاهرية يتبعه

كثير من الناس خصوصاً في فارس والاندلس.

وموقفه في الفقه موقف النقيض من الحلية، ينكر القياس، ويرى ان في القرآن والعديث، وعموماتها مايكفي لبيان الاحكام، فهو يتمسك بظاهر الكتاب والسنة، ومن هنا اشتق اسم الظاهرية، ويرى ان القول بالقياس تشريع عقلي والدين الهى، ولو كان الدين بالعقل لجرت احكام علي خلاف ماآتي به الكتاب والسنة، فوجب ان نتقيد بهما بل بظاهرها ولانبيج القياس الا اذا ورد نص بتحريم او بتحليل وبين في علته، فحينئذ يجوز لنا ان نشرك في الحكم الاشياء التي لم ينص عليها ولكن لم تتحد في العلة، اما اذا لم ينص علي العلة فليس المجتهد ان يقول بها من عنده ثم يقيس عليها، فالله تعالى يقول: " وما اختلفتم فيه من شئ فحكمه الي الله " ولم يقل الي الراي والقياس. وقد هاجم القياسيين وبين ما اناهم اليه القياس من خطأ في الاحكام، واداه هذا المنحني الي مخالفة المذاهب الاخرى في كثير من المسائل.

وعلي الجملة فقد كان مجال التشريع عندهم اضيق من غيرهم، لان اكبر منحي للاجتهاد هو القياس وقد انكروه

كذلك مما لايسعنا اغفاله ما للشيعه والخوارج من فقه وسنتكلم
في فقههما عند الكلام في عقائدهما ان شاء الله.

وبعد، فنستطيع بعد هذا الاستعراض للتشريع ومناحيه المختلفه
ان نسجل النتائج الاتية :

١- كان هذا العصر الذي نؤرخه اكثر عصور الاسلام نشاطا في
التشريع واكثر عدداً من الفقهاء المجتهدين، كل ماكان فيه من ونام
وخصام سبب مهر المسائل الفقهية، والجد في تحريرها وتصفياتها،
وكان العلماء احرارا في مناحيهم ونزعاتهم واجتهادهم، لانتدخل
سلطة فيما بينهم من خصام ونزاع، ولاتحجر علي حريتهم في
الاجتهاد والتفكير ماداموا بعيدين عن مسائل الخلاف وما اليها،
لهم ان يجتهدوا في غيرها ماشاءوا، ولهم ان يستنتجوا الاحكام من
الكتاب والسنة أو القياس ماشاءوا لاتتعرض لمن وسع علي نفسه
فاستعمل الرأي الي غاية مداه كما لاتتعارض لمن ضيق علي نفسه
فالتزم الاحكام من الكتاب والسنة وحدهما ولم تلزم الحكومة قانونا
بعينه تفرضه علي الدولة كلها، ولامذهباً معيناً تفرضه علي الامصار

فرضاً، بل اختارت القضاة من مناح مختلفة في الاجتهاد وتركزت لهم الحرية في الاحكام علي حسب اجتهادهم، فربما حكم في المسألة بحكمين مختلفين في مصريين مختلفين، بل ربما حكم بحكمين مختلفين في بلد واحد اذا كان لهما قاضيان، كما ذكر ابن المفلح، ولم تتدخل الحكومة في حسم الخلاف وتوحيد القضاء ولا في عاصمتها نفسها. أمان عدا القضاة من الفقهاء المجتهدين فحريتهم في التشريع اظهر.

وكما كثر الفقهاء المشرعون وكثر اجتهادهم كثرت المسائل القانونية واحكام الجزئيات كثرة لايقاس بها ماكانت عليه قبل هذا العصر ففرعت الفروع وافرقت الفروض ووضع لها الاحكام، وعرضت كل العادات والتقاليد والعرف في الامصار المختلفة من عراق وحجاز وشام ومصر علي الفقه وواجهها الفقهاء وشرعوا لها الاحكام، او اقروها علي ما هو عليه اذا لم تصطدم بنص، وتوسعوا في بابي الاجماع والقياس، حتي دخلت فيها العادات العرفية والشامية والمصرية واقرت علي ما هي عليه احيانا وعدلت اذا خالفت اصول الاسلام واصبحت جزءاً من الفقه الاسلامي.

ذلك بأنهم جعلوا العرف اساساً من اساس التشريع، واستندوا

في ذلك علي حديث " مراه المسلمون حسنا فهو عند الله حسن" وجاء في المبسوط "الثابت بالعرف كالثابت بالنص" وقسموا العرف الي قسمين: عرف عملي كتعارف قوم علي صرف الفضة بالفضة، وعرف قولي كتعارفهم علي اطلاق لفظ علي معني بحيث لا يتبادر عند سماعه غيره، وكلا المعنيين اخذ به الفقهاء، فاجازوا كثيرا من المعاملات لجريان العرف بها وحملوا في كثير من الاحيان الفاظ الوقف والطلاق والايمان علي ما يجري العرف في تفسيرها فدخل الفقه في هذا الباب كثير من العادات المستعملة من الامصار مثل ذلك الاستصناع وهو ان يقول شخص لرجل من اهل الصنائع اصنع له الشئ الفلاني، ويصفه بثمن قدره كذا فقد اجازه الحنفية لجريان لاعرف مع ورود النص في النهي عن بيع ما ليس عند الانسان فخصصوا النص بالعرف، واجاز مشايخ بلخ ان يدفع الرجل للعالك غزلا وعلي ان ينسجه بالثلث، وقال ان هذه اجازة صحيحة لتعامل اهل بلدهم بها " والتعامل حجة يترك به القياس ويخص به الاثر" الي كثير من امثال ذلك. وقد اشترطوا في المجتهد معرفة عادات الناس " لان كثيرا من الاحكام تخلف باختلاف الزمان" لتغيير العرف" ومن ذلك ما روي الكردي في المناقب ان محمد بن الحسن "كان يذهب الي الصباغين ويسأل عن معاملتهم وما يديرونها فيما بينهم" وكتب الفقه مملوءة بمسائل الخلاف بين الائمة مما كان سبب

اختلاف العرف في امصار الائمة او زمانهم وكل الذي اريد هنا ان من هذا الطريق - طريق العرف والعادات - دخل كثير من عادات الامم ودون في الفقه، وكان ائمة كل مصر يستعرضون ماعندهم من عادات فيعرضونها علي قواعد الاسلام فالحالم يخالف منها نصا صريحا اجازوه بل احيانا يجيزونه ويخصمون النص كما رأيت ومن امثلة ذلك ايضا اجازة بعضهم بيع ثمار البستان اذا كان بعضها قد خرج وبعضها لم يخرج، لان العرف جري بذلك . وقال شمس الائمة "استحسن ذلك لتعامل الناس فانهم تعاملوا بيع ثمار الكرم بهذه الصفة ولهم في ذلك عادة ظاهرة وفي نزاع الناس من عاداتهم حرج " مع ان هنا ايضا ينطبق علي انه بيع الانسان ماليس عنده وهو مانهي عنه لان الثمار التي تتلاحق ليست موجودة كلها، فخصموا النص ايضا بالعرف واقتوا فيما يدخل في المبيع تبعا ومالا يدخل بعرف كل بلد، فقالوا ان السلم المنفصل يدخل في بيع البيت في القاهرة لان بيوتهم طبقات لاينتفع بها الا به، ولايدخل في البلاد التي بيوتها طبقة واحدة الخ.

وقد كان لكل امة عرف وعادات في بيعها وشراؤها وفي لغتها، ودلالة الناطقها علي معانيها، وفي الزواج ومايكون جهازا وماليكون، وفي الاراضي هل يدفع العشر المؤجر أو المستأجر الخ وكل هذه

العادات عرضت علي الأئمة فادخلوها في الفقه وكانت من اكبر مصادره، لأن كثيرا من عادات الأمم لم تعرف في عهد النبي [ص] فلم يرد فيها نص من كتاب ولأسنة، ورجوع الناس عن عاداتهم التي جروا عليها اجيالا ليس بالأمر الهين، لذلك اجاز الفقهاء الكثير منها واقروها وعدوها اسلامية، وكان هذا سببا من أسباب تضخم الفقه.

٢- كان المسلمون قبل هذا العصر، وفي اول هذا العصر لا يبحسون الي مذاهب بل المسلم احد رجلين، اما عالم مجتهد فهو يدرس ويجتهد لنفسه في تعرف الاحكام، ويعلم ذلك لتلاميذه، واما عامي اوشبه عامي اذا عرضت له مسألة استفتي فيها من صادقه من المجتهدين كانوا من كان فيعمل بما يفتيه والمجتهدون كثيرون مختلفون فلما تقدم الزمن في العصر العباسي رأينا المذاهب تتبلور ولكنها مع تبلورها كثيرة، واشتهر منها ثلاثة عشر مذهباً اويزيد

ورأينا الكتب توضع في كل مذهب ورأينا الناس يبحسون الي هذه المذاهب ثم رأينا بعض المذاهب يقدر لها الانقراض فيفني اصحابها، او يقل اتباعها وبعضها يقدر له البقاء والنماء، حتي يصبح بعد

عصرنا هذا . والمذاهب أربعة فقط حنفي ومالكي وشافعي وحنبلي،
هنا عدا الشيعة والخوارج، وإذا بالناس ينحازون الي هذه المذاهب
لا الي غيرها، وتنقسم البلاد هذه المذاهب فيسود كل قطر مذهب
قطرا وتقل بجانبه المذاهب الاخرى [كما سيأتي بيانه في حينه]
وإذا عرض لعامي امر استفتي فيه علماء مذهبه غالبا، وتعبد عليه
في الصلاة والزكاة والصيام والحج، وسار الزواج والطلاق علي مذهب
امامه .

٣- اذا تتبعنا ماكان بين مدرسة الرأي ومدرسة القياس، ونظرنا الي
الفقهاء من حيث مقدار حريتهم في الرأي، وأردنا ان نضع لهم
قائمة تبين درجتهم في ذلك، وجدنا أن اول القائمة طائفة رأت
عدم العمل بالحديث، والاكتفاء بالقرآن، قالوا: لأنكم ترون الحديث
عن رجل آخر، وليس احد الا وهو عرضه للخطأ أو النسيان، فلسنا
نقبل منهم شيئا اذا كانت عرضه للوهم، ولانقبل الاكتاب الله الذي
لايسع احد الشك في حرف منه وقد حكى الشافعي في الام عنهم
انهم انقسموا قسمين، قسم قالوا: ما لم يكن فيه كتاب الله فليس
علي احد فيه فرض، وقسم قالوا: يقبل الحديث اذا كان فيه قرآن .

ومثل هؤلاء القوم يصح ان يوضعوا في أعلي قائمة الحرية اذا

كان مذهبهم ان نلتزم فقطما جاء في القرآن، أما ماعناه فنعمل فيه
بالرأي والعدالة وهذا هو الأقرب من قولهم. كما يصبح أن
يوضعوا في اسفل القائمة حتي بعد الظاهرية ان قالوا لانهل الا
بما ورد في كتاب الله. ومايوسف له أنا لم نجد نصا صريحا
يعين اتجاه مذهبهم فان كانوا قد ذهبوا الي الاتجاه الاول كانوا -
من غير شك - اكثر الفقهاء حرية لانهم لايلتزمون الا ماورد في
الكتاب من احكام اما ماعناه ذلك فهم احرار في استعمال الرأي فيه
كما^{ان} مايوسف له انا لانهل لذلك زعيما دعي الي هذا الرأي ووضع
له قواعد واموله وفرع عليه، بل لم يسمي الشافعي في الام اسم
من ذهب هذا المذهب .

يلي هؤلاء - ان كان مذهبهم كما فسرنا - مذهب ابي حنيفة،
فقد قيد الحديث الذي يعمل به وضيق دائرته ووسع القياس ثم
الشافعي فقد وسع الحديث وقلل دائرة القياس ثم مالك فلم يتوسع
في القياس كما توسع الشافعي، ثم احمد بن حنبل فحد ابي
استعمال القياس الا عند الضرورة القصوي، وفضل عليه الحديث
الضعيف ثم داود الظاهري وقد انكر القياس الا مانص عليه فيه
علي العلة .

والذي يستعرض هذه الآراء يرى ان دائرة الحرية التي كان
يسبح فيها مذهب ابي حنيفة اخدت في الضيق، حتي ان تلاميذه
انفسهم كأبي يوسف ومحمد كانا من عوامل هذا التضييق، فقد أخذ

من مدرسة الحجاز حديثا كثيرا عدلا بمذهب ابي حنيفة وخالفه به شيخهما، ولئن اثر مذهب ابي حنيفة في المذاهب الاخرى من ناحية الرأي والقياس، فقد كان تاثير مدرسة الحديث في مذهب ابي حنيفة اقوي واكثر .

لو فكر مفكر في ذلك العصر ربما توقع غلبة مذهب ابي حنيفة وسيادته علي مذهب الحديث لتأييد الحكومة العباسية له بعض الشيء، ولغلبة مذهب الاعتزال نحو خمسين عاما ختمت ببداية خلافة المتوكل، ومذهب الاعتزال هو القائل بالتحسين والتبحيح العقليين، ولظهور الفلسفة في العراق وهي ادعي الي الحرية الفكرية . ولكن مع كل هذا كانت الغلبة في الفقه لمدرسة الحديث، والسبب في هذا - علي ما يظهر - ان قوة المحدثين كانت اكبر وجمهور المسلمين كان لهم انصر، وان حركة الاعتزال وحركة الفلسفة كانتا حركتين ارسنقراطيتين يعتنقها في الغالب استنقراطيتين الشعب لاجمهوره، ولذلك هوجم القول بخلق القرآن الذي قال به المعتزلة هجوما عنيفا من الشعب . ورلع جمهور الناس الذين يقفون في واجهه ويتخرجون من القول به ويتحملون العذاب في سبيله الي درجة عليا الي ان قضي عليه . وكذلك هوجمت الفلسفة من الشعب، ولم ينفع كثيرا تأييد الحكومة العباسية مذهب ابي حنيفة بعض

الشيء، لأن اكبر هذا التأييد مصدره وجود ابي يوسف علي راس
القضاة، وابو يوسف نفسه كما رأينا كان من عوامل ادخال الحديث
الكثير في فقه ابي حنيفة وتعديله. لهذا كله ضاقت دائرة الرأي
والقياس واتسعت دائرة الحديث، يضاف الي ذلك ايضا ان المحدثين
قد نشطوا نشاطا كثيرا في هذا العصر، فجمعوا الاحاديث المتفرقة
في الامصار المختلفة صحيحها وضعيفها وكثير من هذه الاحاديث
تتعلق بالاحكام فاضطر الفقهاء امام هذه الاحاديث وأمام قوة
المحدثين ان يخضعوا انفسهم للحديث، ولهذا نرى كتب الفقه حتي
كتب الحنفية تستدل علي اكثر الاحكام بالحديث وان كان يضعها
ضعيفا، ونرى ان الفروق بين المدارس المختلفة قلت، فلم تعد بين
تلاميذ أبي حنيفة والشافعي ومالك فروق كالتى كانت بين مالك ابي
حنيفة انفسهما، حتي ليظن الطان لأول وهلة ان منحي التشريع
عند الجميع واحد ولم يكن ذلك صحيحا عند تأسيس هذه المدارس
وانما أظهره بهذا المظهر شيء واحد: هو "غلبة رجال
الحديث" [١]

(١) انظر: احمد امين، فحي الاسلام من ١٥١-٢٤٢.

الملاحق

بغداد

وانما ابتدأت بالعراق لأنها وسط الدنيا وسرة الأرض.. وذكرت بغداد لأنها وسط العراق والمدينة العظمى التي ليس لها نظير في مشارق الأرض ومغاربها سعة وكبرا وعمارة وكثرة مياه وصحة هواء لانه سكنها من اصناف الناس وأهل الامصار والكور وانتقل اليها من جميع البلدان القاضية والدانية وأثرها . جميع أهل الافاق علي اوطانهم فليس من أهل بلد الاولهم فيها محلة ومتجر ومتصرف . فاجتمع بها ماليس في مدينة في الدنيا ثم يجري في حافيتها النهران الأعظمان دجلة والفرات فيأتيها التجارات والميربرا وبحرا بايسر السعي حتي تكامل بها كل متجر يشمل من المشرق والمغرب من أرض الاسلام وغير ارض الاسلام فانه يحمل اليها من الهند والسند والصين والتبت والترك والديلم والخرز والحبشة وسائر البلدان حتي يكون بها من تجارات البلدان اكثر مما في تلك البلدان التي خرجت التجارات منها ويكون مع ذلك أوجد وامكن حتي كأنما سبقت اليها خيرات الأرض وجمعت فيها ذخائر الدنيا وتكاملت بركات العالم مع هذا مدينة بنو هاشم ودار ملكهم ومحل سلطانهم لم يبدأ بها احد قبلهم ولم يسكنها ملوك سواهم ولان سلفي كانوا القادمين بها وأحدهم صولي امرها ولها الاسم المشهور والذكر الدائع ثم هي وسط الدنيا لأنها علي ما اجمع عليه قول

الحساب وتضمنته كتب الأوائل من الحكماء في الاقليم الرابع وهو الاقليم الاوسط الذي يعتد فيه الهواء في جميع الأزمان والفصول فيكون الحر بها شديدا في ايام القبط والبرد شديدا في ايام الشتاء ويعتدل الفصول الخريف والربيع في اوقاتها ويكون دخول الخريف الي الشتاء غير متباين الهواء ودخول الربيع الي الصيف غير متباين الهواء وكذلك كل فصل ينتقل من هواء الي هواء ومن زمان الي زمان فلذلك اعتدل الهواء وطاب الثرى وعذب الماء وزكت الاشجار وطابت الثمار واخصبت الزروع وكثرت الخيرات وقرب مستنبت معينها وباعتدل الهواء وطيب الثرى وعدوبة الماء حسنت اخلاق اهلها ونصرت وجوههم وانفتحت اذهانهم حتي فضلوا الناس في العلم والفهم والادب والنظر والتمييز والتجارات والصناعات والمكاسب والحدق بكل مناظرة واحكام كل مهنة واتقان كل صناعة فليس أعلم من عالمهم ولا أروي من راويتهم ولا أجدل من متكلمهم، ولا أعرب من لغويتهم ولا اصح من قارنهم ولا أمهر من منطبقهم ولا حدق من مغنيهم ولا لطف من صانعهم ولا كتب من كاتبهم ولا ابين من منطبقهم ولا عابد من عابدهم ولا اروع من زاهدهم ولا اذقه من حاكمهم ولا اخطب من خطيبهم ولا اشعر من شاعرهم ولا افتك من باجنهم ولم تكن بغداد مدينة في الايام المتقدمة اعني ايام كاسرة والاعاجم وانما كانت قرية من قري طسوج بأوربا وذلك أن مدين الاكاسرة التي أن مدينة الاكاسرة التي خاروها من مدن العراق

المدائن وشي من بغداد علي سبعة فراسخ وبها ايوان كسري
 انوشروان ولم يكن ببغداد الا دير علي موضع مصب الصراه الي دجلة
 الذي يقال له قرن الصراة وهو الدير الذي يسمى الدير العتيق قائم
 بحاله الي هذا الوقت نزل الجاثليق رئيس النصاري النسطورية ولم
 تكن ايضا بغداد في ايام العرب لما جاء الاسلام لان العرب اختطت
 البصرة والكوفة فاحتفظ الكوفة سعد بن ابي وقاص الزهري في
 سنة سبع عشرة وهو عامل عمر بن الخطاب واخطت البصرة عتبة
 بن غزوان المازني مازن قيس في سنة سبع عشرة وهوى يومئذ عامل
 عمر بن الخطاب فاخطت العرب في هاتين المدينتين خططهما الا أن
 القوم جميعا قد انتقل وجوهم وجلتهم ومياسير تجارهم الي بغداد
 ولم ينزل بنو أمية العراق لانهم كانوا نزولا بالشام وكان معاوية
 بن ابي سفيان عامل الشام لعمر بن الخطاب لعثمان بن عفان عشرين
 سنة وكان ينزل مدينة دمشق واهله معه قلما غلب علي الامر وصار
 اليه السلطان جعل منزله وداره دمشق اذ بها كان سلطانه وانصاره
 وشيعته ثم نزل بها ملوك بني أمية بعد معاوية لانهم بها نشلوا
 لا يعرفون غيرها ولا يميل اليهم الا اهلها فلما افضت لخلافة الي بني
 عم رسول الله صلي الله عليه وسلم وآله من ولد العباس بن عبد
 المطلب عرفوا بحسن تمييزهم وصحة عقولهم وكمال ارادتهم فضل
 العراق وجلالته وسعتها ووسطها للعراق وانها ليست كالشام الوبية
 الهواء، الضيقة المنازل الحزنة الارض المتصلة الطواعين الجافية

الاهل ولا كمصر المتغيرة الهواء الكثيرة الوباء التي انما بين بحر
 رطب كثير البخارات الردية التي تولد الادواء وتفسد الغلات وبين
 الجبل اليابس الصلد الذي لبيسه وملوحته وفساده ينبت فيه خضر
 ولا ينفجر منه عين ماء ولا كافريقية البعيدة عن جزيرة الاسلام وعن
 بيت الله الحرام الحامية الاهل النائية البادرة الصردة الحزنة اذ
 يحيط بها الاعداء ولا مثل كور الجبل الحزنة الغشنة المثلجة دار
 الاكراد الغليظي الاكباد ولا كارض خراسان الطاعنة في مشرق الشمس
 اذ يحيط بها من جميع اطرافها عد وكلب ومحارب حرب ولا كالبحار
 النكدية المعاش الضيقة المكسب اذ قوت أهلها من غيرها وقد أنبأنا
 الله عزو وجل في كتابه ابراهيم خليفة عليه السلام فقال رب اني
 اسكنت من ذريتني بواد غير ذي زرع ولا كالتبت التي بفساد هوائها
 وغداها تغيرت الواج أهلها وصغرت ابدانهم وتحققت شعورهم،
 فلما علموا انها افضل البلدان نزلوها مختارين لها فنزل ابو العباس
 امير المؤمنين وهو عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن
 العباس بن عبد المطلب الكوفة أول مرة ثم انتقل الي الانبار فبني
 مدينة علي شاطئ الفرات وسماها " الهاشمية " وتوفي ابو العباس
 رضه قبل ان يستتم المدينة فلما ولي ابو جعفر المنصور الخلافة
 وهو ايضا عبد الله بن محمد بن علي بن عبدالله بن العباس بن عبد
 المطلب بني مدينة بين الكوفة والحيرة سماها الهاشمية وأقام بها
 مدة الي ان عزم علي توجيه ابنه محمد المهدي لغزو الصقابة في

سنة أربعين ومائة فصار الي بغداد فوقف بها وقال ما اسم هذا
الموضع قيل له بغداد قل هذه والله المدينة اذا اعلمني ابي محمد
بن علي اني ابينها وانزلها وينزلها ولدي من بعدي ولقد غفلت عنها
الملوك في البهائية والاسلام حتي يتم تدبير الله ولي وحكمه في
وتصبح الروايات وتبين الدلائل والعلامات والا فجزيرة بين دجلة
والفرات دجلة شرقيها والفرات غربيها مشرعة للدنيا كل ماياتي في
دجلة من واسط والبصرة والابلة والاهواز وفارس وعمان واليمامة
والبحرين ومايتصل بذلك فاليها ترقى وبها ترسي وكذلك ماياتي من
الموصل وديار ربيعة والذربيجان وارمينية مما يحمل في السفن في
دجلة وماياتي من ديار مصر والرقّة والشام والثغور ومصر
والمغرب مما يحمل في السفن في الفرات فيها يحتط وينزل ومدرجة
أهل الجبل واصبهان وكورخراسان فالحمد لله الذي ذخرها لي وأغفل
عنها كل من تقدمني والله لأبينها ثم اسكنها ايام حياتي ويسكنها
والي من بعدي ثم لتكونن اعمر مدينة في الارض ثم لابنين بعدها
أرجح من المغرب واحدة منهن ابداً فبناها وهي الرافقة ولم يسمها
فمنني ملطية وبني المصيصة وبني المنصورة بالسند ثم وجه في
احتضار المهندسين وأهل المعرفة بالبناء والعلم بالدرع والمساحة
وقسمة الارضين حتي اختط مدينته المعروفة بمدينة ابي جعفر
واحصر البنائين والفعلة والصناع من التجارين والحدادين والحفارين
الما اجتمعوا وتكلموا جري عليهم الارزاق وقام لهم الاجرة وكتب

الي كل بلد في حمل من فيه ممن يفهم شيئا اليها فحضره مائة الف
من أصناف المهن والصناعات خبر بهذا جماعة من المشايخ ان ابا
جعفر المنصور لم يبتد البناء حتي تكامل له من الفعلة وأهل
المهن مائة الف ثم اختطها في شهر ربيع الأول سنة احدى
واربعين ومائة وجعلها مدورة ولا تعرف في جميع اقطار الدنيا مدينة
مدورة غيرها ووضع أساس المدينة في وقت اختاره فوبخت المنجم
وما شاء الله بن سارية وقبل وضع الأساس وما ضرب اللبن العظام
وكأن في اللبنة الثامنة المربعة ذراع في ذراع وزنها مائتا رطل
واللبنة المنصبة طولها ذراع وعرضها نصف ذراع ووزنها مائة رطل
وحفرت الآبار للماء وعملت القناة التي تأخذ من نهر كرخايا وهو
النهر الأخذ من الفرات فاتقنت القناة واجريت الي داخل المدينة
للشرب ولضرب اللبن وبل الطين وجعل للمدينة اربعة أبواب باب
سماه باب الكوفة وباب سماه باب البصرة وباب سماه باب خراسان
وبابا سماه باب الشام وبين كل بابا منها الي الآخر خمسة الاف
ذراع بالذراع السوداء من خارج الخندق وعلي كل باب منها باب
حديد عظيمان جليانن ولا يغلق الباب الواحد منها ولا يفتحها الا جماعة
رجال يدخل الفارس بالعلم والرامي بالرمح الطويل من غير ان يميل
العلم ولا يثني الرمح وجعل سورها باللبن العظام اذ لم ير مثلها
قط علي ما وصفنا من مقدارها والطين وجعل عرض اساس السور
تسعين ذارعا بالسوداء ثم ينحط حتي يصير في اعلاه علي خمس

وعشرين ذراعا وارتفاعه ستون ذراعا مع الشرافات وحول السور
فصيل جليل عظيم بين حائط السور وحائط الفصيل مائة ذراع
بالسوداء والفصيل ابرجة عظام وعليه الشرافات المدورة وخارج
الفصيل كمايدور مسناه بالاجر والصاروج متقنة محكمة عالية
والخندق بعد المسناه قد أجري فيه الماء من القناة اذ تأخذ من
نهر كرخايا وخلف الخندق الشوارع العظماء وجعل لابواب المدينة
اربعة دهاليز عظاما ازاجا كلها طول كل دهليز ثمنون ذراعا كلها
معقودا بالاجر والجص فاذا دخل من الدهليز الذي علي الفصيل وافي
رحبة مفروشة بالحصر ثم دهليز علي السور الاعظم عليه بابا حديد
جليدن عظيمان لايفتح كل باب ولايفتحه الا جماعة رجال والابواب
الاربعة كلها علي ذلك فاذا دخل من دهليز السور الاعظم سار في
رحبة الي طاقات معقودة بالاجر والجص فيها كواء رومية يدخل
منها الشمس والضوء ولايدخل منها المطر وفيها منازل الغلمان
ولكل باب من الابواب الاربعة طاقات وعلي كل باب من ابواب
المدينة التي علي السور الاعظم قبة معقودة عظيمة مذهبة وحولها
مجالس ومرتفات يجلس فيها فيشرف علي كل مايعمل به يصعد الي
هذه القباب علي عقود مبنية بعضها بالجص والاجر وبعضها باللين
العظام قد عملت ازاجا بعضها اعلي من بعض فداخل الازاج للرابطة
والحرس وظهرها عليها المصعد الي القباب التي علي الابواب علي
الديواب وعلي المصعد أبواب تغلق فاذا خرج الخارج من الطاقات خرج

الي رحبة ثم الي دهليز عظيم ازج معقود بالاجر والجص عليه بابا
 حديد يخرج من الباب الي الرحبة العظامي وكذلك الطاقات الاربعة
 علي مثال واحد وفي ربط الرحبة القصر الذي سمي بابيه باب الذهب
 والي جنب القصر المسجد الجامع وليس حول القصر بناء ولا دار
 ولا مسكن لاحد الا دار من ناحية باب الشام للحرس وسقيفة كبيرة
 ممتدة علي عمد مبنية بالاجر والجص يجلس في احدها صاحب
 الشرطة وفي الاخرى صاحب الحرس وهي اليوم يصلي فيها الناس
 وحول الرحبة كما تدور منازل اولاد المنصور الاماغر ومن يقرب
 من خدمته ومن عبيده وبيت المال وخزانة السلاح وديوان الرسائل
 وديوان الخراج وديوان الخاتم وديوان الجند وديوان الحوائج وديوان
 الاحشام ومطبخ العامة وديوان النفقات من الطاقات الي الطاقات
 السكك والدروب تعرف بقواده ومواليه وبسكان كل سكة فمن باب
 البصرة الي باب الكوفة سكة الشرط وسكة الهيثم وسكة المطبق
 وفيها الحسين الاعظم الذي يسمي المطبق وثيق البناء محكم السور
 وسكة النساء وسكة سرجس وسكة الحسنى وسكة عطية وسكة
 مجاشع وسكة العباس وسكة غزوان، وسكة ابي حنيفة والسكة
 الضيقة ومن باب البصرة الي باب خراسان سكة الحرس وسكة
 وسكة النعيمية وسكة سليمان وسكة الربيع وسكة مهلهل، وسكة
 شيخ بن عميرة وسكة المرورزية وسكة واضح وسكة السقائين
 وسكة ابن بريهة بن عيسى بن المنصور وسكة ابي احمد والدرب

الضيق ومن باب الكوفة الي باب الشام سكة العكي وسكة ابي قرة
وسكة عبدوية وسكة العلاء وسكة نافع وسكة اسلم وسكة منارة
ومن باب الشام الي باب خراسان سكة الموذنين وسكة دارم وسكة
اسرايل وسكة تعرف في هذا الوقت بالقواريري قد ذهب علي
اسم صاحبها وسكة الحكم بن يوسف وسكة سماعة وسكة صاعد
مولي ابي جعفر وسكة تعرف اليوم بالزيادي وقد ذهب عني اسم
صاحبها وسكة غزوان هذه المتكك بين الطاقات والطاقات داخل
المدينة وداخل السور، وفي كل سكة من هذه السكك جلة القواد
الموثوق بهم في النزول معه وجله مواليه ومن يحتاج اليه في الامر
المهم وعلي كل سكة من طرفيها الابواب الوثيقة ولا تتصل سكة
منها بسور الرحبة التي فيها دار الخلافة لان حوالي سور
الرحبة كما تدور الطريق، وكان الذين هندسوها عبد الله بن محرز
والحجاج بن يوسف وعمران بن الواح وشهاب بن كثير بحضرة
نوبخت وابراهيم بن محمد الفزاري والطبري المنجمين اصحاب الحساب
وقسم الارباض اربعة ارباع وقلد القيام بكل ربع رجالا من
المهندسين واعطي اصحاب كل ربع مبلغ ما يصير لصاحب كل قطعة
من اللرع ومبلغ ذرع مالمعمل الأسواق في ربيع ربيع فلقد الربع من
باب الكوفة الي باب البصرة وباب المحول والكرخ وما اتصل بذلك
كله المسيب بن زهير والربيع مولاة وعمران بن الواح المهندس
والربع من باب الكوفة الي باب الشام وشارع طريق الأنبار الي حد
ربض حرب بن عبد الله سليمان بن مجالد وواضا مولاة وعبد الله

بن محرز المهندس والربيع من باب الشام الي ريفض حرب وما اتصل
بريفض حرب وشارع باب الشام وما اتصل بذلك الي الجسر علي منتهي
دجلة حرب بن عبد الله وغزوان مولاة والحجاج بن يوسف
المهندس ومن باب خراسان الي الجسر الذي علي دجلة ماذا في
الشارع علي دجلة الي البغيين وباب قطربل هشام بن عمرو التغلبي
وعمار بن حمزة وشهاب بن كثير المهندس ووقع الي كل اصحاب
ربع مايصير لكل رجل من الدرع ولمن معه من اصحابه وما قدره
للحوانيت والاسواق في كل ريفض وامرهم أن يوسعوا في الحوانيت
ليكون في كل ريفض سوق جامعة تجمع التجارات وأن يجعلوا في كل
ريفض من السكك والدروب النافذة وغير النافذة ما يعتدل بها المنازل
وان يسموا كل درب باسم القائد النازل فيه او الرجل النبیه الذين
ينزله او اهل البلد الذي يسكنونه وعد لهم ان يجعلوا عرض الشوارع
خمسين ذراعا بالسوداء والدروب ست عشرة ذراعا وان يبتنوا في
جميع الارياض والاسواق والدروب من المساجد والحمامات ما يكتفي
بها من في كل ناحية ومنخله وامرهم جميعا ان يجعلوا من قطائع
القواد والجند ذراعا معلوما للتجار يبنونه وينزلونه ولسوقه الناس
واهل البلدان وكان اول من أقطع خارج المدينة من اهل بيته عبد
الوهاب بن ابراهيم ابن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بازاء
باب الكوفة علي الصراة السفلي التي تأخذ من الفرات فريضة يعرف
بسويقة عبد الوهاب وقصره هناك قد خرب وبلغني ان السويقة
ايضا قد خربت واقطع العباس بن محمد بن علي بن عبد الله بن

العباس بن عبد المطلب الجزيرة التي بين الصراطين فجعلها العباس
بستانا ومزدراعا وهي العباسية المذكورة والمشهورة التي لاتنقطع
علائها في الصيف ولاشتاء ولالي وقت من الاوقات واستقطع العباس
لنفسه لجعل الجزيرة بستانا في الجانب الشرقي وفي اخر العباسية
تجتمع الصراتان والرجا العظمي التي يقال لها رجا البطريق وكانت
مائة حجر تغل في كل سنة مائة الف درهم هندسها بطريق
قدم عليه من ملك الروم فنسبت اليه واقطع الشروية وهم موالي
محمد بن علي بن عبد الله بن العباس دون سويته عبد الوهاب
ممايلي باب الكوفة وكانوا بوابية رئيسهم حسن الشروي واقطع
المهاجر بن عمرو صاحب ديوان الصدقات في الرحبة التي تجاه باب
الكوفة فهناك ديوان الصدقات وبازائه قطيعة ياسين صاحب النجائب
وخان النجائب ودون خان النجائب اصطبل الموالي واقطع المسيب بن
زهي الصبي صاحب الشرطة يمنية باب الوفة الداخل الي المدينة
ممايلي باب البصرة فهناك دار المسيب ومسجد المسيب ذو المئذنة
الطويلة واقطع ازهر بن زهير اخا المسيب في ظهر قطيعة المسيب
ممايلي القبلة وهو علي الصراة وهناك دار ازهر وبستان ازهر الي
هذه الغاية ويتصل بقطيعة المسيب واهل بيته قطيعة ابي العنبر
مولي المنصور ممايلي القبلة وعلي الصراة قطيعة الصحابة وكانوا من
سائر قبائل العرب من قريش والانصار وربيعة ومضر ويمن وهناك
دار عياش المتوف وغيره ثم ققطيعة يقطين بن موسي احد رجال
الدولة واصحاب الدعوة ثم تعبر الصراة العظمي اجتمعت فيها

الصراخان الصراة العليا والصراة السفلى وعليها القنطرة المعقودة
بالجس والاجر المتحركة الوثيقة التي يقال لها القنطرة العتيقة
لأنها أول شئ بناه وتقدم في احكامه فتعرج من القنطرة ذات اليمين
الي القبة الي قطيعة اسحاق بن عيسى بن علي وقصوره ودوره
شارعه علي الصراط العظمي من الجانب الشرقي والطريق الاعظم بين
الدور والصراة ومن قطيعة عيسى بن علي الي قطيعة ابي السري
الشامي مولي المنصور، ثم الطاق المعقود عليه الباب المعروف بباب
المحول فتصير منه الي ربهض حميد بن قحطبة الطائي ورهض حميد
شارع علي الصراة العليا وهناك دار حميد واصحابه وجماعة من ال
قحطبة بن شبيب ثم يتصل ذلك بقطيعة الراشين وتعرف بدار
الروميين وتشرع علي نهر كرخايا ثم تعود الي الشارع الاعظم وهو
شارع باب المحول وفيه سوق عظيمة فيها اصناف التجارات ثم
يتصل ذلك بالحوض العتيق وهناك منازل الفرس اصحاب الشاه ثم
يستمر المسير الي الموضع المعروف بالكناسة فهناك مرابط دواب
العامة ومواقع نخاسي الدواب ثم المقبرة القديمة المعروفة
بالكناسة مادة الي نهر عيسى بن علي الذي يأخذ من الفرات
والدباغين وبازاء قطيعة الروميين علي نهر كرخايا الذي عليه
القنطرة المعروفة بالروميين دار كعيوية البستانيان الذي غرس
النخل ببغداد ثم بساتين متصلة غرسها كعيوبة البصري الي
الموضع المعروف ببراثا، ثم رجعنا الي القنطرة العتيقة فقبل ان
تعبير القنطرة مشرقا الي ربهض ابي الورد كوثر بن اليمان خازن

بيت المال وسوق فيها - سائر البياعات تعرف بسويقة ابي الورد الي
باب الكرخ وفي ظهر قطيعة ابي الورد كوثر بن اليمان قطيعة
حبيب بن رغبان الحمصي وهناك مسجد ابن رغبان ومسجد الانبار بين
كتاب ديوان الخراج، وقبل ان تعبر الي القنطرة العتيقة وانه
مقبل من باب الكوفة في الشارع الأعظم قطيعة سليم، مولى امير
المؤمنين صاحب ديوان الخراج وقطيعة ايوب عيسى الشردى ثم
قطيعة رباوة الكرمانى واصحابه وتنتهي الي باب المدينة المعروف
بباب البصرة وهو مشرف علي الصراة ودجلة وبازائه القنطرة
الجديدة لانها اخر ما بني من القناطر وعليها سوق كبيرة فيها سائر
التجارات مادة متملة ثم ربض وضاح ومولى امير المؤمنين المعروف
بقصر وضاح صاحب خزانة السلاح واسواق وهناك واكثر من فيه في
هذا الوقت الوراقون اصحاب الكتب فانه به اكثر من مائة حانوت
للوراقين ثم الي قطيعة عمرو بن سمعان الحراني وهناك طاق
الحراني ثم الشرقية وانما سميت الشرقية لانها قدرت مدينة
للمهدي قبل ان يعزم علي أن يكون نزول المهدي في الجانب الشرقي
من دجلة فسميت الشرقية وبها المسجد الكبير وكان يجمع فيه يوم
الجمعة وفيه منبر وهو المسجد الذي يجلس فيه قاضي الشرقية ثم
اخرج المنبر منه، وتنعرج من الشرقية مارا الي قطيعة جعفر بن
المنصور علي شط دجلة وبها دار عيسى بن جعفر وتقرّب منها
دار جعفر بن جعفر بن المنصور ثم تخرج من هذه الطرق الاربعة
التي ذكرنا الي شارع باب الكوخ فلولها عند باب النخلين قطيعة

سويدة مولي المنصور ورجبة سويد في ظهر النخاسين ثم الاسواق
 مادة في جانبي الشارع وتخرج من باب الكرخ ميتمنا الي قطيعة
 الربيع مولي امير المؤمنين التي فيها التجار تجار خراسان من
 البرازين واصناف ما يحصل من خراسان من الثياب لا يختلط بهاشي
 وهناك النهر الذي ياخذ من نهر كرخايا عليه منازل النجار يقال له
 نهر الدجاج لانه كان يباع عليه الدجاج في ذلك الوقت وفي ظهر
 قطيعة الربيع منازل التجار واخلاق الناس من كل بلد يعرف كل
 درب باهله وكل سكة بمن ينزلها والكرخ للسوق العظمي مادة من
 قصر وضاح الي سوق الثلاثاء طولا بمقدار فرسخين ومن قطيعة
 الربيع الي دجلة عرضا مقدار فرسخ فلكل تجار وتجارة شوارع
 معلومة وصفوف في تلك الشوارع وحوانيت وعراض وليس يختلط
 قوم بقوم ولا تجارة بتجارة ولا يبيع صنف مع غير صنفه ولا يختلط
 اصحاب المهن من سائر الصناعات بغيرهم وكل سوق مفردة وكل
 اهل منفردون بتجارتهم وكل اهل مهنة معتزلون عن غير طبقتهم
 وبين هذه الارياض التي ذكرنا والقطائع التي وصفنا منازل الناس من
 العرب والجند والدهاقين والتجار وغير ذلك من اخلاق الناس ينتسب
 اليهم الدروب والسكك فهذا ربع من ارباع بغداد وهو الربع الكبير
 الذي تولاه المسيب بن زهير والربيع مولي امير المؤمنين وعمران
 بن الواضح المهندسين وليس ببغداد ربع اكبر ولا اجل منه ومن باب
 الكوفة الي باب الشام ربض سليمان بن مجالد لانه كان يتولي هذا
 الربع فنسب اليه وفيه قطيعة واضح، ثم قطيعة عامر بن اسماعيل

المسلي ثم ربض الحسن بن قحطبة ومنازله ومنازل اهله شاعة في
 الدرب المعروف بالحسن ثم ربض الخوارزمية اصحاب الحارث بن رقاد
 الخوارزمي وقطيعة الحارث في الدرب ثم قطيعة مولي امير
 المؤمنين وصاحب الركاب وهي الدار التي صارت لاسحاق بن عيسى
 بن علي الهاشمي ثم اشتراها كاتب لمحمد بن عبد الله بن طاهر يقال
 له طاهر بن الحارث ثم ربض الخليل بن هاشم البارودي ثم ربض
 الخطاب بن نافع الطحاوي ثم قطيعة هاشم بن معروف وهي في درب
 الاقفاص ثم قطيعة الحسن بن جعفرات وهي في درب الاقفاص ايضا
 متصل بدرب القمارين ومن شارع طريق الانبار فاول القطائع قطيعة
 واضح مولي امير المؤمنين وولده ودرب ايوب بن المغيرة الفزازي
 بالكوفة والدرب يعرف بدرب الكوفيين ثم قطيعة سلامة بن سمعان
 البخاري واصحابه ومسجد البحارية والمنارة الخضراء فيه ثم قطيعة
 اللجلاج المتطيب ثم قطيعة عرف بن نزار اليماني ودرب اليمامية
 النافذ الي دار سليمان بن مجالد وقطيعة الفضل ابن جعونة الرازي
 وهي التي صارت لداود بن سليمان الكاتب كاتب ام جعفر المعروف
 بداود الببطي ثم السيب ودار هبيرة بن عمرو وعلي السيب قطيعة
 صالح البلدي في درب صياح النافذ الي سويقة عبد الوهاب وقطيعة
 قابوس بن السميدع وبازائه قطيعة خالد بن الوليد التي صارت لابي
 صالح يحيى بن عبد الرحمن الكاتب صاحب ديوان الخراج في ايام
 الرشيد فتعرف بدور ابي صالح ثم قطيعة شعبة بن يزيد الكابلي
 ثم ربض القس مولي المنصور وبستان القس المعروف به ثم ربض

الهيثم بن معوية ويعرف بشار سوق الهيثم وهناك سوق كبيرة متصلة ومنازل ودروب وسكك كله ينسب الي شارسوق الهيثم ثم قطيعة المروروذية ال أبي خلد الانباري ثم ربض ابي يزيد الشروي مولي محمد بن علي واصحابه ثم قطيعة موسي ابن كعب التميمي وقد ولي شرطة المنصور ثم قطيعة بشر بن ميمون ومنازله ثم قطيعة سعيد بن دعليج التميمي ثم قطيعة الشخير وزكريا بن الشخير، ثم ربض ابي ايوب سليمان المعروف بابي ايوب الخوزي المورياني وموريان قرية من كورس الاهواز يقال لها منازل ثم قطيعة رداد بن راذان المعروفة بالردادية ثم المهادار ثم حد ربض حرب ودونه الرملية وهذا الربيع الذي تولاه سليمان بن مجالد وواضع موالي امير المؤمنين والمهندسين عمران بن الوضاح والربيع من باب الشام فاؤل ذلك قطيعة الفضل بن سليمان الطوسي والي جنبه السجن المعروف بسجن باب الشام والاسواق المعروفة بسوق باب الشام وهي سوق عظيمة فيها جميع التجارات والبياعات ممتدة ذات اليمين وذات الشمال اهلة عامرة الشوارع والدروب والعراض وتمتد في شارع عظيم فيه الدروب الطوال كل درب ينسب الي اهل بلد من البلدان ينزلونه في جنبته جميعا الي ربض حرب بن عبد الله البلخي وليس ببغداد ربض اوسع ولا اكبر ولا اكثر دروبا واسواقا، في الحال منه وأهله واهل بلغ واهل مرو واهل التحتل واهل بخارا واهل اسبشباب واهل اشتاخنج واهل كابل شاه واهل خوارزم ولكل اهل مرو بلد قائد ورئيس وقطيعة الحكم بن يوسف البلخي صاحب

الحراب وقد كان ولي الشرطة ومن باب الشام في الشارع الاعظم
 الهاد الي الجسر الذي علي دجلة سوق ذات اليمين وذات الشمال ثم
 ربض يعرف بدار الرقيق كان فيه رقيق ابي جعفر اندين يباعون من
 الافاق وكانوا مضمومين الي الربيع مولاه ثم ربض الكرمانية والقائد
 بوزان بن خلد الكرمانى ثم قطيعة الصغد ودار خرفاش الصغدي، ثم
 قطيعة ماهان الصامغاني واصحابه ثم قطيعة مرزبان ابي اسد بن
 مرزبان الفاريابي واصحابه اصحاب العمدة ثم تنتهي الي الجسر فهنا
 الربيع الذي تولاه حرب بن عبد الله مولي امير المؤمنين والمهندس
 والحاج بن يوسف والربيع من باب خراسان الي الجسر علي دجلة
 وما بعد ذلك بازاءها الخلد وكان فيه الاصطبلات وموضع العرض
 وقصر يشرع علي دجلة لم يزل ابو جعفر ينزله وكان فيه المهدي
 قبل ان ينتقل الي قصره بالرافضة الذي بالجانب الشرقي من دجلة
 فاذا جاوز موضع الجسر فالجسر ومجلس الشرطة ودار صناعة للجسر
 فاذا جاوزت ذلك فاول القطنان قطيعة سليمان بن ابي جعفر في
 الشارع الاعظم علي دجلة وفي درب يعرف بدرب سليمان والي جنب
 قطيعة سليمان في الشارع الاعظم قطيعة صالح بن امير المؤمنين
 المنصور وهو صالح المسكين مادة الي دار نجيع مولي المنصور
 التي مارت لعبد الله بن طاهر واخر قطيعة صالح قطيعة عبد
 الملك بن يزيد الجرجاني المعروف بابني عون واصحابه الجرجانية ثم
 قطيعة حميم الباذغيسي متصلة بقطيعة ابي عون ثم قطيعة عباد
 الفرغاني واصحابه الفراعنة ثم قطيعة عيسى بن نجيع المعروف بابن

روضة وغللمان الحجابة ثم قطيعة الانارقة ثم قطيعة تمام الديلمي
 ممالبي قنطرة التبانين وقطيعة حنبل بن مالك ثم قطيعة البغيين
 اصحاب حفص بن عثمان ودار حفص هي التي صارت لاسحاق بن
 ابراهيم ثم السوق علي دجلة في الفرضة ثم قطيعة لجعفر ابن
 امير المؤمنين المنصور صارت لام جعفر ناحية - باب قطربل وتعرف
 بقطيعة ام جعفر، ومما علي القبلة قطيعة مرار العجلي وقطيعة عبد
 الجبار بن عبد الرحمن الازدي وقد كان يلي الشرطة ثم عزله وولاه
 خراسان قمعي هناك فوجه اليه المهدي في الجيوش فحاربه حتي
 ظفر به فحمله الي ابي جعفر فضرب عنقه وصلبه وفي هذه الارباح
 والقطائع مالم نذكره لان كافة الناس بنوا القطائع وغير القطائع
 وتوارثوا واحصيت السجون والسكك فكانت ستة الاف درب وسكة
 واحصيت المساجد فكانت ثلثين الف مسجد سوي مازاد بعد ذلك
 واحصيت الحمامات فكانت عشرة الاف حمام سوي مازاد بعد ذلك
 وجر القناة التي تأخذ من نهر كرخايا الاخذ من الفرات في عقود
 وثيقة من اسفلها محكمة بالصاروج والاجر من اعلاها معقودة عقدا
 وثيقا فتدخل المدينة وتنفذ في اكثر شوارع الارباح تجري صيفا
 وشتاء قد هندست هندسة لاينقطع لها ماء في وقت وقناة اخري
 من دجلة علي هذا المثال وسماها دجيل وجر لاهل الكرخ وماتصل
 به نهرا يقال له نهر الدجاج وانما سمي نهر الدجاج لان اصحاب
 الدجاج كانوا يقفون عنده ونهراه يسمى نهر طابق بن - الصمية ولهم
 نهر عيسى الاعظم الذي يأخذ من معظم الفرات تدخل فيه السفن

العظام التي تأتي من الرقة ويحمل فيها الدقيق والتجارات من الشام ومصر تصير الي فرسه عليها الاسواق وحوانيت التجار لا تنقطع لي وقت من الاوقات فالماء لا ينقطع ولهم الابار التي يدخلها الماء من هذه القنوات فهي غلبة شرب القوم جميعا منها وانما احتيج الي هذه القنوات لكبر البلد وسعته والافهم بين دجلة والفرات من جميع النواحي تدفق عليهم المياه حتي غرسوا النخل الذي حمل من البصرة فصار ببغداد اكثر منه بالبصرة والكوفة والسواد وغرسوا الاشجار واثمرت الثمر العجيب وكثرت البساتين والجنة في ارباض بغداد من كل ناحية لكثرة المياه وطيبها وعمل فيها كل مايعمل في بلد من البلدان لان حلاق اهل الصناعات انتقلوا اليها من كل بلد واتوها ممتلك الحق ونزعوا اليها من الاداني والاقصي فهذا الجانب الغربي من بغداد وهو جانب المدينة وجانب الكرخ وجانب الأرباض في كل طرف منه مقبرة وقري متصلة وعمارات مائة .

والجانب الشرقي من بغداد نزله المهدي بن المنصور وهو ولي عهد ابيه وابندا ببناءه في سنة ثلث واربعين ومائة فاحتط المهدي قلعصره بالرمافة الي جانب المسجد الجامع الذي في الرمافة وحفر نهرا يأخذ من النهروان سماه نهر المهدي يجري في الجانب الشرقي واقطع المنصور اخوته وقواده بعد ما قطع من الجانب الغربي وهو جانب مدينته وسمت القطائع في هذا الجانب وهو يعرف بمعسكر المهدي كما قسمت في جانب المدينة وتنافس الناس في النزول علي

المهدي لمحبتهم له ولاتساعه عليهم بالاموال والعطايا ولانه كان
اوسع الجانبين ارضا لان الناس سبقوا الي الجانب الغربي وهو
جزيرة بين دجلة والفرات فبنوا فيه ومار فيه الاسواق والتجارات
فلما ابتدئ البناء في الجانب الشرقي امتنع علي من اراد سعة
البناء فأول القطائع علي راس الجسر لخزيمة بن غازم التميمي وكان
علي شرطة المهدي ثم قطيعة اسمعيل بن علي بن عبد الله بن
العباس بن عبد المطلب ثم قطيعة العباس بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس بن عبد المطلب لانه جعل قطيعة في الجانب
الغربي بستانا، ثم قطيعة العري بن عبد الله بن الحرث بن العباس
بن عبد المطلب ثم قطيعة فثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس
بن عبد المطلب عامل بن جعفر علي اليمامة، ثم قطيعة الربيع مولي
امير المؤمنين لانه جعل قطيعته بناحية الكرخ اسواقا ومستغلات
فاقطع مع المهدي وهو قصر الفضل بن الربيع والمبدان ثم قطيعة
جبريل، بن يحيى البجلي ثم قطيعة اسد بن عبد الله الخزاعي ثم
قطيعة ملك بن الهيثم الخزاعي ثم قطيعة سلم بن قتيبة الباهلي
ثم قطيعة سفيان بن معاوية المهلبى ثم قطيعة روح بن حاتم ثم
قطيعة ابان بن صدقة الكاتب، ثم قطيعة حموية الخادم مولي
المهدي، ثم قطيعة نصير، الوصيف مولي المهدي، ثم قطيعة سلمة
الوصيف صاحب خزانة سلاح المهدي، ثم قطيعة بدر الوصيف مع
سوق العطش وهي السوق العظمي الواسعة، ثم قطيعة العلاء
الخادم مولي المهدي ثم قطيعة يزيد بن منصور الحميري ثم قطيعة

زياد بن منصور الحرشي ثم قطيعة ابي عبيد معاوية ابن بركم
 البلخي علي قنطرة بردان ثم قطيعة عمارة بن حمزة بن ميمون ثم
 قطيعة ثابت بن موسي الكاتب علي خراج الكوفة وماسقي الفرات ثم
 قطيعة عبد الله بن زياد بن ابي ليلى الخثعمي الكاتب علي ديوان
 الحجاز والموصل والجزيرة وارمينية واذريينجان ثم قطيعة عبيد الله
 بن محمد بن صفوان القاضي ثم قطيعة يعقوب ابن داود السلمي
 الكاتب الذي كتب للمهدي في خلافته - ثم قطيعة منصور مولي
 المهدي وهو الموضع الذي يعرف بباب المقير ثم قطيعة ابي
 هريرة محمد بن فروخ القائد بالموضع المعروف بالمخرم ثم قطيعة
 معاذ بن مسلم الرازي جد اسحق بن يحيى بن معاذ ثم قطيعة
 الغمر بن العباس الخثعمي صاحب البحر ثم قطيعة سلام مولي
 المهدي بالمخرم وكان يلي المطالم ثم قطيعة عقبة بن سلم الهنائي
 ثم قطيعة سعيد الحرشي في مربعة الحرشي ثم قطيعة مبارك
 التركي ثم قطيعة سوار مولي امير المؤمنين ورحبة سوار ثم
 قطيعة نازي مولي امير المؤمنين صاحب الدواب واصطبل نازي ثم
 قطيعة محمد بن الاشعث الخزاعي ثم قطيعة عبد الكبير عبد
 الحميد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب اخي عمر بن الخطاب ثم
 قطيعة ابي غسان مولي امير المؤمنين المهدي وبين القطائع منازل
 الجند وسائر الناس من التناء ومن التجار ومن سائر الناس في كل
 محله وعند كل ريف وسوق هذا الجانب العظمي التي تجتمع فيها
 اصناف التجارات والبياعات والصناعات علي راس الجسر مارا من راس

الجسر مشرقا ذات اليمين وذات الشمال من أصناف التجارات
 والصناعات، وينقسم طرق الجانب الشرقي وهو عسكر المهدي خمسة
 أقسام، فطريق مستقيم الي الرصافة الذي فيه قصر المهدي والمسجد
 الجامع وطريق في السوق التي يقال لها سوق خضير وهي معدن
 طرائف الصين ونخرج منها الي الميدان ودار الفضل بن الربيع
 وطريق ذات اليسا رالي باب البردان وهناك منازل جلد بن برمك
 وولده، وطريق الجسر من دار خزيمة الي السوق المعروفة بسوق
 يحيى بن الوليد الي الموضع المعروف بالدور الي باب بغداد
 المعروف بالشماسية ومنه يخرج من اراد الي سر من رأي، وطريق
 عند الجسر الاول الذي يعبر عليه من اتي من الجانب الغربي ياخذ
 علي دجلة الي باب العقير والمخرم وما اتصل بذلك، وكان هذا اوسع
 الجانبين لكثرة الاسواق والتجارات في الجانب الغربي كما وصفنا فنزله
 المهدي وهو ولي عهد وفي خلافته ونزله موسي الهادي ونزله
 هارون الرشيد ونزله المأمون ونزله المعتصم وفيه اربعة الاف درب
 وسكة وخمسة عشر الف مسجد سوي مازاده الناس وخمسة الاف
 حمام سوي مازاده الناس بعد ذلك وبلغ أجره الاسواق ببغداد في
 الجانبين جميعا مع رحا البطريق وما اتصل بها في كل سنة اثني
 عشر الف الف درهم ونزل ببغداد سبعة خلفاء المنصور والمهدي
 وموسي الهادي وهارون الرشيد ومحمد الامين وعبد الله المأمون
 والمعتصم فلم يمت بها منهم واحدا الامحمد الامين بن هارون
 الرشيد فانه قتل خارج باب الانبار عند بستان طاهر .

- ٣٦١ -

وهذه القطنع والشوارع والدروب والسكك التي ذكرتها علي
مارسمت في ايام المنصور وقت ابتدائها وقد تغيرت ومات
المتقدمون من اصحابها وملكها قوم بعد قوم وجيل وبعد جيل
وزادت عمارة بعض المواضع وملك قوم ديار قوم وانتقل
الوجوه والجله والقواد واهل النباهة من سائر الناس مع المعتصم
الي سر من راي في سنة ثلث وعشرين ومائتين، ثم اتصل بهم
المقام في ايام الواثق والمتوكل ولم تخرب بغداد ولا نقصت
اسواقها لانهم لم يجدوا منها عوضا ولانه اتصلت العمارة والمنازل
بين بغداد وسرمن راي في البر والبحر أعني في دجلة وفي جانبي
دجلة ١٠ [١]

رسالة في فضل علي بن أبي طالب
وآله من بنى هاشم

- ٣٦٥ -

رسالة في عيسى بن أبي طالب واله من بنس هاشم

تقدمة:

هذه اولي رسالتين، تضمنهما كتاب بهاء الدين ابي الفتح، علي
ابن عيسى الاربلي كشف الغمة في معرفة الائمة، وصدرنا بهما
عده.

وعلي بن عيسى هذا هو احد شعراء القرن السابع وكتابه
المتوسلين ولد في اربل الواقعة بين الزاب الكبير والزاب الصغير
في اقليم الجزيرة قريبا من اذربيجان وعمل في ديوانها كما عمل من
بعد في ديوان بغداد.

اما كتابه فهو من الكتب التي تمثل غلبة التشيع في هذا
الافق الشرقي من آفاق العالم الاسلامي بما بناه عليه من ذكر
تاريخه، والترجمة لائمة ومن ذلك كان من أوائل الكتب التي عني
بطبوعها في ايران، وانما استجزنا ان نصدر بهاتين الرسالتين عنه،
لانه وان كان مطبوعا كان في اعتبارنا في حكم المخطوط وذلك
لندرة نسخه، وصعوبة الحصول عليه، اذا كان انما طبع في سنة

اربع وتسعين ومائتين والـف، للهجرة التي توافق في التاريخ الهيلادي سنة سبع وسبعين وثمانمائة والـف. وإذا كان قد انفرد، فيما وقفنا عليه بها اورد من الاثار المنسوبة لابي عثمان.

وعلي ان هاتين الرسالتين اللتين اوردهما منسوبتين الي الجاحظ متفاوتتان تفاوتاً بعيداً في تحقيق هذه النسبة.

فاما الأولي التي ذكر انه اوردها مختصراً لها بعد ان وقف عليها بخط عبد الله بن الحسين الطبري، فهي في جملتها، فيما يغلب علي ظننا صحيحة بالنسبة الي الجاحظ وان امتدت اليها يد ابي الفتح بالاعتهار الذي يشير اليه والذي لا يبعد عندنا ان يكون قد حذف به منها اشياء لها خطرهما في التاريخ الادبي والفكري وبما اضافهما كما هو واضح الي علي ويديه من الالقاب التي جرت عادة الشيعة بالحاقها باسمه واسماء سلالته وهي القاب «السلام عليه» مما لانجد له اثراً فيما عدا هذه النسخة من الرسالة من كتب الجاحظ وسائله اذ لا تزيد ان هي فعلت الا عبارة «رضي الله عنه» أو «كرم الله وجهه».

أما فيما عدا ذلك فالذي نكاد نقطع به انها من اثار الجاحظ، كما يغلب علي الظن انها تنتمي الي رسائله الهاشميات التي ذكرها في مقدمة الحيوان بقوله.

وعبّتي برسائلي الهاشميات، واحتجاجي فيها، واستقصائي معانيها وتصويري لهد في احسن صورة لها في اتم حلية وزعمت اني قد خرجت بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية ومن حد الاعتدال في التشيع والاقتصاد فيه الي حد السرف والافراط وزعمت ان مقالة الزيدية خطبة مقالة الرافضة، وان مقالة الرافضة خطبة مقالة الغالبة الي اخر ما قاله في هذا النمط، مشقفا الكلام علي عادته متطرقا من الجزئي الي الكلي ومن المسائل الخاصة الي القضايا العامة .

ولعل هذه الصفات التي وصف بها الجاحظ رسائله الهاشميات هذه كانت مما اغري علي بن عيسى بأن ينقلها او ينقل احداها الي كتابه بعد ان يتصرف فيها بما تحمله عليه شيعته وما قدره حجم كتابه وطبيعته وقد اتاح له ذلك ما يمتاز به اسلوب الجاحظ من بسط وما يلتزمه كثيرا من مزاجه . وقد استطاع ان يحتفظ الي حد غير قليل فيما اذاه اليينا من رسالته بسماة هذا الاسلوب .

وكما استطاع ان يحتفظ بمثل هذه السماة من أسلوبه استطاع ان يحتفظ بالطابع الاعتزالي في تحقيق الغاية التي يجري اليها وهي الانتصار لبني هاشم وبيان مناقبهم . وكان من اول معالم هذا الطابع واطهرها، اصطلاح المناظرة في الاحتجاج للمسائل التي يتناولها

المعتزلة منذ تحولت قضايا الدين اليهم فتحول معها اسلوب
الاقناع من الخطابة التي كان يصطنعها اسلافهم ، يتجهون بها الي
وجدان الناس الي هذا النمط الذي يتجه الي العقل يصطنع له ما
يلائمه ويساير طبيعته وهو الحوار الذي لم يلبث ان غلب عليهم
يتخلونه فيما يريدون الاقناع به ويتجاوزن به في بعض الاحيان هذه
الغاية فيتخلونه نوعامن الرياضة العقلية ، يزجون بها اوقات
فراغهم .

ويبدو هذا فيما اشار اليه الجاحظ في هذه الرسالة من وجوه
الخصومة التي كانوا يتصدون لها بين البصرة والكوفة وبين العرب
والشعوبية وبين عدنان وقحطان وفيما كانوا يعالجونه من قضايا
الوعد والوعيد والقدر والتشبيه والاسماء والاحكام، وغير ذلك مما
كان المجتمع البصري يضطرب به ويدفع اليه .

وقد كان من ذلك ماكان يتورط فيه هذا المجتمع المعقد اشد
التعقيد من الكلام عن الرجال مناضلة بينهم وتمييزا بين طبقاتهم
ومما قد يؤدي اليه هذا من الغلو في التقدير والخروج عن القصد
وذلك مما ينبغي للمعتزلة ان يتجنبوه فلا ينزلقوا اليه . ف يلتزموا
النهج الأوسط الذي يري الاطراف المختلفة ولاتدفعهم الخصومة الي
مثل ما دفعت اليه اليهود والنصاري في دعاواهم والي الماحض علي
بن ابي طالب في مثل قوله: يهلك في رجالان ، محب مفرط ومبغض

مفرد . .

وكذلك كان مذهب الجاحظ في هذه الرسالة التي بناها علي بيان درجة بني هاشم اذ يقول "والرأي كل الرأي الا يدعوك حب الصحابة الي بخس عترة رسول الله صلي الله عليه وسلم حقوقهم وحظوظهم وكان هذا المذهب الذي اخذ نفسه به الذي عرضه لها اتهمه به خصومه من أنه خرج بذلك من حد المعتزلة الي حد الزيدية .

ومهما يكن من أمر فان هذه الرسالة التي لانقصد غير التقية لها تعرض لنا نمطا من الادب الجاحظي يختلف اختلافا كبيرا عن النمط الذي رأيناه من قبل، بقدر ما يعبر عن شخصية الجاحظ في غير ناحية من تواحيه وما تجلوه به في صورة الرجل السمع الواسع الافق البعيد من التزمت القريب من النهج الاوسط في رويته للامور وتناوله لها ووضعها في أقدارها .

اعلم - حفظك الله - أن أصول الخصومات معروفة بينه، وأبوابها مشهورة، كالخصومة بين الشعوية والعرب والكوفي والبصري والعدناني والقحطاني، فهذه الابواب الثلاثة انقص للعقول السليمة، وافسد للاخلاق الحسنة، من المنازعة في القدر والتشبيه، وفي الوعد والوعيد، وفي الاسماء والاحكام وفي الاثار وتصحيح

الآخبار .

وانقص من هذه للعقول تمييز للرجال وخرتيب الطبقات، وذكر
تقديم علي وابي بكر رضوان الله عليهما . فأولي الاشياء بك القصد
وترك الهوي فان اليهود نازعت النصاري في المسيح، فلج بهما
القول، حتي قالت اليهود أنه ابن يوسف النجار، وأن لغير رشده وانه
صاحب نيرنج وخدع ومخازيق، وناصب شرك وصياد شص وشبك فما
يبلغ عن عقل صياد وربيب نجار؟ وزعمت النصاري انه رب العالمين،
وخالق السماوات والارضين واله الأولين والآخرين . فلو وجدت اليهود
أسسوا من هذا القول مقالته فيه . وعلي هذا قال علي "عليه
السلام" يهلك رجالن، محب مفرط ومبغض مفرط . والرأي كل الرأي
الايدعوك حب الصحابة الي بخس عترة الرسول صلي الله عليه وسلم
وحقوقهم وحظوظهم فان عمر لما كتبوا الدواوين وقدموا ذكره فأنكر
ذلك، وقال ابدءوا بطرني رسول الله، صلي الله عليه وسلم واله،
وضعوا آل الخطاب حيث وضعهم الله قالوا: فانت امير المؤمنين فابي
الاتقديم بني هاشم علي نفسه . فلم ينكر عليه منكرو صوبوا رأيه
وعدوا ذلك من مناقية .

وأعلم أن الله لو أراد ان يسوي بين بني هاشم وبين الناس لما
ابانهم يسهم ذوي القربي ولما قال "انلر عشيرتك الاقربين" وقال
تعالى- "وانه لذكر لك ولقومك" واذا كان لقومه في ذلك مالميس
لغيرهم فكل من كان أقرب كان ارفع . ولوسواهم بالناس لما حرم
عليهم الصدقة وماذلك التحريم الا لآكرامهم علي الله . ولذلك قال

للعباس، حيث طلب ولاية الصدقات: "لاولينك غسالات خطايا الناس واوزارهم بل اوليك سقاية الحاج والانفاق علي زوار الله. ولهذا كان ربه اول ربا وضع ودم وريبعة بن الحارث واول دم اهل لانهما القدوة في النفس والمال."

ولهذا قال علي، عليه السلام علي منبر الجماعة نحن اهل البيت لايقاس بنا أحد ومدق صلوات الله عليه. كيف يقاس بقوم منهم رسول الله صلي الله عليه وسلم، والأطيبان: علي وفاطمة والسبطان الحسن والحسين، والشهيدان اسد الله حمزة وذو الجناحين جعفر وسيد الوادي عبد المطلب وساقى الحجيج العباس، وحليم البطحاء والنجد والخير فيهم، والأنصار انصارهم والعاهل من هاجر اليهم ومعهم والصديق من صدقهم والفاروق بن الحق والباطل فيهم والحواري حواريتهم، وذو الشهادتين لانه شهد لهم ولاخير فيهم ولهم ومنهم ومعهم.

وقال عليه السلام فيما ابان به اهل بيته. "اني تارك فيكم الخليفتين احدهما اكبر من الآخر: كتاب الله حبل ممدود من السماء الي الارض، وعترتي، اهل البيت. نبأني الخبير انهما لن يفترقا حتي يرذا علي الحوض."

ولو كانوا كغيرهم لما قال عمر، حين طلب مصاهرة علي: اني

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل سبب ونسب منقطع يوم القيامة الاسببي ونسبي".

واعلم ان الرجل قد ينازع في تفضيل ماء دجلة علي ماء الفرات فان لم يتحفظ وجد في قلبه علي شارع ماء دجلة «رقة» لم يكن يجدها ووجد في قلبه غلظة علي شارب ماء الفرات لم يكن يجدها.

فالحمد لله الذي جعلنا لانفرك بين أبناء نبينا، ورسنا. نحكم لجميع المراسلين بالتصديق ولجميع السلف بالولاية ونخص بني هاشم بالمحبة ونعطي كل امرئ قسطة من المنزلة.

فاما علي بن ابي طالب، عليه السلام فلو افردنا لايامه الشريفة ومقاماته الكريمة ومناقبه السنية كلاما لافينا في ذلك الطوامير الطوال. العرق صحيح، والمنشا كريم والشأن عظيم والعمل جسيم والعلم كثير، والبيان عجيب، واللسان خطيب والصدر رحيب، فاخلاقه ولفق أعراقه. وحديثه يشهد لتديمه، وليس التدبير في وصف مثله الا بذكر جمل قدره واستقصاء جميع حقه فاذا كان كتابنا لا يحتمل تفسير جميع أمره، ففي هذه الجملة بلاغ من اراد معرفة فضله.

واما الحسن والحسين، عليهما السلام، فمثلهما مثل الشمس والقمر، فمن اعطي مافي الشمس والقمر من المنافع العامة والنعم

- ٣٧٣ -

الشملة التامة ؟ ولو لم يكونا ابني علي من فاطمة . عليهم السلام ورفعت من وهمك كل رواية وكل سبب توجيه القراة لكنت لاتقرن بهما احدا من جلة اولاد المهاجرين والصحابه الا اراك فيهما الانصاف من تصديق قول النبي صلي الله عليه وسلم انهما سيذا شباب اهل الجنة جميع من هما سادته سادة . والجنة لاتدخل الا بالصدق والصبروا لا بالحلم والعلم والا بالطهارة والزهد والا بالعبادة والطاعة الكثيرة والاعمال الشريفة والاجتهاد والاشره الاخلاص في النية فدل علي أن حظهما في الاعمال المرضية والملاهب الزكية فوق كل خط .

واما محمد بن الحنفية فقد اقر الصادر والوارد والحاضر والبادي انه كان واحد دهره وعصره رجل وكان اتم الناس تماما وكمالا .

واما علي بن الحسين عليه السلام فالناس علي اختلاف مذاهبهم مجمعون عليه لايمتري احد في تدبيره ولايشك احد في تقديمه وكان اهل الحجاز يقولون لهم نرثاثة في دهره ، يرجعون الي اب قريب كلهم يسمى عليا ، وكلهم يصلح للخلافة لتكامل خصال الخير فيهم يعنون علي بن الحسين بن علي عليهم السلام وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله بن العباس رضي الله عنه .

ولو غزونا بكتابنا هذا ترتيبهم لذكرنا اولا عليا لصلبه وولد الحسين وعلي بن الحسين ومحمد بن عبد الله بن جعفر ومحمد بن

علي بن عبد الله بن العباس . الا انا ذكرنا جملة من القول فاقصرنا
من الكثير علي القليل .

فاما النجدة فقد علم اصحاب الاخبار وحمال الاثار انهم لم
يسمعوا بمثل نجده علي ابن ابي طالب عليه السلام، وحمزة رضي الله
عنه ولا بصبر جعفر الطيار، رضوان الله عليه وليس في الارض قوام
اثبت جنائيا، ولا اكثر مقتولا تحت ظلال السيوف ولا اجدر ان
يقاتلوا وقد فرت الاجناد وذهبت الصنائع، وخام ذو البصيرة وحاد
اهل النجدة، من رجالات بني هاشم وهم كما قيل

وخام الكمي، وطاح اللـواء، ولاتأكل الحرب الاسمين

وكذلك قال دغفل حين وصفهم "انجاد امجاد ذو السنة حداد"
وكذلك قال علي عليه السلام حين سئل عن بني هاشم وبني امية نحن
انجد وامجد واجود وهم انكر وامكر واعلر" وقال ايضا "نحن اطعم
للطعام، واضرب للهام" .

وقد عرفت جفاء المكيين وكيس المدنيين، واعراق بني هاشم
مكية ومناسبهم ومدينة ثم ليس في الارض احسن اخلاقا . ولا اظهر
بشرا ولا ادوم دماشه ولا ألين عريكة ولا اطيب عشرة ولا ابعد من
كبـ منهم والحدة لا يكاد يعدمها الحجازي والتهامي، الا ان حليمهم لا

يشق عبارة وذلك في الخاص والجمهور علي خلاف ذلك حتي تصير الي بني هاشم فالحلم في جمهورهم وذلك يوجد في الناس كافة ولكننا نضمن انهم اتم الناس فضلا واقلهم نقصا وحسن الخلق في البخيل اسرع، وفي الدليل اوجد وفيهم مع فرض وجوهم وظهور عزهم من البشر الحسن والاحتمال وكرم التفاضل ما لا يوجد مع البخيل الموسر والدليل المكثر اللذين يجعلان البشروقية دون المال.

وليس في الأرض خصلة تدعو الي الطغيان والتهاون بالامور وتفسد العقول، وتورث السكر، والا وهي تعتربهم وتعرض لهم دون غيرهم، اذ قد جمعوا من الشرف العالي والمغرس الكريم، والعزة والمنعة، مع ابقاء الناس عليهم والهيبة لهم وانهم في كل اوقاتهم وجميع اعصارهم فوق من هم في مثل ميلادهم في الهيبة الحسنة والمروءة الظاهرة والاخلاق المرضية وقد عرف الحدث الغير من فتيانهم وذو العرامة من شبابهم انه ان افتري لم يفتر عليه وان ضرب لم يضرب، ثم لانجده الاقوي الشهوة بعيد الهمة كثير المعرفة مع خفة ذات اليد وتعدد الامور ثم لانجد عند اسدهم شيئا عند المنكر الا رايت من غيره من الناس اكثر منه من مشايخ القبائل وجمهور العشائر. اذا كان لاضلهم فوق كل فاضل، وناقصهم انقص نقصانا من كل ناقص فاي دليل ادل اي برهان اوضح مما قلته.

وقد علمت ان الرجل منهم ينعت بالتعظيم «يشار اليه» بالرواية

في دخول الجنة بغير حساب، ويتأول القرآن له ويزداد في طمعه بكل حيلة وينقص من خوفه، ويحتج له بأن النار لاتمسه وأنه ليشفع في مثل ربيعه ومضر وبانت تجد لهم مع ذلك العدد الكثير من الصوام والمصلين والتالين الذين لايجاريهم احد ولا يقاربهم.

كان ابوسفيان بن الحارث بن عبد المطلب يصلي في كل ليلة الف ركعة، وكذلك علي بن الحسين بن علي وعلي بن عبد الله بن جعفر وعلي بن عبد الله العباس عليهم السلام، مع الحلم والعلم، وكظم الغيظ والصفح الجميل، والاجتهاد المبرر. فلوا ان خصلة من هذه الخصال اوداعية من هذه الدواعي عرضت لغيرهم، لهلك واهلك.

اعلم انهم لم يمتحنوا بهذه المحن، ولم يتحملوا هذه البلوي الا لما قدموا من العزائم التامة والادوات الممكنة ولم يكن الله ليزيدهم في المحنة الا وهم يزدادون علي شدة المحن خيرا وعلي التكشف تهديبا.

وجملة اخري مما لعلني بن ابي طالب عليه السلام خاصة الاب ابو طالب والجد عبد المطلب بن هاشم والام فاطمة بنت اسد بن هاشم والزوجة فاطمة بنت رسول الله صلي الله عليه وسلم وسيد نساء اهل الجنة والولد الحسن والحسين سيدا شباب اهل الجنة والاخ جعفر الطيار في الجنة والعم العباس وحمزة سيد الشهداء في الجنة

- ٣٧٧ -

والعمة صفية بنت عبد المطلب وابن العم رسول الله صلى الله عليه وسلم والده . واول هاشمي بين هاشميين كان في الارض ولد ابي طالب والأعمال التي يستحق بها الفخر اربعة : التقدم في الاسم والذب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم وعن الدين والفقه في الحلال والحرام الزهد في الدنيا وهي مجتمعة في علي بن ابي طالب متفرقة في الصحابة .

وفي علي يقول اسد بن زعيم يحرض عليه قريشا وانه بلغ منهم علي حداثة سنة مالم يبلغه ذوو الاسنان .

فهي كل مجمع غاية اخزاكم	بذاع ابر علي المذاكي القرح
للم دركم الما تنكروا	قد ينكر الضيم الكريم ويستحي
هذا ابن فاطمة النبي افناكم	نبحات، ويمشي امنا لم يجرح
اين الكهول؟ واين كل دعاة	للمعضلات واين زين الابطاح؟
افناكم ضربا بكل مهنـد	طلت وحد غرارة لم يطفح

واما الجود فليس علي ظهر الارض جواد جاهلي ولا اسلامي ولاعربي ولا عجمي ولا وجوده يكاد يصير بخلا اذا ذكر وجود علي بن ابي طالب، وعبد الله بن جعفر وعبد الله بن العباس والمذكورون بالجود منهم كثير لكننا اقتصرنا .

ثم ليس في الارض قوم انطق خطيبا، ولاكثر بليغا، من غير

- ٣٧٨ -

تكلف ولا تكسب من بني هاشم وقال ابو سفيان بن الحارث:

لقد علمت قريش غير فخر بأننا نحن اجروهم جنانا
واكثرهم بروعا سابغات وامضاهم اناطعنوا سنانا
وادفعهم عن الضراء فيهم وابينهم اذا نطقوا بياننا

ومما يضم الي جملة القول في فضل علي بن بن طالب، عليه السلام أنه اطاع الله قبلهم ومعهم وبعدهم وامتنع بما لم يمتنع به ذو عزم وابتلي بما لم يبتل به ذو صبر.

واما جملة القول في ولد علي فان الناس لايعظمون الناس الا بعد ان يصيبوا منهم، وينالوا من فضلهم والا بعد ان تظهر قدرتهم وهم معظمون قبل الاختيار، وهم بذلك واثقون به موقنون. فلولا أن هناك سرا كريما، وخيما عجيبا وفضلا مبينا وعرفا ناسيا لاكتفوا بذلك التعظيم ولم يعانون تلك التكاليف الشداد والمحن الغلاظ.

واما المنطق والخطب، فقد علم الناس كيف كان علي بن ابي طالب عند التفكير والتعبير وعند الارتجال وعند الاطناب والايجاز في وقتها وكيف كان كلامه قاعدا وقائما وفي الجماعات ومنفردا مع الخبرة بالاحكام والعلم بالحلال والحرام. وكيف كان عبد الله بن عباس رضوان الله عليه فالذي كان يقال له الحبر والبحر، ومثال عمر بن الخطاب يقول له "نص ياغواص" شئنه اعرفها من اخزم، قلب عقول

- ٣٧٩ -

ولسان قول "ولو لم يكن لجماعتهم الا لسان زيد بن علي بن الحسين وعبد الله بن معاوية بن جعفر لفرعوا بهما جميع البلغاء وعلوا بهما علي جميع الخطباء ولذلك قالوا "واجواد امجاد السنة حداد" .

وقد القيت اليك جملة من ذكر الـ الرسول يستدل بالقليل منها علي الكثير وبالبعض علي الكل والبغية في ذكرهم انك متي عرفت منازلهم ومنازل طاعاتهم ومراتب اعمالهم وأقدار اعمالهم وشدة محبتهم واضفت ذلك الي حق القرابة كان أدني مايجب علينا الاحتجاج لهم وجعلت بدل التوقف في امرهم الرد علي من اضاف اليهم مالا يليق بهم وقد تقدم من قولنا فيهم، متفرقا ومجملا وما اغني عن الاستقصاء في هذا الكتاب .

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

- ١- ابن أبي أصيبعة، موفق الدين أبو العباس أحمد بن القاسم الخزرجي، توفي سنة ٦٦٧هـ / ١٢٧٠م.
- عيون الأنباء في طبقات الأطباء، جزآن، نشر وتحقيق الدكتور نزار رضا، منشورات دار مكتبة الحياة، بيروت.
- ٢- ابن الاثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري، توفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٣٣م.
- الكامل في التاريخ، طبعة القاهرة، ٤ أجزاء.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- أسد الغابة في معرفة الصحابة، ٥ أجزاء، طبعة المعارف، القاهرة ١٢٨٥هـ.
- ٣- ابن تغري بردي، جمال الدين يوسف، توفي سنة ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م.
- النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة، ح ١، طبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.
- ٤- ابن حزم، أبو محمد علي بن أحمد حزم الظاهري، توفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م.
- جوامع السيرة وخمس رسائل أخرى، تحقيق الدكتور احسان عباسي،

- والدكتور ناصر الدين الأسد، طبع دار المعارف، مصر [مجموعة تراث الاسلام].
- جمهرة انساب العرب، تحقيق ليفي بروفنسال، طبع دار المعارف، سنة ١٩٤٨. [مجموعة ذخائر العرب].
- الفصل في الملك والأهواء والنحل، ٤ أجزاء، القاهرة، سنة ١٣١٧هـ.
- ٥- ابن حوقل، أبو القاسم محمد، توفي سنة ٣٦٧ هـ / ٩٧٧ م.
- كتاب صورة الارض، نشر Kramers ليدن ١٩٣٨، في جزئين.
- ٦- ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله عبد الله توفي ٢٧٢ هـ / ٨٨٥ م.
- كتاب المسالك والممالك، طبعة دجويه، ليدن ١٨٨٩، وبديله نبذة من كتاب "الخرج وصنعه الكتابة"، لأبي الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي.
- ٧- ابن خلدون، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن خلدون ولي الدين التونسي الخضرمي الاشبيلي المالكي، توفي في سنة ٨٠٨ هـ / ١٤٠٦ م.
- العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، ٧ أجزاء، بولاق ١٣٨٤ هـ.
- مقدمة ابن خلدون، طبعة التجارية.
- التعريف بابن خلدون ورحلته شرقاً وغرباً، نشر محمد بن تاويع الطبخي، القاهرة ١٣٧ هـ / ١٩٥٠ م.
- ٨- ابن خلكان، شمس الدين أبو العباس أحمد بن محمد، توفي سنة

١٢٨٢هـ/١٢٨٢م.

- وفيات الاعيان وأبناء أبناء الزمان، نشر محمد محيي الدين عبد الحميد، ٦ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٦٧- ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٨-١٩٥٠م.

٩- ابن سعد، أبو عبد الله محمد بن سعد بن منيع الزهري، توفي سنة ٢٣٠هـ/٨٤٥م.

- كتاب الطبقات الكبير، تحقيق ادوارد سكو، ٨ أجزاء، لندن ١٩٠٤-١٩١٧م.

١٠- ابن سعيد، علي بن موسى المغربي، توفي سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٦م.

- المغرب في حلي المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف، طبع دار المعارف، القاهرة [مجموعة ذخائر العرب].

١١- ابن الشباط، محمد بن علي بن محمد المصري التوزري، توفي سنة ٦٨١هـ/١٢٨٢م.

- صلة السوط وسمة العرط نشر القسم الخاص بالاندلس، أحمد مختار العبادي، معهد الدراسات الاسلامية، مدريد، ١٩٧١م.

١٢- ابن عبد البر القرطبي، يوسف النمرى توفي سنة ٤٥٩هـ/١٠٦٦م.

- الاستيعاب في معرفة الاصحاب، نشر علي هامش الاصابة لابن بن حجر، ٤ أجزاء، النسخة المصورة بالافست، المثنى بغداد.

١٨- ابن القوطية، محمد بن عمر، توفي سنة ٣٦٧هـ / ٩٧٧م.
- تاريخ افتتاح الأندلس، تحقيق عبد الله أنيس الطباع، طبع بيروت
١٩٥٧.

١٩- ابن الكردبوس، [آخر القرن السادس الهجري ١٢م]
- تاريخ الأندلس، تحقيق أحمد مختار العبادي، مجلة معهد الدراسات
الإسلامية بهدريد ١٩٧١.

٢٠- ابن النديم، محمد بن اسحاق، توفي ٣٨٣هـ / ٩٩٣م.
- الفهرست، طبعة التجارية

٢١- ابن هشام، أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب الحميري،
توفي سنة ٢١٨هـ.
- السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقاره، إبراهيم الأبياري، عبد
الحفيظ شلبي، ٤ أجزاء، طبع دار أحياء التراث العربي، بيروت،
لبنان.

٢٢- ابن منظور، جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الخزرجي
الأفريقي، توفي سنة ٧١١هـ / ١٣١١م.
- لسان العرب، طبع بولاق ١٢٩٩ - ١٣٠٨هـ، في عشرين مجلدًا.

٢٣- أحمد أمين، ضحي الإسلام، جزءان، طبع لجنة التأليف والترجمة
والنشر، طبعة ثالثة، القاهرة ١٣٧١هـ / ١٩٥٢.
- طبع دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة العاشرة.

- ٣٨٨ -

٢٤- الأمطخري، أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي، توفي سنة ٩٥١هـ/ ٩٥١.

- كتاب المسالك والممالك نشر دجويه ليدن ١٩٢٧.

٢٥- الأمفهانى [أبو الفرج]، توفي سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٧ م.

- كتاب الأغاني، ٢١ جزءاً، طبع القاهرة ١٩٢٧- ١٩٣٦.

٢٦- بروفنسال، تاريخ أسبانيا الإسلامية، بالفرنسية طبع الجمعية

الفرنسية للأثار الشرقية، القاهرة ١٩٤٨.

٢٧- الخطيب البغدادي، الحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن علي، توفي

سنة ٤٦٣هـ/ ١٠٧٠-١٠٧١ م.

- تاريخ بغداد أومدينة السلام، ١٤ جزءاً، طبع القاهرة

١٣٤٩هـ/ ١٩٣١ م.

٢٨- البغدادي، أبو منصور عبد القاهر بن طاهر، توفي سنة ٤٢٩هـ

/ ١٠٣٧ م.

- الفرق بين الفرق، طبع القاهرة ١٣٢٨هـ/ ١٩١٠ م.

٢٩- البكري، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز، توفي سنة

٤٨٧هـ/ ١٠٩٤ م.

- المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب نشر دسلن، باريز ١٩١١.

٣٠- البلاذري، أبو العباس أحمد بن يحيى بن جابر، توفي سنة

٣٧٩هـ/ ٨٩٢ م.

- ٣٨٩ -

- كتاب فتوح البلدان، طبع ليدن ١٨٦٦م.

٣١- الثعالبي، أبو منصور عبد الملك، توفي سنة ٤٢٩هـ / ١٠٣٧م -
- يتيمة الدهر، أربعة أجزاء، طبع القاهرة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م.

٣٢- الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، توفي سنة ٢٥٥هـ / ٨٦٩م -
- كتاب التاج في أخلاق الملوك، تحقيق أحمد زكي باشا، القاهرة،
١٣٣٢هـ / ١٩١٤م.

- كتاب البيان والتبيين، ٤ أجزاء، القاهرة، ١٩٢٨م.
- كتاب التبصر بالتجارة، تحقيق حسن حسني عبد الوهاب، الطبعة
الثانية، القاهرة، ١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م.

٣٣- الجهشياري، أبو عبد الله محمد بن عبدوس، توفي
٣٣١هـ / ٩٤٣-٩٤٢م.
- الوزراء والكتاب، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري وعبد
الحفيظ شلبي طبع القاهرة ١٩٣٨م.

٣٤- حاجي خليفة، مصطفى كاتب جلي، توفي ١٠٦٧هـ،
١٦٥٧م.

- كشف الطنون عند أسامي الكتب والفنون، طبع ليبزج ولندن
١٨٣٥-١٨٥٨م.

٣٥- خليفة بن خياط، توفي سنة ٢٤٠هـ / ٩٥١م.
- تاريخ خليفة بن خياط [رواية بقي بن محمد] تحقيق سهيل زكار، في

قسمين، منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي، دمشق
١٩٦٧-١٩٦٨.

٣٦- ديمومبيين [جودفروا]، النظم الاسلامية، ترجمة الدكتور فيصل
السامر، الدكتور صالح الشماع، دار النشر للجامعيين، بيروت
١٩٦١.

٣٧- الذهبي، شمس الدين أبو عبدالله محمد بن أحمد، توفي سنة
٥٧٨٤/١٣٤٧-١٣٤٨.
- تذكرة الحفاظ، جزآن، الطبعة الثانية، حيدر آباد - الدكن الهند،
١٣٣٣هـ.

- تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام، وثلاثة أجزاء، نشر مكتبة
القدس، طبع القاهرة ١٣٦٧-١٣٦٨هـ.
- كتاب دول الاسلام، جزآن طبع حيدر آباد الدكن الهند- الطبعة
الثانية، سنة ١٣٦٤-١٣٦٠هـ.
- ميزان الاعتدال في نقد الرجال، ٤ اقسام، تحقيق محمد البجاوي،
طبع عيسى البابي الحلبي، القاهرة سنة ١٩٦٣م.

٣٨- الرقيق القيرواني، أبو القاسم ابراهيم، توفي بعد سنة ٤١٧هـ/
١٠٢٦م.

- تاريخ أفريقية والمغرب، تحقيق الملجي الكعبي، تونس ١٩٦٨.

٣٩- الزبير، أبو عبد الله الزبير بن بكار بن أحمد بن مصعب، توفي

- ٣٩١ -

سنة ٥٦٢هـ / ٨٧٠م

- كتاب نسب قریش، تحقیق لینی بروفسال، نشر دار المعارف، مصر
١٩٥٣ [مجموعة ذخائر العرب]

٤٠- سعد زغلول، التاريخ العباسي، والأندلسي، طبع دار النهضة
العربية، بيروت.

- تاريخ الدولة العربية، طبع دار النهضة العربية، بيروت.

٤١- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين، توفي سنة
٩١١هـ / ١٥٠٩م.

- حسين المحاضرة في اخبار مصر والقاهرة، جزءان، طبع القاهرة، سنة
١٣٢٧.

- تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة، طبع القاهرة، سنة
١٣٠١هـ.

٤٢- الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم، توفي سنة
٥٤٨هـ /

- الملل والنحل، ٥ أجزاء، القاهرة ١٣١٧هـ.

٤٣- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، توفي سنة ٣١٠هـ / ٩٢٣م.

- تاريخ الأمم والملوك، طبعة دار المعارف ١٠ أجزاء [مجموعة ذخائر

- ٣٩٢ -

العرب]٠

٤٤- طيفور، ابو الفضل أحمد بن أبي طاهر، توفي سنة ٨٣٨هـ /
٨٩٣-٨٩٤م.
- تاريخ بغداد، الجزء السادس، طبعة هـ٠ كلر، لابنرج ١٩٠٨٠

٤٥- القاضي عياض، ابوالفضل بن موسى اليجصبي، توفي سنة
٤٧٦هـ /

ترتيب المدارك وتقريب المسالك في معرفة اعلام مذهب مالك، تحقيق
أحمد بكير محمود، ٤ أجزاء، طبع بيروت٠

٤٦- فاروق عمر:

- طبعة الدعوة العباسية [٩٨هـ/٧١٦م - ١٣٢هـ/٧٤٩م]، دراسة
تحليلية لواجهات الثورة العباسية وتفسيراتها، طبع دار الارشاد
بيروت ، طبعة أولي، سنة ١٩٧٠م.
- بحوث في التاريخ العباسي، الطبعة الأولى، بيروت، لبنان، ١٩٧٧م٠

٤٧- القالي، أبو علي اسماعيل بن القاسم البغدادي، توفي ٣٥٦هـ /
٩٦م٠

- كتاب الأمالي، جزءان، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠
- كتاب ذيل الأمالي والنوادر، نشر دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان٠

٤٨- القفطي، جمال الدين علي بن يوسف بن ابراهيم بن عبد الوهاب،
توفي سنة ٦٤٦هـ/١٢٤٨م٠

- ٣٩٣ -

- اخبار العلماء باخبار الحكماء، نسخة مصورة بالأوفست عن طبعة ليبزج ١٩٠٣م مكتبة المثنى، بغداد.

٤٩- القلقشندي، شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي المصري، توفي سنة ٨٢١هـ/١٤١٨م.
- صبح الأعشي في صناعة الانشاء، في ١٤ جزءاً، طبع دار الكتب المصرية، ١٩١٣-١٩١٩ نسخة مصورة عن الطبعة الأميرية، القاهرة ١٩٦٥.
- نهاية الأرب في معرفة انساب العرب، تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة ١٩٥٩.

٥٠- الكندي، أبو عمر محمد بن يوسف، توفي سنة ٣٥٠هـ/٩٦١م.
- كتاب الولاة والقضاة، نشر فن جست، طبعة بيروت ١٩٠٨.

٥١- المارودي، أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري، توفي سنة ٤٥٠هـ/١٠٥١م.
- الاحكام السلطانية، طبع القاهرة ١٢٩٧هـ.
.. ادب، الوزير، طبع بيروت.
- ادب الوزير، طبع بيروت.
- أدب الدنيا والدين، طبع القاهرة.

مجهول:

٥٢- العيون والحدائق في اخبار الحقائق، النسخة المصورة بالأوفست، المثنى بغداد، عن طبعة بريل ١٨٦٩.

- ٣٩٤ -

٥٣- مجهول،

- اخبار الدولة العباسية وفيه اخبار العباس وولده، تحقيق الدكتور عبد العزيز الدوري والدكتور عبد الجبار المطلبي، طبع بيروت سنة ١٩٧١.

مجهول:

٥٤- اخبار مجموعة في فتح الاندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بينهم، مدريد ١٨٦٧م.

٥٥- المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين، توفي سنة ٩٥٦هـ/٩٥٦م

مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ٤ أجزاء، طبع التجارية ١٩٥٨ وطبعة بريه دي مينار روبافيه دي كرتاي، منشورات الجامعة اللبنانية، قسم الدراسات التاريخية، بيروت ١٩٧٣.

٥٦- مسلم، أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيري، توفي سنة ٢٦١هـ/٨٧٥م.

- الجامع الصحيح، ٨ أجزاء، طبع القاهرة ١٣٢٩-١٣٣٢.

٥٧- محمد حميد الله، مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوي والخلافة الراشدة، طبع القاهرة سنة ١٩٥٦.

- ٣٩٥ -

٥٨ - المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد، توفي
٣٨٨هـ/٩٩٧م.

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، طبع دجويه ليدن ١٩٠٦م.

٥٩ - المقرئزي تقي الدين أبو العباس أحمد بن علي المقرئزي، توفي
سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م.

- كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، جزءان، النسخة
المصورة بالآلوفست مكتبة المثنى، بغداد [عن طبعة بولاق].

٦٠ - النوبختي، أبو محمد الحسن بن موسى، توفي سنة
٢٣٢هـ/٨١٧م.

- كتاب فرق الشيعة، طبع المطبعة الحيدرية، النجف، سنة ١٣٥٥هـ/
١٩٣٦م.

٦١ - النويري، أبو العباس أحمد بن عبد الوهاب بن محمد شهاب الدين،
توفي سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م.
نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة.

٦٢ - الهمداني، أبو محمد الحسن بن أحمد بن يعقوب بن يوسف بن
داود، توفي سنة ٣٣٤هـ/٩٤٦م.
- صفة جزيرة العرب، جزءان، طبعة دافيد ميلر، ليدن ١٨٩١.

٦٣ - الواقدي، أبو عبد الله محمد بن عمر، توفي - سنة
٢٠٧هـ/٨٢٣م.

- ٣٩٦ -

- كتاب المغازي، ٣ أجزاء، تحقيق الدكتور مارسدن جونس، منشورات
مؤسسة الأعلمي للمطبوعات، بيروت، لبنان.

٦٤- ياقوت، شهاب الدين ياقوت من عبد الله الرومي، توفي سنة
١٢٢٩هـ/١٢٢٩م.

- معجم البلدان، في ٦ أجزاء، نشر وستنفلد، ليبزج ١٨٦٦-١٨٧٣.
- ونشره محمد الخانجي، القاهرة ١٩٠٦-١٩٠٧، ١٠ أجزاء.

٦٥- اليعقوبي، أحمد بن أبي يعقوب بن جعفر بن وهب، توفي سنة
٢٧٨هـ/٨٩١م.

- كتاب البلدان نشر دجويه ليدن ١٨٩٢.

- تاريخ اليعقوبي، في جزئين، طبع بيروت ١٩٦٠.

الفهرست

